
د. حسين عبد البصير
أسرار الملوك والملكات في مصر القديمة
دار دَوّن
مكتبة بيت الحصريات
MAKTABBAH.BLOGSPOT.COM

إهـــداء



إلى

ملوك وملكات مصر القديمة

أوائل العائلات المالكة في العالم

وإلى

مصر أصل الحضارة

وإلى

أهل مصر الطيبيين

وإلى

أستاذي الكبير

الأستاذ نجيب محفوظ

(١١ ديسمبر ١٩١١ - ٣٠ أغسطس ٢٠٠٦)

الذي علمني بقوة عشق مصر القديمة

في

ذكرى رحيله الخامسة عشرة

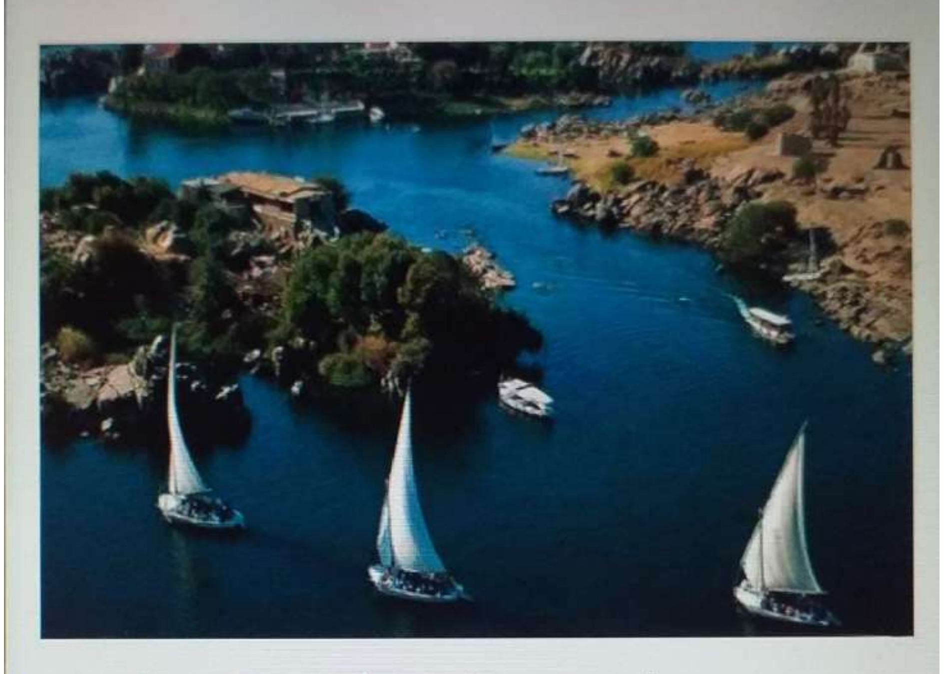
مقدمة: قصة الحضارة على أرض مصر

مصر هي مهدُ وأرضُ الحضارات؛ ففي مصر وُلد التاريخ والحضارة البشرية منذ آلاف السنين، وأينما تذهب تجد حتمًا جزءًا ما من تاريخ مصر، وكذلك من تاريخ العالم، لذا فلن نكون مخطئين إذا قلنا إن مصر والتاريخ توأمان متماثلان في كل شيء. فقد ظهرت الحضارة مبكرًا في وادي النيل ودلتاه المصريتين. ويجد المرء أنه من الصعب اختيار نقطة زمنية معينة يسرد منها قصة التاريخ المصري المثيرة والشيقة؛ فمصر موغلة في القدم قِدَم الزمن نفسه. وإذا تغاضينا عن البداية المبكرة لظهور الإنسان على الأرض المصرية، والذي كان ظهوره من بين أوائل الأجناس البشرية التي عرفتها القارة الأفريقية، فإن معرفة المصري القديم لحرفة الزراعة المنظمة والمستقرة على ضفاف نهر النيل العظيم في حوالي الألف السادس قبل الميلاد تعد، في رأيي، هي البداية الحقيقية لنشأة الحضارة المصرية التي سوف تستمر آلاف السنين.

مصر هبة النيل والمصريين

شكَّل نهر النيل المصدر الأساس لنشأة هذه الحضارة المصرية العريقة التي جعلت «أبو التاريخ» المؤرخ الإغريقي الأشهر «هيرودوت» يصف الحضارة المصرية بـ «هبة النيل»، وهو وصفٌ لا يخلو من منطقية ووجاهة، غير أن صحة وصفه يجب أن تكون على هذا النحو «مصر هبة النيل والمصريين»؛ فلولا المصريون لما نشأت الحضارة المصرية العظيمة على ضفاف النهر العظيم الذي يمر بدول أفريقية عديدة لم تنشأ بها حضارات بلغت ما وصلت إليه الحضارة المصرية من تقدُّم واستمرارية وازدهار. وكان يمتاز الإنسان المصري - البنَّاء العظيم صاحب ومشيِّد هذه الحضارة الفريدة -والبناء والتحضر والميل إلى السلم وبعشق العمل وإتقانه والدأب والصبر والصمت والهدوء والحلم وتحمُّل الشدائد والإيمان والتسامح.

وتقع مصر في الركن الشمالي الشرقي من القارة الأفريقية وتمتد في جنوب غرب آسيا من خلال شبه جزيرة سيناء، بوابة مصر الشرقية والمدخل الرئيس للغزاة إلى الأرض المصرية عبر التاريخ. وجعل هذا الموقع الجغرافي المتميز من مصر ملتقى للحضارات وبوتقة لتلاقي الثقافات، وجعل كذلك منها مطمعًا للغزاة والطامعين والمحتلين عبر تاريخها الحضاري الطويل.



نيل مصر والمصريين، أصحاب الفضل الأكبر في نشأة الحضارة المصرية القديمة

أؤكد ثانيةً أن مصر لم تكن هبة النيل فحسب، كما قال المؤرخ الإغريقي هيرودوت، بل إن مصر هي هبة النيل والمصريين؛ لأنه لولا جهد الإنسان المصري وعطاؤه ما كانت الحضارة المصرية، ولأن نهر النيل يمر ببلاد عديدة قبل أن يصل مصر ولم تزدهر بها حضارات عظيمة مثل الحضارة المصرية؛ إذًا فمصر هي هبة النيل والمصريين معًا. وساهم اعتدال المناخ في نشاط المصريين، ونشأة وازدهار الحضارة في أرض مصر المباركة، أو «كيمت تا مري» أي «مِصر الأرض المحبوبة» كما أحَبَّ المصري القديم أن يطلق على بلاده، مصر العظيمة. وساهم الجفاف في حماية والحفاظ على الآثار المصرية. وكان الإنسان المصري المدني والمتحضر بطبعه الشريك الأعظم والمساهم الأكبر في نشأة وتكوين حضارة مصر الخالدة في دلتا النيل والوادي الخصيب؛ فقد كان الإنسان المصري القديم من العبقرية بمكان أن استطاع بذكاء شديد وتفرُّد ليس له مثيل أن يوظف كل ما هيَّأه الله له في الطبيعة المحيطة به كي يبدع الحضارة المصرية العظيمة. ومما لا شك فيه أنه لولا عبقرية الأداء وروعة الإبداع من قِبل الإنسان المصري القديم ما كانت الحضارة المصرية القديمة، وساهم عدم وجود حواجز أو موانع طبيعية في سهولة ويُسر التواصل والتعايش بين المصريين وبعضهم البعض وبين جيرانهم من الشعوب والحضارات المجاورة. وكذلك ساهمت الحدود الطبيعية الآمنة في تحقيق الأمن والاستقرار وحماية مصر من الأعداء، وكانت بمثابة دفاعات طبيعية أو دروع واقية خلقها الله كي تدفع الأعداء عن أرض مصر المباركة، وكي تقاوم المعتدين والطاعمين

في خيرات مصر. ومنح الله بوفرة كبيرة أرض مصر الطيبة العديد من الثروات الطبيعة المتنوعة مثل الثروات المعدنية من صخور ومعادن، ومن الثروات الطبيعية من النباتات والحيوانات؛ مما ساعد المصري القديم على بناء حضارته الخالدة التي ما تزال تسحر العالم كله بجمالها وتخلب العقول وتبهر الأبصار بغموضها وسحرها. وكان الإنسان المصري القديم في صراعه مع الطبيعة والبيئة المحيطة به موفَّقًا للغاية في كبح جماحها وترويضها وإخضاعها لتحقيق أهدافه الحضارية منها.

اسم مصر

تعددت الأسماء والصفات التي أُطلقت على مصر، خصوصًا في مصر الفرعونية. وجاء اسم مصر في اللغة الإنجليزية «إيجيبت» من التعبير المصري القديم «حوت كا بتاح» - ويعني «معبد قرين بتاح» - وهو اسم معبد مصري قديم خُصِّص للمعبود المصري القديم «بتاح»، إله مدينة «منف»، العاصمة المصرية القديمة. وينتمي المصريون إلى الجنسين السامي والحامي. ويطلق المصريون على مدينة القاهرة، العاصمة، «مصر»، مختزلين اسم بلدهم في عاصمتهم.

وتبدأ قصة الحضارة المصرية المكتوبة في حوالي العام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، حين أبدعت مصر القديمة الكتابة وأدخلت العالم إلى دنيا التدوين فتراكمت الخبرة الإنسانية والتراثية وحافظت على الذاكرة البشرية من الضياع. وهذا العصر هو عصر المركزية، والذي سوف يستمر طويلاً، ويصبح سمة غالبة للإدارة المصرية عبر تاريخها الطويل خصوصًا في عصور القوة، وسوف يتحولُ كثيرًا إلى عقبة في مسيرة التنمية والقضاء على المركزية في صنع القرار.

توحيد مصر

عندما تمَّ توحيد مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلي (الدلتا) في مملكة واحدة وقيام الدولة المركزية على يد الملك «حور عحا»، أو «مينا»، بمعنى «المثبت»؛ أي المثبت لأركان الوحدة المصرية، استقرت في هذه الفترة المبكرة قيم ومعايير سوف تحكم الدولة المصرية وتصبغ الشخصية المصرية إلى الآن. وبعد هذا التاريخ المبكر الذي اشتمل على الأسرتين الأولى والثانية، دخلت مصر عصر الدولة القديمة والذي يُعرَف أيضًا بـ «عصر بناة الأهرام»، وفيه شيَّد المصريون الأهرام المصرية الشهيرة في الجيزة وسقارة ودهشور و«أبو رواش» و«أبو صير» وغيرها، ونحتوا تمثال «أبو الهول» الشهير فوق هضبة أهرام الجيزة ممثلاً الملك خفرع، باني الهرم الثاني بالجيزة. وتقف الآثار المصرية شامخة شاهدًا ودليلاً على عبقرية الأداء وروعة الإنجاز والإعجاز المعماري والهندسي والفلكي والإداري الخاص بالمصريين

القدماء.

بعد ذلك العصر الذهبي، مرت مصر بفترة اضمحلال، خرجت مصر بعدها قوية إلى عصر الدولة الوسطى حين وصل الأدب المصري القديم إلى القمة، ويُعرَف هذا العصر بـ «عصر الأدب الكلاسيكي». وبعد هذا العصر الذهبي، مرت مصر بأصعب محنة عرفتها في تاريخها الفرعوني القديم كله، ألا وهي احتلال أرض مصر من قِبَل قبائل أجنبية، تُعرَف باسم «الهكسوس»، (وتعني «حكام الأراضي الوعرة» في اللغة المصرية القديمة)، تسللت بطريقة سلمية في غفلة من الزمن إلى مصر عبر حدودها الشرقية وبسطت سيطرتها على أجزاء كبيرة من الأرض المصرية حين ضعفت مصر القوية. وبعد كفاح طويل ومرير، استطاع الملك المصري الطيبي الجنوبي الشهير، «أحمس الأول»، طَرْد الهكسوس من كل الأرض المصرية ودفعهم إلى الهروب إلى فلسطين. وبتحرير مصر من الهكسوس، نشأت الدولة الحديثة؛ العصر الذهبي الثالث والأخير في مصر الفرعونية، والذي يُعَدُّ واحدًا من أروع فترات الازدهار في تاريخ الحضارة المصرية القديمة. وخلال ذلك العصر، اتبعت مصر سياسة خارجية جديدة جاءت كردِّ فعلٍ على محنة احتلال الهكسوس لأرض مصر. وقامت هذه السياسة على التوسُّع في الفتوحات الخارجية وضم العديد من الإمارات والممالك إلى زُمرة السيطرة المصرية، وهذا ما يُعرَف بـ «عصر الإمبراطورية» في مصر الفرعونية. ويُعَدُّ الفرعون تحتمس الأول هو مهندس الإمبراطورية المصرية في آسيا وأفريقيا، ثم أكمل البناء من بعده حفيده الفرعون الأشهر وسيد الملوك المحاربين الملك العظيم تحتمس الثالث، أو نابليون العالم القديم، غير أن تحتمس الثالث أهم وأعظم من نابليون بونابرت؛ لأنه لم يُهزَم في أي معركة خلال معاركه العسكرية في حملاته السبع عشرة التي فتحها بها الشرق الأدنى القديم، وما تزال خططه الحربية تُدرَّس في أكاديميات العالم العسكرية الكبرى. ومن بين أشهر الملوك الفراعنة أيضًا في هذا العصر، أحمس الأول وحتشبسوت وتحتمس الرابع وأمنحتب الثالث وأخناتون وتوت عنخ آمون وسيتي الأول ورمسيس الثاني ورمسيس الثالث غيرهم.

وبعد ذلك العصر، دخلت مصر ما يُعرف بـ «عصر الانتقال الثالث» وفيه ساد التوتر والانقسام واللا مركزية الأرض المصرية. وعانت مصر الشيء الكثير في عصر الانتقال الثالث، ثم حاولت معاودة الأمجاد في العصر المتأخر، وحكمت فيه مصر أسرات مصرية كان من بين أهمها عصر الأسرة السادسة والعشرين الصاوية، صاحبة النهضة المصرية القديمة، أو عصر الرينسانس المصري القديم في العصر المتأخر، مع بعض فترات من الاحتلال الفارسي إلى أن جاء الإسكندر الاكبر، وعلىَ يديه وعلى أيدي خلفائه الملوك البطالمة، تحوَّلت مصر إلى مملكة إغريقية- بطلمية يحكمها الغرباء إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

مكتبة الإسكندرية درة تاج العالم والثقافة

كان من أعظم إنجازات البطالمة الحضارية تأسيس مكتبة الإسكندرية، دُرّة التاج الثقافية الكبرى في العالم القديم، والتي تم إحياؤها في العصر الحديث من خلال مكتبة الإسكندرية التي تم افتتاحها في يوم ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢؛ كي تواصل دور مكتبة الإسكندرية القديمة وتكون مكتبة مصر العالمية في كل مكان في العالم كله، وبالفعل أصبحت مكتبة الإسكندرية الجديدة نافذة مصر على العالم ونافذة العالم على مصر من خلال دورها الثقافي والريادي والحضاري في مد جذور الإبداع والحفاظ على التراث ونشر ذلك في كل مكان في العالم اليوم وغدًا. وبهزيمة الملكة البطلمية الشهيرة كليوباترا السابعة على يد الرومان، انتهى حكم مصر البطلمية وصارت مصر جزءًا مهمًا من الإمبراطورية الرومانية.

موقع جغرافي متميز

أنعم الله سبحانه وتعالى على مصر - قلب العالم القديم - بالموقع الجغرافي المتميز الذي يتوسط قارات العالم القديم، وساهم ذلك الموقع الجغرافي المتميز في تواصل مصر مع جيرانها وسهولة الاتصال والتأثير والتأثر مع حضارات العالم القديم. ومنحها نهر النيل الخالد الذي سهّل الاتصال بين الشمال والجنوب ووحّد الدلتا ووادي النيل حضاريًا ودينيًا وثقافيًا منذ أقدم العصور. وكذلك ساهم النهر الخالد في وحدة مصر وتماسكها عبر العصور وتوحيد جهود المصريين وتضامنهم لإقامة الجسور والحفاظ على مياه الفيضان مما جعل المصريين يعيشون كشعبٍ واحدٍ عبر آلاف السنين. ونشّط النهر العظيم التجارة الداخلية بين الشمال والجنوب ودعّم من تواصل المصريين وتماسكهم مع بعضهم البعض، ونشر حضارة الفراعنة في البلاد المجاورة لأرض مصر الخالدة، مما ساعدَ في إحداث موجات حضارية من التأثير والتأثُر المتبادلة بين مصر وجيرانها وإلى ما وراء ذلك من نطاقات حضارية مغايرة.

الاستقرار على ضفاف النيل

استقر المصريون القدماء على ضفاف نهر النيل. وكانت الوحدة السياسية ضرورة تستجوبها رغبة المصريين العارمة لدخول التاريخ. وحدثت الوحدة مع بدايات الأسرة الأولى وكانت بداية الانطلاق نحو الكتابة والتدوين ودخول العصور التاريخية والخروج من عصور ما قبل التاريخ إلى رحابة العصور التاريخية. لقد تمت الوحدة السياسية بعد أن تم توحيد البلاد حضاريًا ودينيًا تحت لواء المعبود حورس، الرب المصري الأزلي، وحدثت الوحدة من الجنوب إلى الشمال إلى أن قام الملك حور عحا، أو الملك مينا، بتوحيد مصر في دولة حضارية وسياسية واحدة. وسوف تستمر مصر موحّدةً أبد الأبدين في موقعها الجغرافي المتميز الذي جعل منها سيدة العالم القديم ومعلمة البشرية وملهمة الإنسانية وصانعة الحضارة ومبدعة

التاريخ.

الملك مصدر السلطات

كان الملك هو رأس الدولة المصرية القديمة، وكان مصدر كل السلطات خصوصًا السلطتين الدينية والدنيوية حتى يكون قادرًا على القيام بمهام الملكية المقدسة الملقاة على عاتقه. وكان الملك يدير السياسة الداخلية من خلال جهاز الإدارة الداخلية ممثلاً في منصب الوزير سواء أكان وزيرًا لمصر كلها أو وزيرًا للشمال وآخر للجنوب، أو ممثل الملك في النوبة وكبار رجال الدولة وحكّام الأقاليم، وكان للملك الحق في إصدار المراسيم والقوانين التي تكفل تحقيق العدالة والأمن والاستقرار للمجتمع، وكان الملك يمثل الآلهة على الأرض، وكانت الملكية مقدسة في مصر القديمة، وكانت للملك مهام عديدة ومهمة، وكان أهمها إقامة العدل وتحقيق الأمن والاستقرار والرخاء لأرض مصر وشعبها، وكان إمداد معابد الآلهة بالقرابين وتحقيق الخدمة اليومية بالمعابد المصرية من أهم وظائف الملك المصري القديم باعتباره ابن الآلهة وممثلاً لسلطتهم الدينية على الأرض، وكان الفرعون يدير السياسة الخارجية من خلال التمثيل الدبلوماسي وعقد المعاهدات الدولية وقيادة الجيش وإعلان الحرب ويدير مجلس الحرب، وكان يقود المعركة بنفسه أو يكلف قائد الجيش بذلك. غير أن تأمين أرض مصر والدفاع عنها كان من أهمّ مهام الفرعون في مصر القديمة. وكان الملوك في مصر القديمة يقومون بكل تلك المهام خصوصًا حماية أرض مصر والدفاع عنها وتوسيع أرض مصر، إذا دعت الضرورة إلى ذلك، منذ أقدم العصور. وفي الأغلب الأعم نجح ملوك مصر الفرعونية في القيام بمهامهم الملكية المقدسة على أكمل وجه.

سيدة العالم القديم

كانت المرأة في مصر القديمة هي سيدة المجتمع المصري القديم بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وحصلت على ما حصلت عليه المرأة في العالم المعاصر من زمنٍ بعيد. ولولا المرأة المصرية القديمة، ما كانت مصر القديمة؛ فالمرأة المصرية هي زمانة الميزان ومركز الدفع والتحفيز على العمل والإبداع وشحذ الهمم والطاقات لدى رجال مصر العظام. وسبقت مصر العالم في احترام المرأة ومنحها حقوقها كاملة، وتمتعت المرأة في مصر القديمة بمكانة عالية، وحظت بحقوق كثيرة لم تحظَ بها مثيلاتها في العالم القديم، بل في العصر الحديث إلا منذ فترة قريبة. وكان دور المرأة في مصر القديمة كبيرًا ومهمًا للغاية؛ وكانت مساوية للرجل، ومشاركة له في الحياة، وملازمة له في العالم الآخر.

كانت سيدة مجتمعها، ووصلت لأعلى درجات التقدير فيه. وكانت خيرَ رفيقٍ للرجل في الدنيا والآخرة. وتميزت بالسّبق والإبداع والتميّز في مجالات عدة، وحملت العديد من

الألقاب سواء في البيت أو في القصر أو المعبد أو في المجتمع، وشجَّع المجتمع المصري القديم على الزواج ونصح الحكماء بالإقدام عليه في سن مبكرة، وكانت المرأة المصرية القديمة سيدة في بيتها، وتنوعت أدوارها في مجتمعها منذ بداية الحضارة المصرية القديمة، وحملت من الألقاب ما يدل على ذلك مثل لقب «نبت بر» أي «سيدة البيت»، مما يدلُّ على عِظَم المكانة والتقدير الذي حظيت به في بيت زوجها؛ فكانت تقوم بأعمال بيتها وتساعد زوجها في عمله مثل العمل في الحقل وأعمال الزراعة وعمل السلال والحصر وتربية الماشية والطيور وطحن الحبوب وتجهيز العجين وخبز الخبز والفطائر في الفرن وصناعة الجعة وورش النسيج، وكانت تعمل كمربية للأبناء والبنات في بيوت كبار رجال الدولة والملوك، وكانت أيضًا تعمل في المعابد، وكان البعض منهن يجيدن القراءة والكتابة والحساب.

ملوك وملكات مصر: قصة عشق لا تنتهي

منذ أقدم العصور حكمَ الملوكُ أرضَ مِصر، وكذلك حكمت المرأة المصرية القديمة البلاد بانفراد، مما يدل على عظمة الشخصية المصرية ومدى تحررها وانفتاحها والسماح للملكات بأن يعتلين عرش مصر مثل الرجال. وكان إسهامها في ذلك لا يقل عن إسهام الرجل، وكان دور بنات الملوك مهمًا وحلقة وصل في سلسلة تتابع الملوك على العرش؛ نظرًا لما يجري في عروقهن من دم ملكي، وكان لمن يتزوجهن الحقُّ في أن يصبح حاكمًا على مصر. ويوَضِّح ذلك دور الملكات المصريات الرائد وعظمتهن في انتقال الحكم، وفي تكوين ملوك مصر العظام.



الملكة تي وزوجها الملك أمنحتب الثالث وجلال وجمال الأسرة الملكية المصرية

كان يتم تكليف الملكة الأم بحكم البلاد نيابة عن ابنها، الملك الطفل. وتُعدُّ هذه الواقعة التاريخية من أوائل الحوادث في هذا السياق، وكان دور النساء مُهمًا في الحفاظ على عرش البلاد لأبنائهن حتى يبلغوا سن الرشد. وقد تردَّد العالم الحديث في اتباع نظام وصاية النساء على العروش، وتم اتباعه في مصر القديمة؛ نظرًا لأن الأم هي الشخص الأكثر ولاءً ووفاءً وإخلاصًا لابنها الملك الطفل؛ فضلاً عن كونها تنتمي بالدم للعائلة المالكة، وأيضًا كانت متدربة على تحمُّل مسؤوليتها التاريخية والدفاع عن ابنها الطفل حتى يشب عن الطوق. وكانت الأمهات - في أغلب الأحوال - هن اللواتي يقمن بهذا الدور المجيد حين يرحل الزوج فجأة. وهذه السنة الحسنة سوف يسير عليها العالم بعد ذلك وتصبح من أدبيات وآليات انتقال الحكم في دنيا الحكم والسياسة.

كانت علاقة المرأة قوية وقائمة على الحب مع زوجها وكانت محل تقدير أبنائها، وصُوِّرت المرأة واقفة إلى جوار زوجها في حجم مقارب لحجمه. وتطوق جسده بذارعها، وتضع يدها اليمنى أسفل صدره، وتلامس بيدها اليسرى ذراعه الأيسر في حنان وحب واضحين. ويحمل هذا التصوير الفني مغزى حضاريًا معاصرًا يعبر عن قمة الحب والتراحم والحنان والتواصل بين الرجل والمرأة في المجتمع المصري القديم. ويمثل الزوج في صورة إنسانية كزوج محب

لزوجته وشريكة كفاحه.

المرأة تدافع عن الوطن

شاركت المرأة المصرية في الدفاع عن الوطن مما يوضح عظمة الدور الذي من الممكن أن تقوم به النساء في تحرير الأوطان وشحذ همم الرجال من الأبطال كي يعيدوا لمصر كرامتها وعزها. وكان للملكة المناضلة «تتي-شري» دور كبير في تحرير مصر من احتلال الهكسوس على يد حفيدها الملك أحمس الأول الذي حرر مصر من احتلال الهكسوس وطاردهم إلى خارج الحدود المصرية إلى جنوب فلسطين. وفي هذا ما يوضح عظم دور ملكات مصر العظيمات في الدفاع عن أرض مصر الخالدة، وتنشئة الملوك الأبطال الجديرين بحكم مصر. وساهمت أمه الملكة إياح حتب الأولى في تسيير الفرق العسكرية، ولعبت دورًا كبيرًا في الدفاع عن العاصمة طيبة، وحمت مصر واعتنت بها وبالجنود، وقامت بأداء الشعائر، وجمعت الهاربين وأعادت الفارين، وأنزلت السلام والسكينة على مصر العليا، وطردت المتمردين. وعثر ضمن آثارها على عدد كبير من الآثار العسكرية مثل فأس يدوية وخنجر وأنواط عسكرية على شكل قلادات الذبابات الذهبية مما يؤكد على عظم دورها العسكري الفريد.

وهيا بنا الآن ندلف معًا إلى عالم الملوك والملكات الجميلات المصريات، ملكات القلوب، قلوب أزواجهن، ملوك مصر العظام. إن عالم ملوك وملكات الفراعنة عالم مميز يمتزج فيه الحب بالدراما بالسلطة. ومن خلال هذه المجموعة المنتقاة من ملوك وملكات مصر العظيمة، منذ عهد الملك حور عحا، أو مينا موحد القطرين، وأمه صاحبة الجلالة الملكة نيت حتب إلى عهد الساحرة الجميلة والفاتنة الذكية الشهيرة الملكة كليوباترا السابعة، نستطيع أن نسعد بنسيم وعطر مصر القديمة الجميل العبق، وأن نكشف أسرار وسحر وجمال وغموض وتاريخ مصر القديمة وملوك مصر وملكاتها المصريات الجميلات.

وتذكر أيها القارئ الكريم أن مصر القديمة كانت، وما تزال، دومًا سباقة في كل خير وحق وجمال وفي سن ما هو مفيد للإنسانية؛ لأن مصر هي التي علمت العالم أصل كل شيء، وهي التي أرشدت البشرية جمعاء إلى فجر الضمير ونور اليقين وحلاوة الإيمان وفكرة الدين وروعة التوحيد.

دكتور حسين عبد البصير

مدير متحف الآثار- مكتبة الإسكندرية

أهرامات الجيزة، ٣٠ أغسطس ٢٠٢١

الباب الأول:

عصر الأسرات المبكرة والدولة القديمة

الملك حور عحا

أول ملوك مصر المحاربين هو الفرعون حور عحا (أي «الصقر المحارب») الذي يظهر اسمه طبيعة الفترة التي عاش فيها. وأطلق عليه اسم «مِنِي» أو «مينا» بمعنى «المثبِت» أي الذي ثبَّت أركان الوحدة المصرية.

وشهد هذا الملك في فترة حكم والده الملك «نعرمر» (أو نارمر آخر ملوك عصر الأسرة صفر) عصرًا طويلاً من الصراعات السياسية والعسكرية عبر الأرض المصرية ككل. ومن الجدير بالذكر أنه تم توحيد الأرض المصرية حضاريًا ودينيًا تحت راية المعبود حورس الذي حارب تحت رايته أتباعه إلى أن تم استكمال الوحدة السياسية من الجنوب إلى الشمال على مراحل وصلت نهايتها إلى أعماق الدلتا المصرية.

والملك حور عحا أو مينا هو أول ملوك مصر وهو الذي وحَّد القطرين وأنشأ الدولة المركزية في حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد. وكانت القوة العسكرية في عهد هذا الملك المؤسس تقوم على توحيد أرض مصر تحت قوة واحدة وتحت راية واحدة والدفاع عن الحدود المصرية ضد أي عدوان خارجي، مع بسط نفوذ مصر في الجنوب في بلاد النوبة وفى الشمال الشرقي في بلاد الشام.

ويُشير نقشٌ على بطاقة مصنوعة من العاج من منطقة أبيدوس في محافظة سوهاج في صعيد مصر إلى حملة عسكرية قام بها الملك حور عحا ضد بلاد النوبة. وتمَّت تسمية هذا العام بـ «عام السيطرة على إقليم تا-ستي (أي بلاد النوبة)». وتوضح بقايا آنية من منطقة عين باصور في جنوب فلسطين أن هذه المنطقة كانت مركزًا نشيطًا في فترة حكم هذا الملك، وأنه كانت هناك مراكز عسكرية وإدارية مصرية في هذا الجزء من جنوب فلسطين لحماية وتأمين طرق التجارة المصرية. وامتد الملك حور عحا بحدود وسيطرة ونفوذ مصر إلى منطقة جبيل في جبل لبنان على الساحل الفينيقي. وأمدَّتنا مقبرة الملك حور عحا، ضمن مقابر ملوك الأسرة الأولى بأبيدوس، ببقايا أوانٍ من جنوب بلاد الشام.

ذلك فرعون قاتلَ من أجل نشأة أمَّة وتأسيس دولة. وتلك هي مصر المحاربة التي علَّمت العالم مبادئ العدل والحق والقوة وعدم العدوان والدفاع عن الأوطان منذ فجر التاريخ.



صلاية الملك نعرمر (أو نارمر)

الملكة نيت حتب

تمتعت المرأة في مصر القديمة بمكانة عالية لم تحظ بها مثيلاتها في العالم القديم، بل لم تحظَ بها المرأة في العصر الحديث إلا منذ فترة قريبة. وكان دور المرأة في مصر القديمة كبيرًا ومهمًا للغاية، وكانت مساوية للرجل، ومشارِكة له في الحياة، وملازمة له في العالم الآخر؛ إذ كان يرغب الرجال في العودة للحياة بصحبة زوجاتهم حتى يعيشوا حياة أبدية معهن.

وعرفت مصر القديمة عددًا كبيرًا من الملكات منذ أقدم العصور؛ ومنهن مَن كُن زوجات ملوك أو كن ملكات حاكمات لفترات طالت أو قصرت، ومنهن مَن حفل التاريخ بذكراهن، ومنهن مَن لم تصل سيرتهن إلى أسماعنا.

وتُعتبَر الملكة الزوجة والملكة الأم الملكة العظيمة نيت حتب أقدم ملكات مصر القديمة إلى الآن. وكانت زوجة للملك نعرمر (أو نارمر كما يشتهر اسمه بيننا)، آخر ملوك عصر ما قبل الأسرات أو عصر التوحيد، ووالدة الملك حور عحا أو الملك الأشهر بيننا تحت اسم الملك مينا، موحد القطرين، أول ملوك الأسرة الأولى ومصر الموحدة في حوالي ٣٢٠٠ قبل الميلاد. وترجع أصول تلك الملكة إلى دلتا نهر النيل الخالد. وكان زوجها الملك نعرمر من أهل صعيد مصر الأصيل. ويبدو أن هذا الملك الجنوبي كان قد تزوج من تلك الأميرة الشمالية كي يمهد الطريق لتوحيد قطري مصر: الشمال والجنوب، أو الدلتا والصعيد. وصور الملك نعرمر على صلايته الشهيرة، التي كانت تُستخدم لصحن الكحل، منتصرًا على أهل الشمال. وعلى مقمعة نفس الملك، التي كان يقهر بها أعداءه، ربما تم تصوير تلك الأميرة الشمالية، نيت حتب، جالسة في جوسق مما قد يُشير إلى إتمام مراسم الزواج بين ذلك الملك الجنوبي الأصل وتلك الأميرة الشمالية. وكانت تلك الملكة رفيقة كفاح زوجها الملك نعرمر في سبيل توحيد شطري مصر، غير أن الأقدار شاءت أن يتم ذلك التوحيد التاريخي لأرض مصر الخالدة على يديْ ابنهما، الملك حورعحا، أو الملك مينا، كما سبق القول.

وجاء من ثمرة ذلك الزواج المبارك الابن وولي العهد الملك، حورعحا (أي حورس المحارب) بعد ذلك، الذي حمل لقب «مني»، أو مينا كما نعرفه حاليًا، بمعنى «المثبّت» الذي تمكّن من توحيد مصر شمالًا وجنوبًا وبدأ العصور التاريخية في مصر، وكوّن الأسرة المصرية الأولى في حوالي عام ٣٢٠٠ قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

ومنذ ذلك الحين البعيد، نشأت الأمة المصرية الموحدة التي تكوّن تاريخها على تلك الأرض المصرية المقدسة، ونشأت فيها الدولة المركزية، ولم تنقسم الأمة المصرية إلا قليلاً، ولم تغير

من دينها أو من لغتها إلا في مرات قليلة معدودات على عكس غيرها من الأمم في شتى بقاع الأرض. وتُعدّ الأمة المصرية هي الأمة الوحيدة في ذلك الشأن الفريد على وجه الأرض قاطبة.

ويتضمن اسم تلك الملكة اسم المعبودة الشمالية الشهيرة، الربة «نيت»، التي كانت مرتبطة بالملكات المصريات منذ القِدَم. ويعني اسم الملكة «الربة نيت راضية» أو «الربة نيت سعيدة». وتُعتبَر الربة نيت من الربات الحاميات، خصوصًا للشمال المصري. وفي هذا ما يؤكد على أن الملكة نيت حتب جاءت من الشمال. وكان مركز عبادة الربة نيت هو مدينة سايس أو صالحجر في وسط الدلتا الحالية. وكانت تلك الربة ترتدي التاج الأحمر الذي كان يرمز إلى الدلتا.

وتعددت الآثار التي حملت اسم الملكة نيت حتب في شمال مصر وجنوبها مثل حلوان وأبيدوس ونقادة، ولعلّ أهمها هو تلك المقبرة العظيمة التي تُنسَب - أغلب الظن - لتلك الملكة والتي دفنها فيها ابنها الملك الموحّد حورعحا في منطقة نقادة في محافظة قنا. وكانت أبعاد تلك المقبرة تزيد عن الخمسين مترًا في الطول، وعن العشرين مترًا في العرض. وعُثر بداخل تلك المقبرة على العديد من الأثاث الجنائزي الذي كان يخص تلك الملكة مثل أدوات التجميل والأواني الحجرية والبطاقات العاجية وطبعات الأختام المصنوعة من الصلصال والتي تحمل أسماء زوجها الملك نعرمر وابنها الملك حورعحا والملكة نيت حتب نفسها. وكانت مقبرة تلك الملكة تحتوي على العديد من الحلي الذي دلنا على وجوده تلك البطاقات العاجية التي كان مدوَّنًا عليها عددَ العقود والأساور والأثاث الجنائزي والذي كان موضوعًا في صناديق بجوار جسد الملكة المتوفاة كي تستخدمها في العالم الآخر.

تلك ملكة ساهمت في تأسيس أمة وفي تكوين ملك عظيم وتوحيد ونشأة واستمرارية أمة عظيمة هي الأمة المصرية.



المقبرة العظيمة للملكة نيت حتب في نقادة

الملكة حرنيت

ما نزال في عصر الأسرة الأولى، ومع ملكة مهمة من ملكات عصر الأسرات المبكرة وهي الملكة حرنيت. في حوالي عام ١٩٠٠ ميلادية، قام عالم الآثار البريطاني الأشهر وأبو علم المصريات الحديث السير وليام ماثيو فلندرز بتري بفحص مقبرة زوجها، أغلب الظن، الملك جر، ذلك الملك الذي حكم مصر بعد الملك حورعحا في عصر الأسرة الأولى. وتُعتبر مقبرة الملك جر المقبرة الأكبر في منطقة أبيدوس (العرابة المدفونة في محافظة سوهاج الحالية). واكتشف العالم وليام ماثيو فلندرز بتري ذراعًا بشريًا ملفوفًا باللفائف الكتانية ومزينًا بأربع أساور من الذهب والتركواز والجمشت واللازورد وذات خرزات ذهبية عديدة. ويُعد هذا الذراع البشري من أقدم الأشياء المحنطة في مصر القديمة. وبعد دراسة تلك القطع الأثرية اتضح أنه قد أخفى أحد اللصوص في العصور القديمة هذا الذراع وراء سلم المقبرة، فأنقذ تلك الكنوز الجميلة من السرقة التي حدثت للكثير من محتويات تلك المقبرة الملكية الكبيرة. وقادت قطع الحلي تلك العالم وليام ماثيو فلندرز بتري إلى الافتراض أن هذا الذراع يخص إحدى زوجات الملك جر، وليس الملك جر نفسه، غير أنه من غير المؤكد إثبات صحة نظرية العالم بتري تلك.

وعندما وصلت تلك الأساور الثمينة إلى المتحف المصري بالقاهرة الذي كان تحت الإدارة الأجنبية آنذاك، ومن أجل عرض الأساور فقط، للأسف قام أمين المتحف الأجنبي إميل بروجش بالتخلص من الذراع البشري واللفائف الكتانية ورميها وعدم عرضها أو دراستها أو حتى حفظها للأجيال القادمة، وركز على الأساور التي أصبحت من أهم قطع الحلي المعروضة بالمتحف. وعلى الرغم من أن مقبرة الملك جر قد احتوت على بقايا جسد لامرأة غير معروفة - وكانت من بينها جمجمة تلك السيدة التي ماتت في سن صغيرة، وربما كانت من الحريم الملكي الخاص بالملك جر - فإنها لم تكن لزوجته الملكة المعروفة حرنيت التي من المرجح أنها دُفنت في مقبرة أخرى بعيدة عن زوجها الملك مثلها في ذلك مثل كل الملكات زوجات ملوك عصر الأسرات المبكرة.

وتم اكتشاف مقبرة الملكة حرنيت في شمال مصر، وتحديدًا في منطقة سقارة الشمالية في محافظة الجيزة. وهي مقبرة كبيرة الحجم، وتقع في جبانة استخدمها النبلاء الذين كانوا يعملون في عاصمة البلاد التي كانت تسمى بـ «إنب حدج» أي «الجدار الأبيض» (والتي أطلق عليها اسم «منف» أو «ممفيس» في اللغات الأوروبية بعد ذلك). ومن الجدير بالذكر أنه يُطلق على مقابر سقارة اسم «مصطبة»، وهو اسم أطلقه عمال الحفائر المصريون الذين كانوا يعملون مع علماء الآثار الأجانب؛ وذلك لأنها تشبه المصاطب الموجودة أمام بيوتهم في

الريف المصري، خصوصًا في ريف الجيزة القريب من منطقة سقارة الأثرية. وكانت هذه المقابر أو المصاطب مليئة بكل أنواع القرابين والأطعمة التي كان يحتاج إليها المتوفى كي يستخدمها في العالم الآخر. وأدت ضخامة مقابر سقارة من ذلك العصر إلى الاعتقاد بأن هذه المقابر تخص ملوك عصر الأسرتين الأولى والثانية، غير أن الحقيقة الأثرية تشير إلى أن كل ملوك الأسرة الأولى وبعض ملوك الأسرة الثانية كانوا قد دُفنوا في جبّانة أم الجعاب في منطقة أبيدوس في محافظة سوهاج في صعيد مصر الذي جاء منه أولئك الملوك الأوائل المؤسسون للدولة المصرية العريقة.

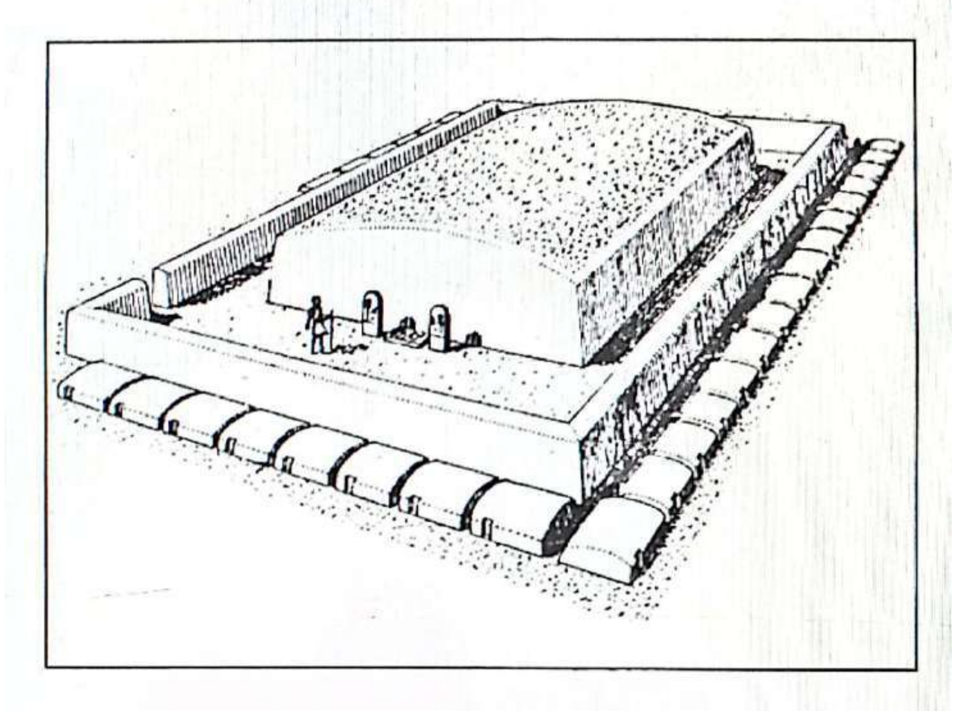
ونُقش اسم الملك جر على بعض الأواني في مقبرة زوجته الملكة حرنيت، وكذلك تم العثور على بعض الآثار التي تحمل اسم خليفته، الملك دن، ابنه من الملكة حرنيت، والملك قاعا، آخر ملك من ملوك الأسرة الأولى.

ويتضح من شكل مقبرة الملكة حرنيت من الخارج أنها عبارة عن مصطبة كبيرة من الطوب اللبن، غير أنه كان يوجد تل من الطمي يشبه الهرم وسط بناء المقبرة العلوي المستطيل الشكل. وتم تبطين المقبرة من الخارج بالطوب اللبن أيضًا. وتعد المقابر على شكل تلال إبداعًا قادمًا من الجنوب، بينما كان شكل المقابر على هيئة مصاطب اختراعًا شماليًا بحتًا. فهل جمعت الملكة حرنيت في مقبرتها بين هذين الأسلوبين المعماريين كي تؤكد بشكل رسمي على العلاقة الوطيدة بين شمال مصر وجنوبها؟ أم أن اختيارها جاء بناءً على التطوُر السريع للعمارة الجنائزية في ذلك العصر الذي ساهم في الوصول إلى فكرة بناء الأهرامات بعد ذلك؟ وأعني بذلك عصر الأسرة الثالثة عندما تم بناء الهرم المدرج في سقارة في عهد الملك زوسر.

تبقى الملكة حرنيت ملكة مُهمَّة وحلقة وصل في سلسلة ملوك متتابعين في عصر مبكر كان يتم فيه إرساء دعائم وأسس الدولة المصرية بمنتهى القوة حين كان العالم في ظلمات المجهول بينما مصر تُبدع وتصوغ فجر الضمير للعالم كله وللإنسانية جمعاء.

الملكة ميريت نيت

تعتبر الملكة ميريت نيت من أهم ملكات عصر الأسرة الأولى. ويعني اسمها «محبوبة نيت». ومن الجدير بالذكر أنها الملكة الوحيدة التي عثر لها على مقبرة في جبَّانة أم الجعاب في أبيدوس الخاصة بملوك العصر المبكر، مما جعل العلماء يعتقدون أنها حكمت مصر منفردة. وتركت الملكة عددًا من الآثار تربطها بالملوك جِر وچت ودِن. ومن بين هذه الآثار طبعات الأختام وبعض الأواني المنقوشة. وكان من اللافت للنظر والمثير للدهشة حقًّا أن الأختام المستخرجة من مقبرة الملكة لم تحمل اسمها، بل اسم الملك دِن، مما أثار حيرتنا. غير أن القدر لم يشأ أن يصدمنا كلية وجعلنا نعثر على ختمٍ قادمٍ من سقارة من المقبرة رقم ٣٥٠٣ يحمل اسم الملكة اللغز، ولكن هذه المرة داخل السرخ الملكي (واجهة القصر الملكي) الذي كانت تُكتب فيه أسماء الملوك، مما جعلنا نعتقد أنها حكمت مصر في ذلك العصر المبكر من تاريخ مصر مما يدل على عظمة الشخصية المصرية ومدى تحررها وانفتاحها والسماح للملكات بأن يعتلين عرش مصر العظيم مثلهن مثل الرجال في هذا الأمر الذي يرتبط بتقاليد مصر المقدسة في حكم أرض الإله المباركة. ومن اللافت للنظر هو عدم وجود اسم الملكة ميريت نيت في القوائم الملكية التي كتبها أهل مصر الأقدمين تسجيلاً لتاريخ بلادهم المجيد واحتفاءً بإنجازات ملوكهم السابقين وربما كان اسم الملكة مكتوبًا في ذلك الجزء المكسور من حجر باليرمو المحفوظ في المتحف الأثري المحلي في هذه المدينة الإيطالية الشهيرة والذي يسجل أسماء ملوك مصر القديمة الأوائل حتى الفترة المبكرة من عصر الأسرة الخامسة التي كُتب في عهدها ذلك الحجر.



إعادة بناء وتصوُّر لمقبرة الملكة ميريت نيت في أبيدوس

ومن المرجح أن الملكة ميريت نيت كانت ابنة الملك چر، ثم تزوجت من الملك چت الذي حكم مصر فترة زمنية قصيرة ومات فجأة. ونظرًا لتلك الظروف العصيبة التي مرت بها مصر، تم تكليف الملكة الأم بحكم البلاد نيابة عن ابنها، الملك الطفل، الملك دِن.

وتُعدُّ هذه الواقعة التاريخية من أوائل الحوادث في هذا السياق، وأعني تولي الملكات الأمهات حكم البلاد نيابة ووصاية عن أبنائهن من الأطفال الرضع أو الأطفال الصغار. وكانت هذه الحادثة التاريخية هي التي ربما دفعت بعض كتّاب القوائم الملكية في الفترات اللاحقة إلى تجاهل حكم هذه الملكة وإسقاط اسمها من قوائمهم؛ وذلك نتيجة لهذا الحدث التاريخي، أو بناء على قناعاتهم الشخصية بأهمية دور النساء في الحفاظ على عرش البلاد لأبنائهن حتى يبلغوا سن الرشد والحكم - كما فعلت الربة إيزيس مع ابنها، المعبود حورس - أو إيمانًا منهم بعدم أحقية الملكات من النساء في حكم البلاد، وتفضيل حكم الملوك من الذكور كممثلين للإله الذكر حورس ابن أوزيريس وإيزيس في حكم مصر. وقد تردّد العالم الحديث في اتباع نظام وصاية النساء على العروش، وتم اتباعه في مصر القديمة؛ نظرًا لأن الأم هي الشخص الأكثر ولاءً ووفاءً وإخلاصًا لابنها الملك الطفل، فضلاً عن كونها تنتمي بالدم للعائلة المالكة، وأيضًا كانت متدربة على تحمُّل مسؤولياتها التاريخية والدفاع عن ابنها

الطفل حتى يشب عن الطوق. وكانت الأمهات - في أغلب الأحوال - اللواتي يقُمن بهذا الدور المجيد حين يرحل الزوج فجأة. غير أنه كان هناك بعض الأوصياء الرجال، لكن في حالات قليلة جدًا، ولعلّ ما يؤكد هذا السيناريو هو طولُ حكم فترة الملك دِن بشكلٍ كبيرٍ مما جعله يحتفل مرتين بعيد «سد»، أي عيد جلوس الملك على عرش مصر، والذي كان يتم الاحتفال به كل ثلاثين عامًا، مما يعني أن هذا الملك ربما يكون قد حكم البلاد لمدة ستين عامًا، غير أنه لم يلتزم الملوك بانقضاء مدة الثلاثين عامًا، بدليل أن هذا الملك حكم مصر حوالي ٤٢ عامًا فقط. ونظرًا لأن هذه الملكة حكمت البلاد كملك معاصر لحكم ابنها، الملك دِن، فقد تم السماح لها بتشييد مقبرة ملكية، تكريمًا وتقديرًا لها، بين ملوك مصر الخالدين من حكام مصر في ذلك العصر.

وسوف تظل ذكرى الملكة ميريت نيت خالدة في أذهان المصريين؛ نظرًا لعظم الدور الذي قامت بها حفاظًا على حكم مصر وعرش ابنها الملك الطفل في ذلك التاريخ المبكر من عمر مصر الخالد والعالم، مبتدعة سنة حسنة سوف يسير عليها العالم كله بعد ذلك وتصبح من أدبيات وآليات انتقال الحكم في دنيا الحكم والسياسة، وهي الوصاية على عرش الملوك الأطفال. هذه جدتنا الخالدة، الملكة ميريت نيت العظيمة؛ لذا كان من حقها أن تُخلّد بدفنها، وأن تكون الملكة الوحيدة، في مقابر أبيدوس الملكية بين ملوك مصر الخالدين.

الملك زوسر

حكم الملك زوسر أو «جسر» الذي يعني اسمه «المقدس» أو «نثري خت» أي «مقدس الجسد»، البلاد حوالي ٢١ عامًا تقريبًا منذ ٢٦٦٧-٢٦٤٨ قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام. وكان الملك زوسر العظيم، من أوائل ملوك الأسرة الثالثة الفرعونية في عصر الدولة القديمة أو «العصر المنفي»؛ الذي أطلق عليه هذا الاسم بسبب اتخاذ ملوك هذا العصر من العاصمة «منف» لاحقًا («إنب حدج» في زمن الملك زوسر) مقرًا لحكمهم، أو ما يُعرف بـ «عصر بناة الأهرام»؛ نظرًا لما بناه ملوك هذا العصر الذهبي العظام من أهرام ليس لها مثيل، لا تشهد على التقدُّم الهندسي والفلكي والمعماري فحسب، بل تشهد أيضًا على عظمة وعبقرية إنسان بلادنا القديم الإدارية الذي عزف سيمفونية رائعة كي يدير منظومة العمل التي ساهمت في بناء تلك العجائب المصرية الفريدة باقتدار ما بعده اقتدار.

قام المهندس العبقري إيمحتب (ويعني اسمه «الذي يأتي في سلام») في عهد ملكه زوسر بتنفيذ خططه غير المسبوقة، وطور الواقع متجاوزًا الممكن إلى سماوات المستحيلة الرحيبة والبعيدة.



تمثال الملك زوسر بالمتحف المصري بميدان التحرير بالقاهرة

كان الملك زوسر يريد أن يشيد أثرًا مهمًا؛ فهداه تفكيره إلى بناء الهرم المدرج في جبّانة

سقارة (جبّانة العاصمة منف لاحقًا)؛ كي يكون أول هرم يُبنى في العالم، وأكبر بناء من الحجر على نطاق واسع. وبدأ الملك العظيم زوسر يفكر في أن يبني ذلك الأثر المعماري الفريد؛ كي يكون علامة على عهده وبداية لفترة جديدة من تاريخ البلاد المبكر، وأن يكون رمزًا مميزًا له عبر العصور. أصدر الملك أوامره لكل مؤسسات الدولة بأن توفر للمعماري إيمحتب كل ما يحتاجه كي يتمكن من بناء ذلك البناء الهرمي الجديد والفريد.

وأشرف العبقري إيمحتب على بناء هرم مولاه الملك زوسر وأجزاء مجموعته الهرمية المختلفة، وأستخدِمَ الحجر في تلك المجموعة الهرمية المبكرة على نطاق واسع لم يستخدمه معماري من أهل البلاد من قبل. كما نفذ عناصر العمارة النباتية واللبنية السابقة في العمارة الحجرية في مجموعة الملك زوسر، فضلاً عن تحويل مقبرة مولاه الملك المقدس من مصطبة ذات مدرج واحد إلى هرم مدرج متعدد الدرجات يبلغ ستة مدرجات من الحجر. واكتملت عناصر الهرمية الخاصة بالملك زوسر، وصارت واحدة من أروع المجموعات الهرمية من عصر الدولة القديمة بفضل عبقرية المهندس المعماري إيمحتب وتفهمه لأوامر ورغبات مولاه الملك المحبوب زوسر.

حدثَ في العام الثامن من عهد الملك زوسر، أغلب الظن، أن عز فيضان النهر العظيم؛ فقلَّت الحبوب والمحاصيل الزراعية، وشعر جميع أهل البلاد بوطأة وعظم أمر المجاعة التي لحقت بالبلاد. وساد الحزن القصر الملكي وأخذ الملك المحبوب في البحث عن أسباب ذلك الجوع الذي حلَّ ببلاده العظيمة ذات الرخاء القديم؛ فدعا إلى حضرته الملكية أيضًا رجل الدولة المحبوب إيمحتب، وطلب الملك منه أن يتعرَّف إلى منابع النهر الخالد والإله الذي يتحكم فيه؛ فاختلى العبقري بنفسه وبأوارقه، ورجع إلى الملك زوسر يخبره بأن مدينة إلفنتين (في مواجهة مدينة أسوان الحالية) هي التي يتجمع عندها النهر وتتحكم في مائه.

فقام الملك على الفور بتقديم القرابين لآلهة وإلهات المنطقة. وحينما نام الملك في تلك الليلة العصيبة، جاء إليه الإله خنوم، سيد منطقة إلفنتين، في المنام قائلاً له: «أنا خنوم الذي خلقك، أنا الذي أؤيدك، أنا الذي خلق الأرض، وأعطيت الأحجار، فبنى بها الناس المعابد...، أنا نون العظيم (المحيط الأزلي)، أنا الفيضان...». ولما استيقظ الملك من نومه، أدرك عظمة وأهمية منطقة إلفنتين ورب أربابها المعبود الخالق، الرب خنوم؛ فقرر تخصيص عدد كبير من أوقاف وخيرات المنطقة للإله خنوم ومعبده وكهنته. وأصدر الملك أمرًا ملكيًا يخاطب فيه المعبود خنوم بحدود الأوقاف الملكية التي رصدها الملك لإلهه المبجل.

كان العبقري إيمحتب يذهب إلى مدينة «أون» (المطرية وعين شمس في محافظة القاهرة الحالية أو «هليوبوليس» عند الإغريق). واهتم بها الملك زوسر بفضل العبقري إيمحتب الذي

سقارة (جبَّانة العاصمة منف لاحقًا)؛ كي يكون أول هرم يُبنى في العالم، وأكبر بناء من الحجر على نطاق واسع. وبدأ الملك العظيم زوسر يفكر في أن يبني ذلك الأثر المعماري الفريد؛ كي يكون علامة على عهده وبداية لفترة جديدة من تاريخ البلاد المبكر، وأن يكون رمزًا مميزًا له عبر العصور. أصدر الملك أوامره لكل مؤسسات الدولة بأن توفر للمعماري إيمحتب كل ما يحتاجه كي يتمكن من بناء ذلك البناء الهرمي الجديد والفريد.

وأشرف العبقري إيمحتب على بناء هرم مولاه الملك زوسر وأجزاء مجموعته الهرمية المختلفة، وأستخدِمَ الحجر في تلك المجموعة الهرمية المبكرة على نطاق واسع لم يستخدمه معماري من أهل البلاد من قبل. كما نفذ عناصر العمارة النباتية واللبنية السابقة في العمارة الحجرية في مجموعة الملك زوسر، فضلاً عن تحويل مقبرة مولاه الملك المقدس من مصطبة ذات مدرج واحد إلى هرم مدرج متعدد الدرجات يبلغ ستة مدرجات من الحجر. واكتملت عناصر الهرمية الخاصة بالملك زوسر، وصارت واحدة من أروع المجموعات الهرمية من عصر الدولة القديمة بفضل عبقرية المهندس المعماري إيمحتب وتفهمه لأوامر ورغبات مولاه الملك المحبوب زوسر.

حدثَ في العام الثامن من عهد الملك زوسر، أغلب الظن، أن عز فيضان النهر العظيم؛ فقلَّت الحبوب والمحاصيل الزراعية، وشعر جميع أهل البلاد بوطأة وعظم أمر المجاعة التي لحقت بالبلاد. وساد الحزن القصر الملكي وأخذ الملك المحبوب في البحث عن أسباب ذلك الجوع الذي حلَّ ببلاده العظيمة ذات الرخاء القديم؛ فدعا إلى حضرته الملكية أيضًا رجل الدولة المحبوب إيمحتب، وطلب الملك منه أن يتعرَّف إلى منابع النهر الخالد والإله الذي يتحكم فيه؛ فاختلى العبقري بنفسه وبأوارقه، ورجع إلى الملك زوسر يخبره بأن مدينة إلفنتين (في مواجهة مدينة أسوان الحالية) هي التي يتجمع عندها النهر وتتحكم في مائه.

فقام الملك على الفور بتقديم القرابين لآلهة وإلهات المنطقة. وحينما نام الملك في تلك الليلة العصيبة، جاء إليه الإله خنوم، سيد منطقة إلفنتين، في المنام قائلاً له: «أنا خنوم الذي خلقك، أنا الذي أؤيدك، أنا الذي خلق الأرض، وأعطيت الأحجار، فبنى بها الناس المعابد...، أنا نون العظيم (المحيط الأزلي)، أنا الفيضان....». ولما استيقظ الملك من نومه، أدرك عظمة وأهمية منطقة إلفنتين ورب أربابها المعبود الخالق، الرب خنوم؛ فقرر تخصيص عدد كبير من أوقاف وخيرات المنطقة للإله خنوم ومعبده وكهنته. وأصدر الملك أمرًا ملكيًا يخاطب فيه المعبود خنوم بحدود الأوقاف الملكية التي رصدها الملك لإلهه المبجل.

كان العبقري إيمحتب يذهب إلى مدينة «أون» (المطرية وعين شمس في محافظة القاهرة الحالية أو «هليوبوليس» عند الإغريق). واهتم بها الملك زوسر بفضل العبقري إيمحتب الذي

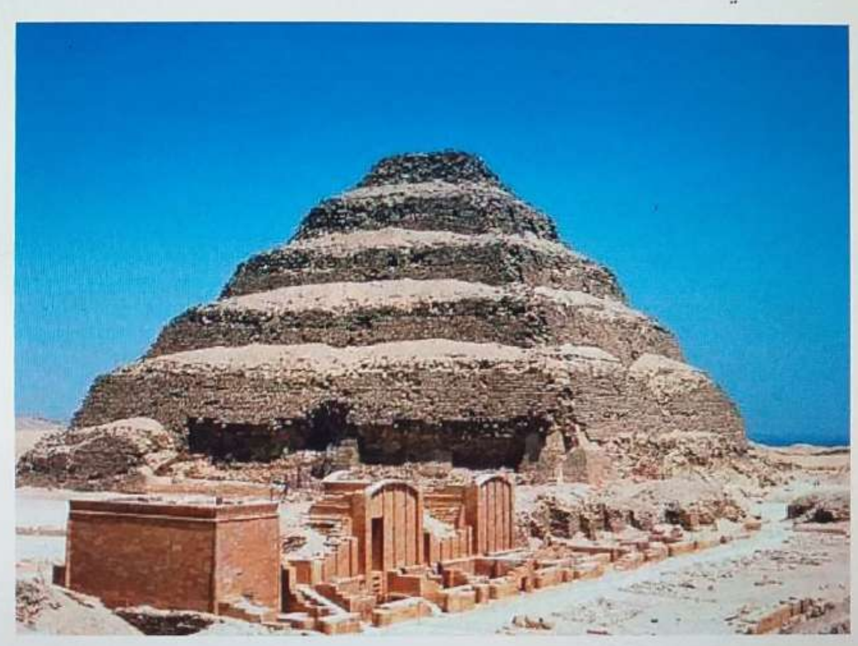
حمل لقب «كبير المشاهدين» للسماء لرصد حركة النجوم والكواكب. وكان إيمحتب متبحرا في علم الفلك أيضًا.

قام الملك زوسر بتقديم هدية لا تُقدّر بثمن للمهندس المعماري العظيم إيمحتب حين أمرَ الملك زوسر بكتابة اسم وزيره إيمحتب على تمثال الملك؛ فخلد بذلك اسم إيمحتب إلى جوار اسمه عبر الزمن. وفعلَ الملك زوسر ذلك لحبه وإعجاب بأعمال بوزيره إيمحتب الذي خلد اسم الملك زوسر عبر عددٍ كبيرٍ من الأعمال المميزة التي تشهد على عبقرية الإبداع وروعة الأداء بين الملك الحكيم ورجل الدولة الأمين.

الملكة ني ماعت حاب

ربما كانت الملكة ني ماعت حاب (أو «ني ماعت حابي» أو «ني حاب ماعت») - ويعني اسمها «المنتمية إلى صدق الإله أبيس-حابي» - أميرة من البيت الحاكم في الدلتا وتزوجها الملك خع سخموي حين انتصر على الشمال. وتمثل حلقة الوصل بين ملوك الأسرة الثانية وملوك الأسرة الثالثة. وكانت تحمل من الألقاب والصفات «أم الملك»، و«زوجة الملك»، و«أم الأبناء الملكيين»، و«أم ملك مصر العليا والسفلى»، و«عندما تقول أي شيء، فإنه يتم فعله لها (فوزًا)». وكانت أم الملك زوسر الشهير، وربما كانت أم الملكين سانخت وسخم خت.

ولقد كان الملك زوسر من بين المؤسسين لأسرة جديدة هي الأسرة الثالثة، وساعدته أمه الملكة ني ماعت حاب في ذلك، وكذلك أسَّس جبَّانة جديدة في سقارة. وبنى زوسر هرم سقارة المدرج ونقل مصر والعالم نقلة تاريخية لم تحدث من قبل حين تم استخدام الحجر في البناء على نطاق واسع لم يكن معروفًا من قبل، وتم تنفيذ كل عناصر المجموعة الهرمية العديدة بالحجر على يديّ مهندسه المعماري العبقري إيمحتب. وهكذا يبدأ عصر بناة الأهرامات في مصر والعالم كله.



هرم سقارة المدرج الخاص بابنها الملك زوسر

أبرز عناصر مجموعة سقارة الهرمية الشهيرة

وضورت الملكة على بعض اللوحات من منطقة هليوبوليس (عين شمس والمطرية حاليًا في شرق محافظة القاهرة) مع ابنها الملك زوسر ومع زوجته وابنته، مما يعني أنها كانت ما تزال حية في فترة حكم ابنها. وتم الاحتفال بها وتكريمها من الأجيال اللاحقة باعتبارها جدة الأسرة الثالثة.

وتعتبر الأسرة الثانية غير موثّقة بشكل كبير في الوثائق المصرية القديمة. ومن المرجَّح، بل ليس من المؤكد، أن الأسرة الثانية تمثّل تغيرًا في العائلة الحاكمة، وأن السّلطة انتقلت بشكل مؤقت إلى شمال مصر. ولعلّ هذا يبرر سبب ترك الملوك الخمسة الأوائل من ملوك الأسرة الجبانة الملكية في أبيدوس في سوهاج حيث دُفنَ ملوك الأسرة الأولى، وفضلوا الدفن في الشمال في جبانة سقارة في الجيزة.

وحدث في نهاية الأسرة الثانية ما يشير إلى حدوث عدم استقرار سياسي، وربما كانت حربًا بين الشمال والجنوب، والتي أدت إلى ظهور ملك يدعى «بِر إيب سِن»، والذي ألقى بقرن من التقاليد المصرية العتيدة وراء ظهره حين وضع صورة الإله الشرير «ست» بدلاً من صورة المعبود التقليدي، الإله حورس، المتبعة من قبل، على واجهة السرخ، واجهة القصر الملكي، والتي كان يُكتب عليها أسماء الملوك في حماية المعبود حورس رمز الملكية المصرية المقدسة الاكبر منذ أقدم عصور الحضارة المصرية العريقة. والتزم الملك «بِر إيب سِن» بعادة الدفن في الجبانة الملكية في أبيدوس، ذلك العرف الذي كان متبعًا من قبل ملوك عصر الأسرة الأولى، وتلاه في ذلك الملك التالي له الملك خع سخموي.

وليس لدينا الكثير من المعلومات عن ملكات عصر الأسرة الثانية. ولعلّ الملكة ني ماعت حاب هي الأكثر حضوزًا لدينا من ذلك العصر البعيد. وقد ذكرَها زوجها الملك خع سخموي في مقبرته في أبيدوس.

ومن المعروف أنه تم بناء مقبرة كبيرة للملكة ني ماعت حاب في منطقة بيت خلاف، بالقرب من منطقة أبيدوس الأثرية الشهيرة في سوهاج في صعيد مصر العظيم (مقبرة رقم ك ١). غير أن البعض اعتقد أنه كان من المفترض دفنها مع زوجها في أبيدوس، أو ربما في «أبوصير» في الشمال. وقد قام ابنها الملك زوسر، أغلب الظن، بدفنها في تلك المقبرة الكبيرة المبنية على شكل مصطبة. ومن الجدير بالذكر أنه ربما تم تشييد المقابر الصغيرة على شكل المصاطب في نفس الجبانة لأفراد من عائلتها. واستمرت ذكرى تلك الملكة عطرة في عصر الأسرة التالية لحكم ابنها، الأسرة الرابعة، حين تم تكريس خدمة جنائزية طويلة الأمد لتلك الملكة المتوفاة المبجلة، وذكر اسمها في مقبرة النبيل الشهير «مِتن» في منطقة سقارة والتي جاء منها أول نماذج السير الذاتية الخاصة بالأفراد النبلاء في مصر القديمة وفي العالم كله.

وحينها كان «مِتن» مشرفًا على بيت «الكا» الخاص بالملكة ني ماعت حاب.

ومن الجدير بالذِّكر أن المؤرخ المصري الشهير مانيتون السمنودي، الذي كلفه الملك البطلمي الأشهر بطلميوس الثاني فيلادلفوس بكتابة تاريخ مصر القديمة في حوالي ثلاثين أسرة، والذي ما نزال نتبعه إلى الآن في دراسة علم المصريات، ذكرَ أنه خلال فترة ملك يدعى «بينوثريس» (الذي من المرجَّح بشكل كبير أنه الملك ني نثر (زوسر) قرَّر أن تتولى السيدات منصب الملوك، غير أن هذا ليس مؤكدًا من الناحيتين التاريخية والأثرية.

تلك الملكة ني ماعت حاب هي التي أنهت حكم العصر المبكر، وأسَّست مع ابنيها الملك سانخت والملك زوسر العظيم عصر الأسرة الثالثة وعصر بناة الأهرامات، وجعلت مصر تدخل ذلك العالم الفريد، عالم الأهرامات المصرية الأقدم والأهم والأشهر في العالم كله، ذلك العالم الذي ما يزال يبهرنا إلى الآن وما يزال يبهر زوار مصر عبر العصور.

الملك سنفرو

الملك سنفرو هو مؤسس الأسرة الرابعة في عصر الدولة القديمة أو عصر بناة الاهرام، ووالد الفرعون الشهير الملك خوفو صاحب هرم الجيزة الأكبر، العجيبة الوحيدة الباقية من عجائب العالم القديم.

وحكمَ مصر لفترة زمنية طويلة قدرها البعض بحوالي ٢٤ عامًا والبعض بثلاثين عامًا، بل ذهب البعض وأعطاه فترة حكم تبلغ ٤٨ عامًا، غير أن فترة حكم هذا الملك كانت ما بين ٣٠ عامًا ولم تصل إلى ٤٨ عامًا. ومن أهم آثاره بناء أربعة أهرام في منطقة دهشور في محافظة الجيزة وفي منطقة ميدوم في محافظة بني سويف وفي منطقة سيلا في محافظة الفيوم. ويعد بذلك الملك الوحيد الذي بنى أربعة أهرام بين ملوك مصر الفرعونية، وتم في عهده تقديم إبداعات جديدة في بناء وتصميم الأهرامات المصرية، وكان من بين أهمها بناء أول هرم كامل في تاريخ العمارة المصرية وهو الهرم الشمالي أو الهرم الأحمر في منطقة دهشور والذي سبق بذلك هرم الجيزة الأكبر لابنه الملك خوفو غير أنه كان أقل منه في الارتفاع.



تمثال الملك سنفرو

وكان لا بُدَّ للفرعون أن يخرج في حملات عسكرية خارجية كي يجلب ما تحتاجه هذه المباني المعمارية الضخمة من مواد وعمال. فكانت سياسة هذا الفرعون الخارجية تقوم في المقام الأول على إمداد منشآته المعمارية بكل فريد وضروري وغير موجود في الأرض المصرية. فنرى الفرعون المحارب الملك سنفرو يخرج في حملات عسكرية إلى ليبيا والنوبة

من أجل هدفين أساسيين مهمين الأول: الحصول على العمالة الكافية المطلوبة لبناء أهرامه العديدة بكل محلقاتها المعمارية الضخمة والجديدة في تاريخ العمارة المصرية، والثاني: هو جلبُ العديد من مواد البناء التي كانت تحتاجها هذه الأعمال المعمارية المتميزة. وفي هذا الصدد، يذكر حجر باليرمو، الموجود في إيطاليا والذي يعد من أهم مصادر تاريخ مصر الفرعونية، أنه في حكم الملك سنفرو تم تشييد العديد من المراكب الكبيرة والمراكب الملكية من الخشب المستورد، وأن جلالته قامَ بحملة في بلاد النوبة أحضر على أثرها سبعة آلاف أسير من الرجال والنساء، وعشرين ألفًا من قطعان الماشية والأغنام والماعز، لإطعام هذه الفرق الجبارة التي كانت تعمل في البناء، وأحضر أربعين سفينة محمّلة بخشب الأرز اللبناني الفريد الذي وجدت بقاياه داخل أهرامات الملك سنفرو بمنطقة دهشور.

الملكة حتب حرس الأولى

تحتل الملكة حتب حرس الأولى مكانة فريدة بين ملكات الأسرة الرابعة وعصر بناة الأهرام. وكانت حياة هذه الملكة مثيرة، وكان - وما زال - موتها واختفاء جثتها، وتعدد أماكن دفنها لغزًا غامضًا، وتعددت آراء العلماء في هذا الشأن.

ويعني اسم الملكة الجميلة «الرضا عليها» أو «عليها الرضا»، ويا له من اسم جميل، وما يزال هذا التعبير شائعًا في مصرنا المعاصرة. وحملت اسمها ملكة أخرى من نفس الأسرة، هي الملكة حتب حرس الثانية. وكانت زوجة للملك جدف رع وأرملة أخيه الأمير كاوعب.

وكانت الملكة حتب حرس الأولى ابنة الملك حوني، آخر ملوك الأسرة الثالثة، وزوجة الملك سنفرو العظيم، مؤسس الأسرة الرابعة، ووالد الملك خوفو، صاحب الهرم الاكبر بالجيزة، العجيبة الوحيدة الباقية من عجائب الدنيا السبع في العالم القديم، وأشهر وأهم أثر على وجه الأرض قاطبة.

ولعبت الملكة حتب حرس الأولى دورًا كبيرًا في نقل الحكم بشكل سلس من الأسرة الثالثة إلى الأسرة الرابعة؛ باعتبارها الوريثة الشرعية لأبيها الملك حوني، وأنه يجري في عروقها الدم الملكي الخالص؛ لذا عندما تزوجها الملك سنفرو، أصبح ملكًا شرعيًا لمصر العظيمة.

ولعلَّ من بين أكثر القصص إثارة الخاصة بالملكة حتب حرس الأولى وآثارها الجميلة هو اكتشاف مقبرتها ذات الأثاث الجنائزي المبهر، وكل ما تم العثور عليه من آثار فريدة تعطي فكرة ممتازة عن الأثاث في مصر القديمة، وتعبر بحق عن عظمة مصر في عصر الدولة القديمة وعصر بناة الأهرام العظام.



هرم الجيزة الأكبر وهرم وبئر الملكة حتب حرس الأولى إلى الشرق منه

وتعددت النظريات والآراء حول مقبرة الملكة حتب حرس الأولى واختفاء جسدها، فمن أشهر النظريات في هذا الشأن أن الملك سنفرو بنى، مقبرة لزوجته الملكة الجميلة في منطقة دهشور في الجيزة، بالقرب من هرميه المعروفين: الهرم الأحمر والهرم المنحني. غير أن اللصوص ربما كانوا قد تمكنوا من التسلل لمقبرة زوجته الملكة البعيدة عن جبانة الجيزة حيث يوجد هرم ابنها الملك خوفو، فسرقوا محتويات مقبرتها من الأشياء الثمينة مثل الحلي. وعندما وصل الأمر إلى البلاط، لم يتم إخطار الملك، أو تم إخباره بما حدث وأن جسد الملكة سليم لم يُمس. فقرروا نقل جسد الملكة الأم وأثاثها إلى مقبرة جديدة بالقرب من هرمه بالجيزة.



من أثاث مقبرة الملكة حتب حرس الأولى بالمتحف المصري بالتحرير

ولاكتشاف هذه المقبرة الجديدة بالجيزة قصة مثيرة؛ ففي يوم ٩ مارس من عام ١٩٢٥ ميلادية، كان الأمريكي آلان رو، مساعد عالم الآثار الأمريكي الأشهر جورج رايزنر، رئيس بعثة جامعة هارفارد ومتحف بوسطن للفنون الجميلة، يقوم بالتصوير إلى الشرق من الهرم الاكبر بالجيزة وشمال هرم الملكة حتب حرس الأولى، فغاص حامل الكاميرا في حفرة هناك، وكان جورج رايزنر في الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك. فتتبع رو هذه الحفرة. وبعد أسابيع من

الحفائر المضنية، توصّل إلى فوهة بئر بعمق يصل إلى حوالي ٢٧ مترًا قاده إلى مدخل المقبرة الجانبي الذي كان مغلقًا بأحجار من الحجر الجيري وكانت مغطاة بطبقة من الملاط لحماية المقبرة من السرقة. وقام فريق العمل الأمريكي باستكمال العمل. وتم العثور على مقبرة الملكة الجميلة حتب حرس الأولى التي كانت عبارة عن حجرة واحدة. ووُجد الأثاث الجنائزي الخاص بتلك الملكة مكدسًا داخل هذه المقبرة. وكان هناك أيضًا تابوت مغلق من الألباستر، وصندوق مغلق من الألباستر لحفظ بعض أحشاء الملكة المتوفاة، وكمية ضخمة من الفخار. وتم العمل على إخلاء محتويات المقبرة لمدة عامين. وعند فتح التابوت، كانت المفاجأة أنه وُجِدَ فارغًا.

وتعددت التفسيرات في ذلك الأمر؛ فربما سرقَ اللصوص جثة الملكة من مقبرتها السابقة بدهشور بكل ما كانت تحويه من حلي ومجوهرات ثمينة، وربما كان هذا البئر الجزء السفلي لهرم لم يتم استكماله للملكة.

ومن الجدير بالذكر أن هناك ثلاثة أهرام صغيرة إلى الشرق من الهرم الأكبر، يخص الهرم الشمالي منها الملكة حتب حرس الأولى. وقد سرقت محتويات هذه الأهرام الصغيرة في العصور القديمة، ما عدا بعض الأثاث الجنائزي الذي يخص الملكة حتب حرس الأولى.

ويعتقد أنه تم نقل أثاث الملكة حتب حرس الأولى، وربما رفاتها، إلى هرمها الشمالي إلى الشرق من هرم خوفو، وتم ترك الأثاث الباقي في هذا البئر الذي لم يتم استكماله.

أو أنه تم دفن الملكة في هرمها إلى الشرق من هرم خوفو، وتم سرقته، فتمَّ نقل جسدها وأثاثها إلى المقبرة التي اكتشفها الفريق الأثري الأمريكي. ويبقى الأمر لغزًا. غير أن غياب جثتها هو اللغز الأكثر إثارة إلى الآن.

وتم نقل ذلك الأثاث الجنائزي الرائع إلى المتحف المصري بالتحرير وتم تخصيص قاعة له به، وكان من بين أهم آثار هذه الملكة، الأثاث الخشبي، خصوصًا محفتها المحلاة بالذهب والمكتوب عليها ألقاب الملكة بالخط الهيروغليفي. وكُتب على بعض آثارها اسم زوجها الملك سنفرو.

تمثل حياة وممات وآثار الملكة حتب حرس الأولى عظمة الملكات المصريات في عصر الدولة القديمة، عصر بناة الأهرام، وتوضح دور الملكات المصريات الرائد وعظمتهن في انتقال الحكم، وفي تكوين ملوك مصر العظام، وعلاقتهن القوية القائمة على الحب مع أزواجهن ومدى تقدير أبنائهن لهن.

الملك خوفو

يُعتبر الملك خوفو من أهم وأشهر الملوك في مصر القديمة بسبب بنائه الهرم الاكبر بالجيزة.

وحكم الملك خوفو في الأسرة الرابعة في عصر الدولة القديمة، وهو ثاني ملوك الأسرة الرابعة بعد أبيه الملك سنفر، وهو ابن الملكة حتب حرس الأولى.

وقام خوفو بإرسال بعثات التعدين إلى منطقة وادي مغارة في شِبه جزيرة سيناء لإحضار الفيزوز. وهناك وجدنا اسمه ومنظرًا يمثله وهو يهوي على رأس أحد الأعداء بمقمعة القتال. ولم يأتِ إلينا من عهد الملك خوفو العظيم تماثيل له إلا تمثال صغير نذري وحيد من العاج عثر عليه عالم الآثار الإنجليزي الشهير وليم فلندرز بتري في أبيدوس في سوهاج. ونقش اسمه على كرسي العرش، وطول التمثال حوالي سبعة سنتيمترات، ويُعرض حاليًا في المتحف المصري بميدان التحرير بالقاهرة.

وحكم الملك خوفو وفقًا لبردية تورينو الموجودة في متحف تورينو في إيطاليا حوالي ثلاث وعشرين سنة. وهرم خوفو هو أضخم المباني على وجه الأرض. وأطلق الملك خوفو على هرمه اسم «آخت خوفو»؛ أي «أفق خوفو». وفي البداية، أشرف وزيره ومساعده الأول المهندس العبقري حم إيونو على بناء هرمه، الذي له تمثال جميل للغاية يصوره في هيئة طبيعية في متحف هلدسايم في ألمانيا.

ولعلّ من أروع وأهم وأجمل ما تم اكتشافه من عهد ذلك الملك العظيم هو اكتشاف برديات وادي الجرف أحد أهمّ اكتشافات القرن الحادي والعشرين في عالم الآثار، فقد بدأت البعثة الفرنسية بقيادة عالم الآثار الفرنسي الدكتور بيير تاليه العمل في وادي الجرف بالقرب من السويس منذ عام ٢٠١١ ميلادية، وكشفت عن آثار لميناء يُعتبر الأقدم في تاريخ الملاحة البحرية العالمية. وتم بناء الميناء على مساحة كبيرة. ومن خلال الأختام الطينية والبرديات والنقوش الصخرية التي تم اكتشافها في تلك المنطقة، أمكننا تأريخ ذلك الموقع بعهد الملك خوفو صاحب الهرم الأكبر بالجيزة.

وفي عام ٢٠١٣ ميلادية، عثرت البعثة على مجموعة رائعة من البرديات عند مدخل مغارتين. وكانت البرديات مدفونةً بين الكتل الحجرية التي تم استخدامها لإغلاق المغارة بعد الانتهاء من العمل، وافترضت البعثة أن تكون تلك المغارات كانت تستخدم كورش عملٍ ومخازن وأماكن سكنية. ويذكر تاليه أن تلك البرديات تؤكد أن ذلك الموقع كان مستخدمًا في عهد خوفو، وأن فريق العمل الذي كان يعمل في الموقع هو نفسه الذي عمل في بناء الهرم الأكبر. وفي رأيي، فإن ذلك يشير للقدرة العالية للجهاز الإداري للدولة في عهد الملك خوفو.



تمثال نذري للملك خوفو

إن أجزاء البردي المكتشفة تُعدُّ الأقدم في تاريخ الكتابة المصرية إلى الآن، ويصل عددها إلى حوالي ٤٠ من برديات خوفو. والبرديات عبارة عن عدة مئات من قطع البردي بعضُها يصل طوله لحوالي ٨٠ سنتيمترًا، وهي أقدم برديات مكتوبة بالكتابة الهيراطيقية، وبها بعض أجزاء بالهيروغليفية مختصرة بتاريخ تعداد الماشية رقم ١٣ من عهد خوفو. وكان تعداد الماشية يتم مرة كل عامين، وهو يعني أن التاريخ المذكور هنا هو العام ٢٦ من عهد خوفو. ويظهر في النّص في السطر الرأسي الأول «تعداد الماشية رقم ١٣»، واسم الملك الحوري في السطر الثاني (مجدو)، ثم اسم الملك التتويجي «النسوبيتي»، «خنوم-خو-إف-وى»، يليه اسم فريق العمل في الموقع، ثم يوميات العمل.

إن أغلب البرديات المكتشفَة توضّح توزيع الحصص اليومية للأطعمة التي كانت تستجلب من مناطق عديدة في دلتا النيل. والنّص الوارد على البردية من النوع الحسابي؛ إذ يتناول عملية توزيع حصص الأطعمة والمناطق المجلوبة منها، وهي منظّمة في شكل جدول يظهر فيه اسم السلعة والمكان القادمة منه وكمياتها، وتظهر دون شك سيطرة الجهاز الإداري على شؤون البلاد بمختلف أنحائها وضواحيها بصورة مركزية ووفق تنظيم دقيق وواضح.

ومن أبرز البرديات المكتشفَة في وادي الجرف مجموعة قِطعٍ يزيد بعضها في عرضه على ٥٠

ستيمتزا، تكتسب نصوصُها أهميةً كبيرةً؛ حيث إنها تقرير يومي بأنشطة أحد كبار الموظفين المسؤولين من العاصمة منف، وهو مسؤول عن أحد فِرق العمل الفنية في الموقع، وهو المفتش «مرر»، والذي كان يقود فريقَ عملٍ مكونًا من عددٍ كبيرٍ من الرجال. وأمدَّت البرديات بمعلومات عن ثلاثة أشهر من حياة «مرر» الوظيفية، مما جعلنا نعرف الكثير من الأمور عن حياة الموظفين في عصر الأسرة الرابعة، ومنها قيام فريق العمل بنقل كتل الحجر الجيري من محاجر طرة على الضفة الشرقية للنيل إلى هرم خوفو عبر نهر النيل وقنواته.

ونَص البردية يظهر فيه الشهر في شكل سطر كبير باعتباره عنوانًا، وتحته في أسطر رأسية خطوط تمثل خانات تفصل بينها، تبدأ برقم اليوم، وتحته في سطرين رأسيين، تقرير بالنشاط الذي أداه فريق «مرر» في ذلك اليوم. ويشير كثير من الأنشطة إلى أعمال مرتبطة بالأعمال الإنشائية في الهرم الأكبر وعمليات قَطع أحجار الحجر الجيري الجيد من محاجر طرة والمعصرة والتي كانت تُستخدم في كسوة الهرم. وتشير اليوميات أيضًا لتفصيلات ووصف لعملية نقل الكتل الحجرية من موقع المحاجر، «را ستاو الجنوبية» و«راستاو الشمالية» لمكان إقامة الهرم عبر نهر النيل والقنوات والتُرَع المرتبطة به. وتشير نصوص البردية إلى أن تلك الكتل كانت تستغرق عملية تسليمها عدة أيام لمنطقة «آخت خوفو»، وهو اسم هرم الملك خوفو.

تشير تقارير «مرر» لمرور معظم الإجراءات التنفيذية بمركز إداري هو «را-شي-خوفو» والذي يبدو أنه كان مركزًا لوجستيًا تتوقف عنده فرق العمل قبل تسليم ما يحملونه في منطقة هضبة الجيزة. وتشير النصوص إلى أن ذلك المركز اللوجستي كان تحت إشراف أحد كبار موظفي الدولة، وهو المدعو «عنخ-حاف»، وهو أخ غير شقيق للملك «خوفو»، وكان المشرف على كل الأعمال الملكية. وتؤكد تلك اليوميات أنه ربما كان يقوم بأعمال الوزير والمهندس المسؤول عن المشروع القومي لإقامة الهرم في مراحله الأخيرة. وبالتأكيد كان الهرم في مراحل إنشاءاته الأخيرة مع اقتراب نهاية حكم الملك «خوفو». ويبدو أن ما يفسِّر وجود مثل تلك التقارير المهمة في وادي الجرف أن نفس فِرَق العمل التي كانت تعمل في البرامج الإنشائية للمقابر الملكية كانوا مسؤولين عن مشروعات الدولة الأخرى، ومنها أعمال وادي الجرف. وربما كانت تلك الفِرَق الموجودة في الموقع معنية بإحضار النحاس من مناجم النحاس بجنوب سيناء، وهو النحاس المستخدم في تصنيع أدوات كانت تستخدم في الأعمال الإنشائية بالهرم.

ويُعدُّ ميناء وادي الجرف من أهم الموانئ في مصر القديمة حيث انطلقت منه الرحلات البحرية لنقل النحاس والمعادن من سيناء إلى الوادي. وبعد ذلك قام «مرر» وفريقه بعملية

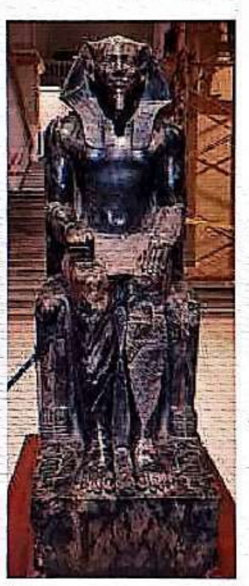
غلق موقع الميناء ومغاراته بكتل حجرية ضخمة. وكان ذلك في العام الـ ٢٧ من حكم خوفو، وهو تاريخ يرتبط بتوقُّف أعمال استخراج النحاس والفيروز من مناجم جنوب سيناء، وربما يرتبط بتاريخ انتهاء الأعمال في إنشاء الهرم.

وتكمن أهمية برديات وادي الجرف في أنها تؤكد أن مشروع بناء الهرم الاكبر كان مشروعًا قوميًا، وأن الهرم بناه المصريون القدماء، وأن الهرم ساهمَ في بناء مصر، كما تنفي أي ادعاءات كانت تتعلق ببناء الأهرام المصرية على أيدٍ غير مصرية.

لقد كتب الملك خوفو لنفسه الخلود ببناء هرم الجيزة الاكبر الذي يُعد العجيبة الوحيدة من عجائب العالم القديم السبع، والذي ما يزال يثير الفضول والدهشة والكثير من الأسئلة عن كيفية بنائه في ذلك الزمن البعيد بكل أدوات المصريين القدماء البسيطة والتي أثبتت عظمة المصريين المعمارية والهندسية والفنية والإدارية على مدى زمني كبير من أجل تحقيق تلك المعجزة المعمارية التي يصعب تكرارها اليوم على الرغم من التقدُّم التكنولوجي الذي وصلت إليه الإنسانية في وقتنا الحالي. فتحيةُ حب وتقدير للملك خوفو ولهرمه الاكبر الذي لن يتكرر أبدًا.

الملك خفرع

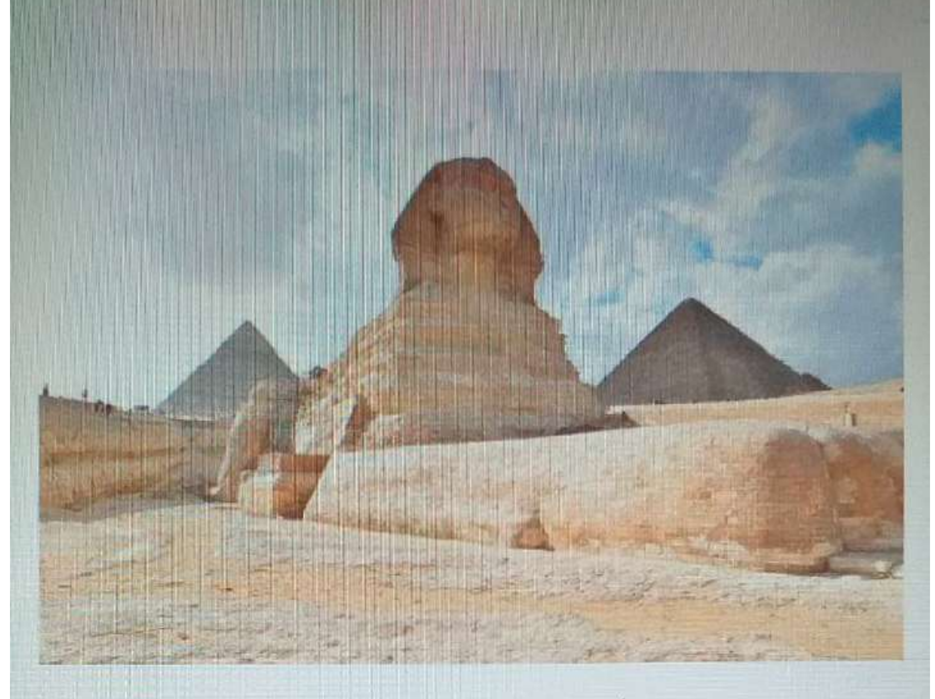
الملك خفرع هو أشهر ملوك الأسرة الرابعة في عصر الدولة القديمة، وتحديدًا هو رابعُ ملك في الأسرة، وهو صاحب الهرم الثاني من أهرامات الجيزة الشهيرة. وكان ابنًا للملك خوفو من زوجة ثانوية. وتولَّى الحكم بعد أخيه الملك جدف رع. ويشبه هرم خفرع في عظمته هرم أبيه الملك خوفو. وله تمثال شهير في المتحف المصري بميدان التحرير بالقاهرة يُعَدُّ من أجمل الأعمال الفنية في تاريخ الفن في العالم كله عبر العصور.



تمثال الملك خفرع بالمتحف المصري بميدان التحرير بالقاهرة

ومن الآثار المشهورة من عهد الملك خفرع، والذي يأتي إليه كل السائحين من كل مكان في العالم، تمثال «أبو الهول». ويعتبر تمثال «أبو الهول» ذاكرة الأمة المصرية وخير ممثل ومعبر عن الحضارة المصرية القديمة ورمزها الأشهر

بُني هذا التمثال العظيم في عصر الأسرة الرابعة، عصر بناة الأهرام، في الدولة القديمة كي يكون دليلاً على انتشار الديانة الشمسية وربوبية المعبود رع، رب الشمس وصاحب السيطرة والنفوذ الممتد طوال الحضارة المصرية القديمة وإلى أفول نجمها ودخولها مرحلة النسيان.



أبو الهول رمز مصر عبر العصور

ويربض تمثال «أبو الهول» على هضبة الجيزة كجزء أساسي من المجموعة الهرمية الخاصة بالملك خفرع كإبداع مصري أصيل وأحد التماثيل الضخمة في العالم كله؛ إذ يبلغ طوله نحو ٧٣.٥ متر وارتفاعه أكثر من ٢٠ مترًا.

ونُحت هذا التمثال من كتلة حجرية واحدة، وتم تشكيل هذا التمثال بجسد أسد يمثل القوة ورأس إنسان يمثل الذكاء مما جعله يجمع في عبقرية فريدة بين قوة الحيوان وذكاء الإنسان الممثل لشخص ملك مصر الحاكم باعتباره ابنًا للمعبود رع، رب الشمس المقدسة.

ويغيب عن هذا التمثال ذقنه الذي يوجد بعض منه في المتحف المصري في ميدان التحرير والمتحف البريطاني في لندن. ويوجد أمام «أبو الهول» بقايا معمارية لمعبد كبير غير مكتمل. ويرجع هذا المعبد إلى عصر الأسرة الرابعة،

ويمثل التمثال الملك خفرع، باني الهرم الثاني بهضبة الجيزة. وهناك أحد العلماء ينسب التمثال لأبيه الملك خوفو، غير أن أغلب العلماء ينسبونه للملك خفرع.

وانتشرت التماثيل على هيئة «أبو الهول» في عصر الدولة الوسطى متأثرة بتمثال «أبو الهول» في الجيزة، فنجد الملك أمنمحات الثاني أمنمحات الثالث ممثلين في هيئة «أبو الهول».

وفي عصر الدولة الحديثة، انتشرت تماثيل «أبو الهول» برأس الكبش أو رأس الصقر في مقدمة معابد الأقصر والكرنك. وأقام الملك تحتمس الرابع، من عصر الأسرة الثامنة عشرة في الدولة الحديثة، «لوحة الحلم» بين مخلبي تمثال «أبو الهول» في الجيزة؛ كي يدعم صعوده لعرش مصر بناء على اختلاقه قصة تؤكد تدعيم الإله له كي يصبح حاكم مصر المقبل آنذاك.

وغزت فكرة «أبو الهول» بلاد الشرق الأدنى القديم بعد عصر الأهرام بفترة طويلة، خصوصًا في الهيئة الأنثوية، ثم دخلت إلى بلاد اليونان بعد ذلك مما ساعد على انتشار تلك الظاهرة ذات الأصل المصري. ولا توجد مدينة أو وثائق قارة أطلانتس المفقودة أسفل تمثال «أبو الهول»، كما يدعي البعض.

وربما جاءت كلمة «سفنكس» اليونانية الأصل من الكلمة المصرية القديمة «شسب-عنخ» بمعنى «الصورة الحية» والتي ترتبط بإله الشمس والملك باعتباره الصورة الحية له.

ونقل الأباطرة الرومان تماثيل «أبو الهول» المصرية إلى أوروبا ليزينوا بها معابدهم وقصورهم. واستمرت العناصر المعمارية المصرية مثل «أبو الهول» تغزو عالمنا المعاصر مما يؤكد على عظمة الحضارة المصرية وتأثيرها الشديد في البشر جميعًا قديمًا وحديثًا.

وفي النهاية، أقول، إن «أبو الهول» هو تمثالٌ مصريٌ عظيمٌ يحكي قصة الحضارة المصرية القديمة عبر العصور ويوضح عظمة مصر القديمة وعظمة الإنسان المصري الذي لولاه ما تم إبداع هذه الحضارة الخالدة التي ليس لها مثيل.

الملك منكاورع

الملك منكاورع، أو الذي نطلق عليه اسم الملك «منقرع» بالخطأ، هو خامس ملوك الأسرة الرابعة. وتولى العرش بعد وفاة أبيه الملك خفرع، واشتهر الملك منكاورع في كتابات المؤرخين القدماء بصفات التقوى والورع والطيبة.

يظهر اسم الملك «منكاورع»، باللغة المصرية القديمة، بقائمة الملوك بالخط الهيروغليفي بمعبد الملك سيتي الأول بأبيدوس. امتدحه هيرودوت أكثر من أي ملك آخر وقال عنه إنه سبق في عدالته جميع الملوك السابقين. يقول الكثير من العلماء، إن فترة حكم الملك منكاورع حوالي ١٨ عامًا أو تزيد قليلًا، وذلك استنادًا لما ذكر في بردية تورينو في متحف تورينو في إيطاليا.

وقام الملك منكاورع، ببناء ثالث أهرامات هضبة الجيزة. ومع صغر مساحة قاعدة الهرم، يبلغ ارتفاع الهرم الأصلي ٦٥ مترًا مما يجعل من هرم منكاورع أصغر أهرامات الجيزة الثلاثة، وكان هذا الصغر في الحجم يرجع إلى عدة عوامل منها صغر المساحة المتبقية على هضبة الجيزة، والمواد المستخدَمة في الغلاف الخارجي لهرم منكاورع، حيث استخدم أسلافه الحجر الجيري لكساء أهرامهم، في حين استخدم منكاورع الجرانيت المجلوب من أسوان على بُعد أكثر من ٨٠٠ كم من الجيزة. وكانت تلك المادة أصعب بكثير من الحجر الجيري في الشحن والنقل. ومع ذلك فإن الربع السفلي من الهرم هو فقط المكسو بالجرانيت بينما كسي بقية الهرم بالحجر الجيري.

ومثلما كان بجوار الهرم الأكبر، يمكن رؤية ثلاثة أهرامات أصغر بجوار هرم منكاورع، تلك الأهرامات التي كانت تستخدم لدفن ملكات عصره. ومع ذلك، لم يتم اكتشاف الهريم الخاص به، ولكن يعتقد أن أكبر هرم الملكات الثلاثة كان هو الهريم.

مات الملك منكاورع قبل الانتهاء من بناء مجموعته الهرمية، حيث لم يكن تم صقل الكثير من كتل الكساء الجرانيتي الخاص بالهرم. وكان من المفترض أن يتكون المعبد الجنائزي ومعبد الوادي الخاص من كتل ضخمة من الحجر الجيري المكسوة بالجرانيت، لكن تم البناء بهما فعليًا باستخدام الطوب اللبن الأبيض، ويطلق على المجموعة الهرمية لمنكاورع اسم «نثر إن منكاورع» أي «منكاورع مقدس».

وعلى الرغم من ضعف تلك الإمكانيات، إلا أن تقديس منكاورع استمرت لمدة ٣٠٠ عام أخرى بعد وفاته. وتزوج الملك منكاورع بعد اعتلائه العرش من أخته الأميرة «خع مرر نبتي» الثانية، والتي أصبحت الزوجة الرئيسة والملكة الأولى وأنجبت ابنه وخليفته على العرش «شبسس كاف»، وهو الذي أتم المجموعة الهرمية للملك منكاورع، حيث توفي الملك قبل

الانتهاء منها، كما سبقت الإشارة.

وعثر داخل هرم منكاورع على تابوت من الجرانيت. وكان التابوت جميلاً مزيّنا، على عكس تابوتي جده الملك خوفو وأبيه الملك خفرع اللذين كانا بسيطين دون زينة. ولم تُكتب عليه أي كتابات. وتحمل أوجه تابوت الملك منكاورع الزخارف التي تمثل واجهة القصر الملكي في مصر القديمة. كان من المفروض نقل التابوت إلى بريطانيا في عام ١٨٣٨ ميلادية، ولكنه لم يصل؛ إذ اعترضت عاصفة السفينة الناقلة وأغرقتها.

وتعود أصول الحكاية إلى أنه في ثلاثينيات القرن التاسع عشر الميلادي قام ريتشارد وليام هوارد فايس وهو السياسي والبرلماني، مع المهندس جون شاي، بالحفائر داخل الأهرامات الثلاثة في الجيزة. وكانوا يستخدمون الديناميت في إجراء الحفائر داخل الأهرامات. وفي سنة ١٨٣٧ ميلادية تمّ العثور على تابوت من حجر البازلت داخل هرم منكاورع بوزن ثلاثة أطنان. وأبعاد التابوت: ٢٤٤سم طول، وعرض ٩١سم، وارتفاع ٨٩ سم. وتم إخراج التابوت وقطع أثرية أخرى، وتم شحنه للإسكندرية، ثم شحنه على السفينة «بياتريس» متوجهةً لميناء ليفربول الإنجليزي، غير أنها قد غرقت قبالة السواحل الإسبانية في البحر المتوسط. ولم يتم تحديد موقع غرقها إلى الآن. وقد غرق الطاقم كله. وفي عام ٢٠١٣ ميلادية، جرت محاولات لتحديد موقع السفينة ومحاولة إخراج التابوت، غير أنها باءت بالفشل. وإلى الآن ما يزال التابوت راقدًا في قاع السفينة في مكانٍ ما في البحر المتوسط ينتظر من يعثر عليه.

وفي نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، حاول الملك العزيز عثمان بن يوسف، نجل ووريث السلطان الناصر صلاح الدين، هدم الأهرامات بدءًا من هرم منكاورع. وظلّ العمال الذين جندوا لهدم هرم الملك منكاورع في عملهم لمدة ثمانية أشهر، لكنهم وجدوا أن التدمير يكاد يكون باهظ التكلفة مثل البناء، وكان يمكنهم فقط إزالة حجر أو حجرين كل يوم. واستخدم البعض إسفين ورافعات لتحريك الأحجار، بينما استخدم البعض الآخر الحبال لهدمها. وعندما كان يسقط الحجر، فإنه كان يُدفن في الرمال على الفور، مما كان يتطلب جهودًا غير عادية لاستخراجه من قبل الرمال، واستخدموا الأوتاد لتقسيم الحجارة إلى عدة قطع، واستخدموا عربة لنقلها إلى أسفل الهضبة، حيث تُركت. وعلى الرغم من جهودهم، كان العُمّال قادرين فقط على إتلاف الهرم إلى حد ترك شق رأسي كبير في واجهة الشمالية والتي ظاهرة لأعين الزائرين للهرم إلى الآن.



تمثال الملك منكاورع يتوسط الإلهة حتحور وإحدى المعبودات المصرية القديمة

الملكة خع مرر نبتي الثانية

الملكة خع مرر نبتي الثانية هي ملكة عظيمة من ملكات عصر الأسرة الرابعة، وهي ابنة الملك خفرع، صاحب الهرم الثاني بالجيزة، والملكة خع مرر نبتي الأولى، وهي أيضًا زوجة الملك منكاورع، صاحب الهرم الثالث بهضبة أهرام الجيزة. ويعني اسمها «شروق المحب للسيدتين (وهما الربتان نخبت وواجيت الممثلتان لمصر العليا والسفلى)».

ومن الجدير بالذكر أن ولاية العرش مرت ببعض الأولاد بعد رحيل الملك خفرع، غير أن الحكم وصل إلى ابنه الملك منكاورع من زوجته خع مرر نبتي الأولي. والملك منكاورع هو صاحب الهرم الثالث في هضبة الجيزة.

ومن المعروف أنه من المعبد الجنائزي ومعبد الوادي الخاصين بالملك منكاورع بهضبة الجيزة قد حصلنا على مجموعة غير مسبوقة من التماثيل المصنوعة من الأحجار الصلبة، وتنوعت مجموعات هذه التماثيل ما بين تماثيل فردية، وتماثيل زوجية، والعديد من الأعمال الفنية غير المكتملة بشكل جزئي.

وهناك تماثيل تصور الملك منكاورع منفردًا، وتماثيل أخرى تمثل الملك مع إحدى زوجاته غير مذكورة الاسم، وتماثيل ثلاثية تصور الملك واقفًا بين ربة الحب والجمال ورمز الأمومة والميلاد الملكي، الإلهة حتحور، وإحدى الإلهات الممثلة لأحد الأقاليم حيث كانت تُعبد الربة حتحور.

ومن أهم آثار هذه الملكة، تمثالها العلامة الفنية الكبرى والأشهر والموجود في متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان قد اكتشف هذا التمثال الجميل عالِم الآثار الأمريكي الأشهر جورج رايزنر عام ١٩١٠ عندما قام بالحفائر في معبد الوادي الخاص بمجموعة هرم الملك منكاورع بالجيزة، وكان هذا المعبد يشكل أحد أهم العناصر المعمارية في العمارة الهرمية في عصر الدولة القديمة، عصر بناة الأهرام، وكان يمثل البداية لدخول المجموعة الهرمية للملك منكاورع وغيره من ملوك عصر بناة الأهرام.



تمثال الملكة خع مرر نبتي الثانية وزوجها الملك منكاورع

في متحف الفنون الجميلة ببوسطن

يمثل التمثال الملك منكاورع وزوجته الجميلة الملكة خع مرر نبتي واقفين على قاعدة غير مرتفعة، ويظهر الملك ممشوق القوام قابضًا بكلتا يديه على شارات الملكية المقدسة، ويرتدي النقبة الملكية القصيرة، ويضع على رأسه غطاء الرأس الملكي المعروف بـ «نِمس»، ويضع اللحية المستعارة على ذقنه. واللافت للنظر في هذا التمثال المعبر عن روح مصر القديمة وتقدير واحترام المرأة في ذلك المجتمع المتحضر في ذلك الزمن البعيد، هو وقوف الملكة شريكة الحياة إلى جوار زوجها الملك في حجم مقارب لحجم الملك كتفًا بكتف.

وتطوق الملكة جسد زوجها الملك بذارعها الأيمن، وتضع يدها اليمنى أسفل صدره، وتلامس بيدها اليسرى ذراعه الأيسر في حنان وحب واضحين. ويمثل التمثال بورتريهًا حضاريًا لا يقل معاصرة عن عصرنا الحالي، ويعبر عن قمة الحب والتراحم والحنان والتواصل بين الرجل والمرأة في المجتمع المصري القديم. ويمثل الملك في صورة إنسانية كزوج محب لزوجته الملكة وشريكة كفاحه. وبصرف النظر عن كونه تمثالاً ملكيًا؛ فقد انتشر هذا الوضع الفني والاجتماعي في تماثيل عديدة بين أفراد عاديين وليس بين ملوك وملكات. وترتدي

الملكة باروكة ثلاثية قصيرة تصل إلى أعلى منطقة صدرها، ويظهر شعرها الطبيعي أسفل الشعر المستعار. وترتدي الملكة رداءً حابكًا يصل إلى أعلى قدميها. وتظهر ملامح الأنوثة الطاغية في تمثال هذه الملكة في منطقة الصدر والبطن وأسفل البطن والفخذين والساقين. ويبدو وجه الملكة مستديرًا يشع بالجمال والحيوية والشباب. وكان أيضًا الهدف من هذا التمثال الجماعي بعث الملك المتوفى وميلاده مرة أخرى في العالم الآخر من لقائه الجسدي مع زوجته الملكة وميلاده من خلالها وفقًا للمعتقدات المصرية القديمة.

وهناك تمثال آخر لتلك الملكة بحجمٍ أكبر مرتين من الحجم الطبيعي للتماثيل عادة في مصر القديمة. ويُعدُّ هذا التمثال الكبير هو التمثال الضخم الوحيد الباقي لأية ملكة من عصر الدولة القديمة، عصر بناة الأهرام. ووُجدَ هذا التمثال في مقبرة والدتها الملكة خع مرر نبتي الأولى، مما قد يشير إلى أن الملكة الأم خع مرر نبتي الأولى والملكة الابنة خع مرر نبتي الثانية ربما قد تشاركتا في الدفن في تلك المقبرة. والتمثال في حالة غير جيدة من الحفظ ولا يحتفظ بأي علامة من علامات الملكية المميزة للملكات المصريات. وصُورت الملكة في ذلك التمثال بحجم كبير لافت، وفتلت الملكة خع مرر نبتي الثانية جالسة على العرش مما يشير إلى مكانتها الملكية.

ومن المرجّح أنه تم دفن الملكة خع مرر نبتي الثانية في أحد الأهرامات الجانبية الخاصة بالملكات زوجات الملك منكاورع والموجودة إلى الجنوب من هرم الملك منكاورع في أقصى الجزء الجنوبي من هضبة أهرام الجيزة العريقة. وهو الهرم الشرقي من أهرامات الملكات، والأكثر اكتمالاً بينها.

تلك هي قصة الملكة خع مرر نبتي الثانية التي تعد من أبرز الملكات في عصر الأسرة الرابعة. لقد كانت تلك الملكة ذات مكانة وحظوة كبيرة لدى زوجها الملك منكاورع كما يظهر في تمثالهما الجماعي الذي يظهر أروع مظاهر الحب والتراحم والتكامل والتواصل بين الرجل والمرأة في مصر القديمة عمومًا، وليس بين الملوك والملكات فقط.

الملكة خنت كاوس الأولى

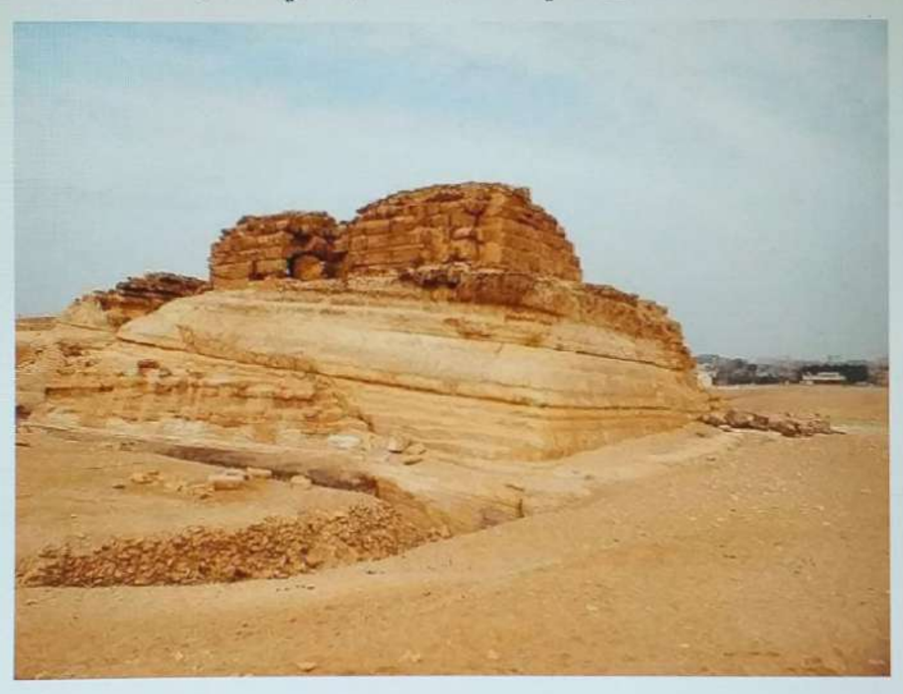
من المرجّح أن الملكة خنت كاوس الأولى قد تكون حكمت مصر في نهاية عصر الأسرة الرابعة، وقد تُعدُّ الملكة الحاكمة الثانية بعد الملكة ميريت نيت، التي حكمت غالبًا مصر في عصر الأسرة الأولى نيابة عن طفلها الصغير. ويعني اسم الملكة خنت كاوس الأولى «مقدمة أرواحها».

والملكة خنت كاوس الأولى هي - أغلب الظن - ابنة الملك منكاورع، صاحب الهرم الثالثة بهضبة الجيزة. وكانت ربما زوجة للملك شبسسكاف من عصر الأسرة الرابعة، ثم زوجة للملك أوسر كاف، وأمًا للملك ساحورع وللملك نفر إير كارع كاكاي من ملوك الأسرة اللاحقة، الأسرة الخامسة. وهناك من يعتقد أن الملك ساحورع، من ملوك الأسرة الخامسة، كان ابنًا للملك أوسر كاف من زوجته الملكة حتب نفر إس. وربما كانت الملكة خنت كاوس الأولى أمًا ووصية على ابنها الملك جدف بتاح (الذي ذكره المورخ مانيتون السمنودي في قوائم ملوك مصر) من أواخر ملوك الأسرة الرابعة الذي ربما حكم فترة قصيرة بين سنتين إلى تسع سنوات، فضلاً عن كونها أمًا للملك نفر إير كارع كاكاي من ملوك الأسرة الخامسة. ومن المرجّح أنها حكمت مصر فضلاً عن وصايتها على حكم ابنها. وتزوجها أوسر كاف بعد وفاة زوجها كي يضمن الوصول إلى عرش مصر وتأسيس أسرة جديدة هي الأسرة الخامسة؛ لذا كانت الملكة خنت كاوس هي همزة الوصل بين الأسرة الرابعة والأسرة الخامسة، ونالت هذه الملكة قداسة وتوقيرًا واحترامًا كبيرين في عصر الأسرة الخامسة لدرجة أنه تسمت إحدى ملكات هذه الأسرة باسمها، وعُرفَت باسم «خنت كاوس الثانية»، زوجة ابنها الملك نفر إير كارع كاكاي، ثم ابنتهما، أغلب الظن، «خنت كاوس الثالثة».

ومن الجدير بالذكر أنّ هناك بردية مصرية قديمة تدعى بردية «وستكار» محفوظة في متحف برلين - وجاء اسمها نسبة للمغامر البريطاني هنري وستكار الذي اكتشف البردية أثناء إحدى رحلاته إلى مصر- وتسرد نصوص هذه البردية «قصة خوفو والسحرة» أو «قصة بلاط الملك خوفو»، ذلك العمل الأدبي الشهير الذي استخدم أحداثه كاتبنا الأكبر الأستاذ نجيب محفوظ في تشييد البناء الروائي في روايته الفرعونية المعروفة «عبث الأقدار». وتتناول تلك البردية نهاية حكم الأسرة الرابعة وتبشّر بحكم ملوك الشمس القادمين من صلب إله الشمس رع، وأعني ملوك الأسرة الخامسة، كنوع من أنواع الدعاية السياسية لأسرة لم تكن يجري في عروقها الدم الملكي، فادعت انتسابها لإله الشمس رع حتى تضفي على حكمها الشرعية.

وفي هذا العمل الأدبي الخيالي، يمكن اعتبار الملكة خنت كاوس الأولى هي السيدة رودجدت

التي أنجبت أول ثلاثة ملوك من عصر الأسرة الخامسة وهم: الملك أوسر كاف، والملك ساحورع، والملك نفر إير كارع كاكاي، كما يذكر ذلك العمل الأدبي المدهش.



مقبرة الملكة خنت كاوس الأولى بالجيزة

وبنت الملكة خنت كاوس الأولى مقبرة كبيرة بالقرب من المجموعة الهرمية لأبيها الملك منكاورع. وكان يُعتقد أن مقبرة هذه الملكة هي «هرم رابع» بهضبة الجيزة غير مكتمل، بل إن الأثري الكبير الدكتور سليم حسن، الذي قام بالحفائر في مقبرتها عام ١٩٣٢، أطلقَ عليها «الهرم الرابع» بالجيزة. غير أن الحقيقة أن مقبرتها الضخمة عبارة عن مقبرة على شكل مصطبة كبيرة تتكون من مدرجين فقط، وهي منحوتة في الصخر الطبيعي لهضبة الجيزة. وتم استكمال هذه المقبرة في عصر الأسرة الخامسة نتيجة الصلة القوية للملكة خنت كاوس الأولى بملوك هذه الأسرة التي ربما تزوجت من أول ملوكها وحكم بعده اثنان من أبنائها. وفضلاً عن المقبرة نفسها، فإنه توجد عناصر معمارية أخرى ضمن هذه المجموعة الجنائزية مثل معبد الوادي وطريق صاعد ومقصورة وحفرة المركب (غالبًا لمركبين) والمدينة المخصصة للقائمين على خدمة المقبرة وإقامة الشعائر الجنائزية على روح الملكة ومخازن الغلال وخزان المياه. وتم نهب مقبرتها واستخدامها في عصور لاحقة.

وعلى الرغم من أنه تم تصوير الملكة ترتدي زيًا نسائيًا داخل مقبرتها بالجيزة، فقد تم تمثيلها

في هيئة رجالية تمامًا مثلها مثل الملوك، فنراها جالسة على العرش، وتضع لحية مستعارة والصل الملكي (ثعبان الكوبرا) وتمسك في يدها الصولجان الملكي كدلالة على حكمها للبلاد.

ونجد أن تلك الملكة حملت ألقاب «أم الملك»، و«أم ملكي مصر العليا والسفلي»، أو ربما «ملكة مصر العليا والسفلى وأم ملك مصر العليا والسفلى». ومن الملاحظ أنه لم يُكتب اسم الملك خنت كاوس الأولى داخل الخرطوش الملكي (شكل بيضاوي تُنقش داخله عادةً أسماء الملوك) كعادة الملوك المتوجين والحاكمين في مصر القديمة. غير أنه من المرجَّح أنها حكمت البلاد نيابةً عن ابنها بشكل مؤقت مما استوجب مكافأتها بالسماح لها ببناء هذه المقبرة الضخمة مع أسلافها وأهلها من ملوك مصر العظام، ملوك الأسرة الرابعة في الجيزة.

هذه هي الملكة خنت كاوس الأولى التي بنت مقبرة كبيرة مجاورة لأهرام الجيزة العظيمة، والتي كانت نقطة الانتقال في الحكم بين الأسرة الرابعة حيث أهرام الجيزة والأسرة الخامسة التي بنَت أهراماتٍ مهمة للغاية؛ وذلك بسبب كثرة وروعة مناظرها وليس ضخامتها مثل أهرامات الجيزة، في منطقتي «أبوصير» وسقارة إلى الجنوب من أهرامات الجيزة.

بيبي الأول

حكم الملك بيبي الأول في عصر الأسرة السادسة قرب نهاية عصر الدولة القديمة. وقام بيبي الأول بانتهاج سياسة توسعية في النوبة وعمل على وصول وتأمين طرق التجارة إلى بلاد بعيدة عن مصر مثل لبنان والصومال.

وفي عهده، تم تكوين أول جيش نظامي في مصر. ومن بين أشهر كبار رجال دولته الموظف الشهير وني الأكبر صاحب المقبرة الموجودة في أبيدوس في سوهاج. وتُعَدُّ من أجمل السير الذاتية من عصر الدولة القديمة سيرة هذا الموظف، وني الأكبر، والتي كانت مكتوبة على أحد جدران مقبرته وتم نقله للعرض بالمتحف المصري.

الملك بيبي الأول

ومن الجدير بالذكر أنه في عهد ذلك الملك تعرضت الدلتا المصرية لغارات عديدة من البدو الموجودين على حدود مصر الشمالية الشرقية والذين أطلقت عليهم النصوص المصرية «عامو حريو شع» أي «الأسيويين الموجودين على الرمال». ومن أجل صد هجماتهم التي لم تفلح الحاميات العسكرية القليلة العدد في هذه المناطق في التصدي لها، قام بيبي الأول بتكليف وني الأكبر بقيادة حملات عسكرية في بلاد الشام. فتمَّ القيام بتأسيس أول جيش نظامي مصري قوامه العديد من الآلاف من المجندين المصريين من جنوب مصر إلى شمالها، فضلاً عن عددٍ كبيرٍ من النوبيين والليبيين الموالين لمصر. ونجح وني الأكبر في قيادة هذا الجيش المصري النظامي الباسل والقضاء على هجمات البدو. ويفتخر وني الأكبر في نص سيرته الذاتية البديعة بتعيين جلالة الملك بيبي الأول له كي يقود هذا الجيش المكون من الآلاف من جنود مصر البواسل، خير أجناد الأرض، من صعيد مصر ودلتاها. وتم الانتصار على هؤلاء البدو بنجاح كبير.

غير أن أهم ما جاء في نص سيرة وني الأكبر الذاتية أنه تصرَّف هو وجنوده وفقًا لمعايير الأخلاق المصرية العريقة، فلم يتشاجر أحدٌ من جنوده مع غيره، ولم يَقُم أي جندي بسرقة أي خبز من أي مدينة من أرض هؤلاء البدو المعاديين لمصر المتحضرة، ولم يستولِ أيُّ جندي مصري من أبناء مصر العظيمة على شاة واحدة. وكان من أهم ما أكد عليه (وني) الأكبر ضمن سطور سيرته الذاتية الممتعة أن جيش مصر الباسل عاد منتصرًا إلى أرض مصر المباركة، وأن الجيش المصري عاد في سلام بعد أن فتك بهؤلاء البدو الذين كانوا يغيرون على حدود مصر الشمالية الشرقية، بوابة مصر الشرقية عبر العصور، وبعد أن دمر حصونهم، وبعد أن أضرم النار في أرضهم، وبعد أن قتل الآلاف من جندهم، وبعد أن أسر الآلاف منهم.

كل هذا يدل على عظم قوة وبسالة المقاتل المصري ومدى تحضر الجيش المصري واتباعه للآداب والسلوكيات التي أقرُّها العالم بعد ذلك من خلال رفض الاعتداء على المدنيين وسرقة أو نهب أي شيء من أرض العدو، وكذلك حسن معاملة الأسرى.

هذه هي مصر العظيمة تؤسس أول جيش نظامي في التاريخ وتضع قوانين وسلوكيات وآداب التعامل مع العدو وأرضه وقت الحرب.

الملكة ورت إمات إس

كما أن تاريخ مصر القديمة يحفل بذكر سير ملكات عظيمة، فإنه كان بين ملكات مصر القديمة عدد قليل منهم من اللواتي لم تكن على نفس القدر من أهمية المكانة التي تحظى بها ولا بنفس القدر من القيم الأخلاقية التي أبدعتها مصر القديمة قبل أن يُولَد فجر الضمير، وقبل أن يبزغ الوعي الأخلاقي والقيمي في العالم القديم.

ويذكُر التاريخ فيما يَذكُر من سير ملكات عصر الأسرة السادسة ملكة حملت نعت «ورت إمات إس»، ولا نعرف لها اسمًا على وجه التحديد. ويعني نعتها «العظيمة في طيبتها» أو «عظيمة الصولجان». وسوف نطلق عليها اسم «ورت إمات إس» للدلالة عليها. وربما كانت ابنة للملك تتي من ملوك الأسرة السادسة. وكانت هذه الملكة زوجة للملك ببي الأول أحد أهم ملوك عصر الأسرة السادسة.

جاء ذِكر تلك الملكة في إحدى السير الذاتية لأحد أهم الموظفين الكبار من ذلك العصر ويدعى الموظف «وني الأكبر». ونقش ذلك الموظف نَص سيرته الذاتية في مقبرته في أبيدوس، وكانت تلك الواقعة من دواعي فخر وني الأكبر مما جعله يسجلها في سيرته الذاتية كأحد أهم أحداث حياته الوظيفية. ومن خلال تسجيله تلك الواقعة، يوضح لنا وني الأكبر أهميته وعظم مكانته لدى الملك ببي الأول الذي وثق فيه وجعله يحقق في تلك الواقعة المتعلقة بالحريم الملكي الذي لم يكن مسموحًا لأحد الدخول إليه ومناقشة خصوصياته. غير أن وني الأكبر بصفته القضائية الكبيرة، ومكانته المهمة في الدولة المصرية آنذاك، وثقة الملك فيه بشكل خاص، قام بتلك المهمة على أكمل وجه.



جزء من السيرة الذاتية للموظف وني الاكبرعلى لوحة حاليًا بالمتحف المصري بالتحرير

ويذكر وني الاكبر أن الملك ببي الأول كلفه بالتحقيق وحده (وذلك الشرف لم يسبقه إليه أحد من قبل) مع هذه الملكة. وفضَّل عدم ذِكر اسمها حفاظًا عليها. وربما كانت هي عنخ إن إس ببي الثالثة، زوجة الملك ببي الثاني بعد ذلك، وقد تورطت تلك الملكة في مؤامرة ما ضد الملك بالاشتراك مع الوزير، وتُعد تلك الواقعة الأولى في هذا الصدد. وهناك واقعة مشابهة حدثت من زوجة الملك رمسيس الثالث من ملوك الأسرة العشرين، وسوف نذكرها لاحقًا في هذا الكتاب.

ويؤكد ذلك التحقيق رقي الملك المصري القديم الذي لم يشأ أن يتم اتهام زوجته الملكة ظنًا، ودون قرائن إدانة، ودون تحقيق عادل، ودون التأكُّد من صحة ما نُسبَ إليها على الرغم من أنه كان في استطاعته اتهامها منفردًا دون تحقيق ودون أدلة إدانة؛ فلم تكن هناك سُلطة تعلو سلطة الملك في مصر القديمة، فقد كان ابن الآلهة والممثل للسُلطة الدينية والدنيوية على الأرض. غير أنه قام بعكس ذلك، واحترم القضاء العادل، وأسند الأمر إلى القاضي وني الاكبر وكلَّفه بالتحقيق واستجلاء الأمر دون تدخل منه في مجريات التحقيق، مما يدل على فَهم وتقدير واحترام المصريين القدماء، حكامًا ومحكومين، للعدالة التي أطلقوا عليها اسم «ماعت» وجعلوا لها ربة تحمل اسمها وتمثل أسمى المعاني لديهم، ولولا الإيمان بقيمة «ماعت» وتطبيقها قولاً وفعلاً ما كانت مصر القديمة وحضارتها على الإطلاق.

وقام وني الاكبر بالتحقيق مع الملكة ومع كل أطراف المؤامرة. ورفع تقريره للملك منفردًا. ولا نعرف على وجه الدقة ماهية المؤامرة التي قامت بها الملكة. وكان الموظف وني الاكبر من الحصافة بحيث أنه لم يخبرنا بطبيعة المؤامرة، ولا هوية الأطراف المشاركة فيها، بالطبع مع تلك الملكة المتآمرة، ولا بنتيجة التحقيق، ولا مصير المتآمرين. ورجح البعض حدوث خيانة زوجية من تلك الملكة. ومال البعض الآخر إلى الاعتقاد بأن الملكة تآمرت على إحدى الزوجات الأخريات الأثيرات لدى الملك. واعتقد فريق ثالث أنه ربما تآمرت على أحد أبناء الملك من ملكة أخرى كي تعرقل طريقه للوصول إلى عرش مصر بعد صعود روح الملك ببي الأول إلى السماء ودخوله عالم الآلهة المبجلين بين ملوك مصر السابقين الخالدين.

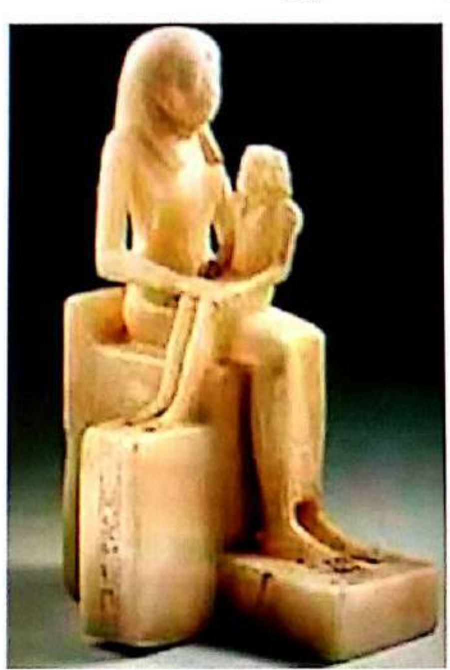
ولا نعلم على وجه التحديد ماهية العقاب الذي تم إنزاله بهذه الملكة. غير أنه من المرجَّح أنها اختفت من الأحداث وتاريخ الفترة وتم تنحيتها. وهناك من يعتقد أنه تم إقصاؤها وولدها. وكان ذلك أشد عقاب لها. وبالفعل تزوج الملك ببي الأول من ملكتين أخريين (عنخ إن إس ببي الأولى وعنخ إن إس ببي الثانية) بنتيَ النبيل خوي وأختيَ الوزير جعو من نبلاء أبيدوس. وأنجب من الأولى خليفته الملك مرنرع ومن الثانية الملك ببي الثاني.

تلك قصة ملكة مختلفة عن قصص الملكات العظيمات اللواتي سجَّل التاريخ سيرهن بأحرف من نور. وليس في هذا ما يشين مصر القديمة؛ فإن مصر القديمة كانت مثلها مثل أي مجتمع إنساني قديم أو معاصر فيه ما فيه من أطماع وأحقاد وغيرة وكراهية مما يمتلئ به بعض ضعاف النفوس من البشر. غير أن المهم هنا هو سلوك الملك ببي الأول المتحضر في تلك الواقعة المشينة. وهذا هو ما يعبِّر عن عظمة وروح مصر وتحضُّر المصريين قديمًا ودومًا وإيمانهم قديمًا بقيمة «الماعت» (العدالة) دائمًا وأبدًا.

الملكة نيت إقرتي

تعتبر الملكة نيت إقرتي، أو نيت إقرت، أو نيتوكريس في النطق اليوناني لاسمها، من الملكات المثيرات والملغزات في نهاية عصر الأسرة السادسة.

وجاء ذكرها في كتاب التواريخ لأبي التاريخ هيرودوت وكتابات المؤرخ المصري مانيتون السمنودي. وهناك من يشُكك في وجودها التاريخي كلية. وربما كانت ابنة الملك بيبي الثاني وزوجته الملكة نيت وكانت أختًا للملك مرنرع الثاني. وحكم بعدها الملك نفركارع آخر ملوك الأسرة السادسة. وكُتب اسمها داخل الخرطوش الملكي الذي كان يُكتب داخله عادة أسماء الملوك مما يدل على أنها ربما كانت ملكة حاكمة. وحملت الملكة اسم العرش «منكارع» مما جعل مانيتون وغيره يخلط بينها وبين اسم الملك منكاورع وينسب إليها الهرم الثالث بالجيزة، بدلاً من صاحبه الملك منكاورع.



الملك بيبي الثاني جالسًا على حجر أمه الملكة عنخ إن إس بيبي الثانية

ومن الجدير بالذكر أن تلك الملكة لم تُذكر في المصادر المصرية القديمة إلا في قائمة تورين الذي يحاول البعض التشكيك في نسبة هذا الاسم للملكة، ويؤكد أن المقصود به ملك آخر وليست هذه الملكة.

ومن الملاحظ أن نهاية الأسرات المصرية القديمة شهدت ظهور ملكات حاكمات كما حدث في نهاية الأسرة الأولى والأسرة الرابعة من قبل، وذلك لأسباب ترتبط بالظروف السياسية وضعف الأسرات الحاكمة أو موت الملوك وقيام الملكات بملء الفراغ السياسي سواء كحاكمات منفردات أو وصيات على أبنائهن الملوك الصغار.

ومن المعروف تاريخيًا أن الملك بيبي الثاني حكم مصر لفترة طويلة مات فيها أبناؤه وحتى أحفاده. وترك ولاية الحكم في تلك الأسرة الحاكمة بعد وفاته على المحك. وتلاه على العرش الملك مرن رع الثاني، غالبًا ابن الملكة نيت. وربما تلته في حكم مصر أخته الملكة نيت إقرتي. ووصف المؤرخ مانيتون السمنودي هذه الملكة الفاتنة والفائقة الجمال قائلاً إنها كانت أكثر امرأة نبيلة ومحبوبة في زمنها وأنها كانت ذات وجه جميل وخدين ورديين.

وقد يشير تولي تلك الملكة حكم مصر في هذه الفترة إلى أنه كان هناك توتُّر في البلاد في تلك الفترة العصيبة من تاريخ مصر والتي أدت بالبلاد إلى السقوط في ظلمات وأهوال ما يعرف بـ «عصر الانتقال الأول» في تاريخ مصر القديمة، والذي شاع فيه الاضطراب والاضمحلال بعد نهاية عصر الدولة القديمة، عصر بناة الأهرام، أحد العصور الذهبية الثلاثة في تاريخ مصر القديمة.

ومن المتعارف عليه أن حكم المرأة في مصر القديمة كان مؤقتًا عادة في الظروف السياسية الطبيعية. ونظرًا لما كانت تستدعيه ظروف البلاد والوصاية وولاية العرش آنذاك، فكان أغلب الظن يتم اللجوء إلى حكم النساء اضطرارًا، وكانت المرأة تحكم إلى أن يشب صغيرها عن الطوق ويصبح قادرًا على الحكم بمفرده، فتترك الحكم له راضية بعد أن تكون قد أدت رسالتها من خلال الحفاظ على العرش له.

غير أنه في تلك الحالة لم يكن لهذه الملكة ابن كي تحكم نيابة عنه. ومن الجدير بالذِّكر أن الشعب المصري قبلها كملكة حاكمة تحافظ على الخط الوراثي في أسرتها. وربما كانت الملكة نيت إقرتي ملكة قوية حكمت البلاد في فترة مضطربة سياسيًا، ونجحت إلى حدٍّ كبيرٍ في أن تدير دفة الأمور في البلاد إلى أن انتهت الأسرة السادسة، بعدها بملك واحد غالبًا، ودخلت مصر مرحلة الاضطراب السياسي لفترة ليست بالقصيرة.

ويذكر أبو التاريخ، أو أبو الأكاذيب في وصف آخر له، المؤرخ الإغريقي الشهير هيرودوت الكثير من القصص غير المنطقية عن تلك الملكة وأخيها الملك مرنرع الثاني الذي أحلها الشعب على عرش البلاد مكانه، بعد نهايته الدامية وفقًا لهيرودوت. ولم تترك لنا هذه الملكة القوية أيّ أثرٍ ولا توجد مقبرةٌ لها، وإن كان البعض يرجّح وجود هرم لها في سقارة إلى جوار هرم الملك بيبي الثاني. وتعطي قائمة تورين الملكية، من عصر الأسرة التاسعة عشرة، الملكة

نيت إقرتي فترة حكم قصيرة تقدّر بحوالي عامين وشهر ويوم واحد. غير أن هناك عددًا من علماء الآثار المصرية يشكّك في وجود هذه الملكة، ويقترح بعضهم أن اسم نيت إقرتي ربما كان جزءًا ليس مسجلاً من اسم ملكٍ ما.

وأثارت الملكة نيت إقرتي أو نيتوكريس مخيلة الأدباء وألهبت خيالهم، فشاع استخدام وذكر وتوظيف اسم تلك الملكة في الأعمال الإبداعية في مصر والغرب خصوصًا في فن القصة القصيرة والرواية، فنرى كاتبنا الأكبر نجيب محفوظ يكتب عنها في روايته الشهيرة «رادوبيس» جامعًا بينها وبين رادوبيس، والكاتب المسرحي الأمريكي الأشهر تينيسي وليامز يكتب عنها في قصته القصيرة «انتقام نيتوكريس» عام ١٩٢٨ ميلادية.

تلك هي مصر القديمة التي ألهمت وألهبت - وما تزال - قصصها وآثارها وحياة ملوكها وملكاتها خيال وأقلام الكتاب حول العالم كله، خصوصًا في فترة الكتاب الكلاسيين. فنسج الكثير منهم القصص والحكايات عن الملكات المصريات القديمات، خصوصًا نيت إقرتي أو نيتوكريس مما جعلنا لا نعرف إن كانت تلك ملكة حقيقية أم أنها مجرد شخصية خيالية لم يكن لها وجود. تلك هي مصر كثيرة العشاق والحكايات عبر الأمكنة والأزمنة.

الباب الثاني:

عصر الدولة الوسطى والانتقال الثاني

الملك مونتو حتب الثاني

بعد عصر طويل من الاستقرار السياسي، انقسمت البلاد وشهد عصر الانتقال الأول انهيار الدولة والسُلطة المركزية وطغيان سطوة حكام الأقاليم المصرية وبزوغ نجمهم. وفي النصف الثاني من عصر الأسرة الحادية عشرة، ظهر الفرعون مونتو حتب الثاني نب حبت رع ووحّد مصر؛ فأصبح الموحّد الثاني للأرض المصرية بعد الملك مينا الأول، وأسس الدولة الوسطى.

حكم الملك مونتو حتب الثاني حوالي ٥١ عامًا. ووحد مصر تحت سُلطة ملك واحد في حوالي عام حكمه التاسع والثلاثين، منهيًا بذلك عصر الانتقال الأول، ومؤسسًا عصرًا من الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي للبلاد.

وعندما صعد مونتو حتب الثاني لحكم البلاد في منطقة طيبة (الأقصر الحالية)، كان يحكم جزءًا كبيرًا من البلاد والذي ورثه عن سابقيه يبدأ من الجندل الأول في منطقة أسوان جنوبًا إلى الجنوب من منطقة أبيدوس في محافظة سوهاج في صعيد مصر شمالاً.

وفي العام الرابع عشر من حكمه، حدث صراعٌ في الشمال ضمن الصراع الأزلي بين الشمال والجنوب بين الملك مونتو حتب الثاني الموجود في طيبة وبين بقايا الأسرة العاشرة المنافسة له والموجودة في منطقة هيراكليوبوليس (إهناسيا المدينة في محافظة بني سويف) والتي كانت تهدّد بغزو مصر العليا حيث كان يسيطر الفرعون مونتو حتب الثاني. وقد تمّت تسمية هذا العام «عام جريمة الإقليم التيني» في إشارة واضحة إلى غزو منطقة الإقليم التيني في محافظة سوهاج من قِبَل ملوك منطقة هيراكليوبوليس الذين قاموا بالاعتداء على الجبانة الملكية المقدسة في منطقة أبيدوس في سوهاج. فقام الملك مونتو حتب الثاني بإرساله جيوشه المقاتلة إلى الشمال للرد بالقوة على ما قام بها ملوك منطقة هيراكليوبوليس. وأكبر دليل على هذه الحرب المقدسة لتوحيد البلاد هو عثورنا على أجساد ملفوفة في الكتان وغير محنطة لحوالي ستين جنديًا في مقبرة الجنود الشهيرة في منطقة الدير البحري في الأقصر في عشرينيات القرن العشرين الماضي. وعثرنا على اسم الملك مونتو حتب مكتوبًا على الأغطية الكتانية التي كانت تلف بها أجسادهم. وتم قتل هؤلاء الجنود في معركة الشرف في الرحلة الطويلة لتوحيد مصر المبعثرة آنذاك. ونظرًا لقُرب هذه المقبرة الخاصة بهؤلاء الجنود من المقابر الملكية في منطقة طيبة، نعتقد أن هذه المقبرة

تخص الأبطال الذين حاربوا وماتوا في الصراع الدموي بين الملك مونتو حتب الثاني وأعدائه من ملوك الشمال المنافسين له. وبموت حاكم مصر السفلي في هذا الصراع، ضعفته مملكته، مما جعل الفرصة سانحة أمام مونتو حتب الثاني لتوحيد مصر. وعلى الرغم من أن تاريخ التوحيد غير مؤكد، فربما حدث قبل العام ٣٩ من حكمه.



تمثال الملك مونتو حتب الثاني

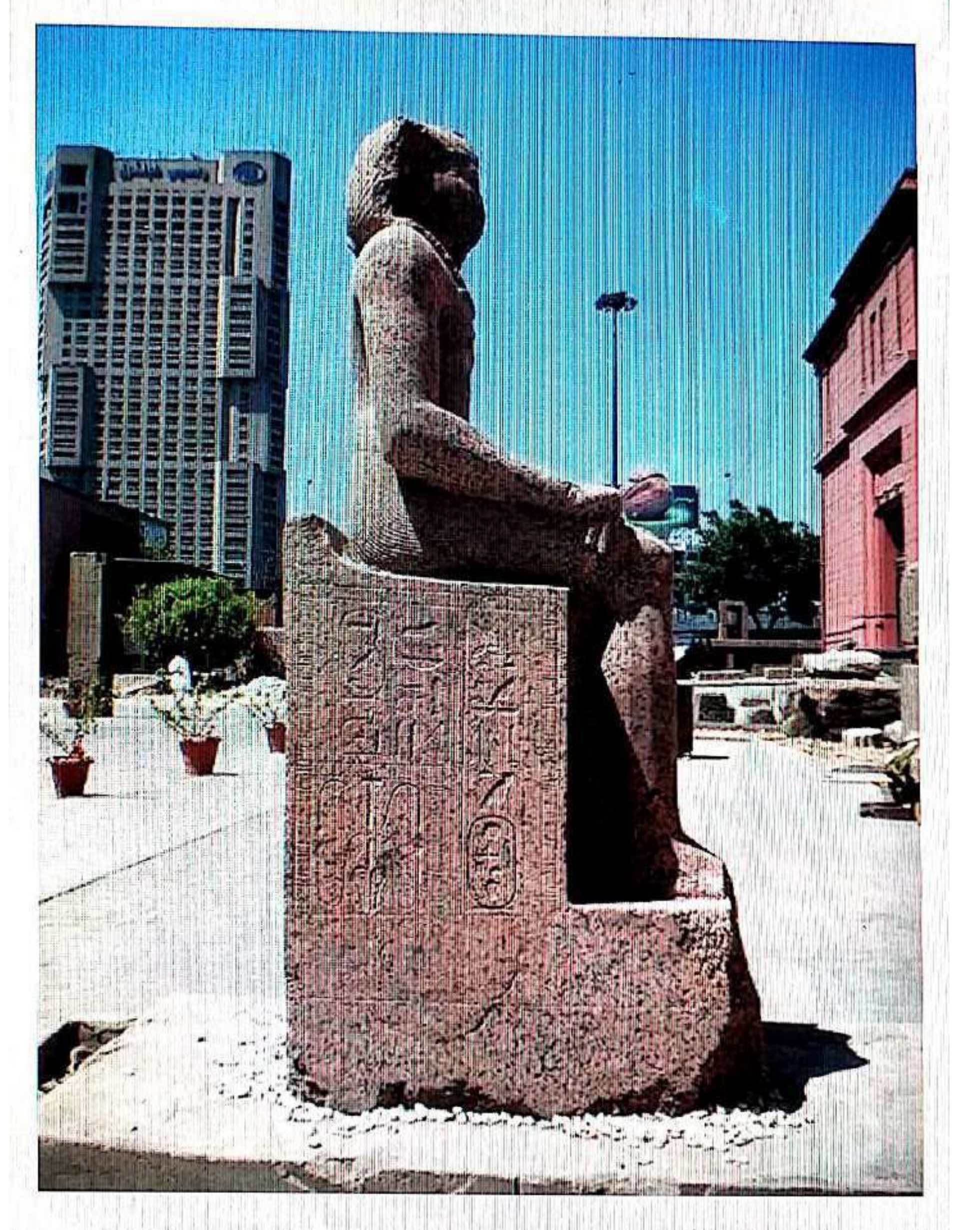
وكذلك أمر الملك بخروج حملات عسكرية إلى النوبة كي يعيد النوبة إلى السيادة المصرية، وأقام حامية في إلفنتين في أسوان. وقام أيضًا بأنشطة عسكرية في أرض كنعان في جنوب فلسطين.

الملك مونتو حتب الثاني نب حبت رع ملك عظيم وقائد عسكري قد أعاد مصر إلى الوحدة والسيادة والمجد والرخاء، فتم توقيره من قبل ملوك مصر اللاحقين وذلك لعظيم دوره وجميل صنيعه من أجل مصر الخالدة.

- الملك أمنمحات الأول

الفرعون أمنمحات الأول هو فرعون قادم من الجنوب المصري العريق. وهو أول ملوك الأسرة الثانية عشرة التي تُعتبَر قمة مجد عصر الدولة الوسطى، الفترة الذهبية الثانية بعد عصر الأهرامات في الدولة القديمة.

وأغلب الظن أن هذا الملك كان الوزير أمنمحات الذي قاد حملة إلى منطقة وادي الحمامات في عهد سلفه مونتو حتب الرابع، والذي ربما كان شريكه في الحكم. ولا ينتمي أمنمحات الأول إلى الدم الملكي. وهناك عددٌ من الأعمال الأدبية التي تُعتبَر دعاية سياسية له لإضفاء الشرعية على فترة حكمه مثل «نبوءة نفرتي» و«تعاليم أمنمحات». وتأثر في العمارة بأهرامات الدولة القديمة خصوصًا أهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة. وقام بنقل العاصمة من العاصمة القديمة طيبة (الأقصر الحالية) إلى «إثت تاوي» (أي القابضة على الأرضين) وتم دفنه في هرمه في منطقة اللشت في الجيزة.



تمثال الملك أمنمحات الأول بحديقة المتحف المصري بميدان التحرير بالقاهرة

شهدت بدايات حكمه توترًا سياسيًا كبيرًا وصراعات عدة. وكانت هناك معارك بحرية قام بها أحد رجاله المدعو خنوم حتب الأول وأحرز فيها نصرًا مؤزرًا. وذكرَ ذلك الموظف أن مصر قامت بحملات عسكرية عدة في الشمال والجنوب من أجل استعادة هيبة الدولة وبسط السيادة على مناطق نفوذ وممتلكات مصر. وقام جلالة الفرعون أمنمحات الأول بتدعيم

أواصر حكمه والحفاظ على مؤسسات الدولة والعودة للدولة المركزية الأصيلة. واتخذ هذا الفرعون لقبًا مميزًا ضمن ألقابه الخمسة وهو «وحم مسو» بمعنى «معيد الميلاد أو النهضة» للأرض المصرية حيث قام بالعودة إلى أمجاد عصر الدولة القديمة حيث كانت الأهرامات العظيمة والمدارس الفنية العريقة.

غير أن أسوأ ما شهدته نهاية عهد ذلك الفرعون هو تعرُّضه لمحاولة اغتيال أدَّت إلى مماته. ودليلنا على ذلك عملان أدبيان شهيران هما: تعاليم أمنمحات وقصة سنوهي. والنَّص الأول نصائح وجَّهها الملك الأب إلى ابنه وولي عهده سنوسرت. ولعلَّ أهم ما جاء فيها تحذيره له من أن يثق في أتباعه، وطلبَ منه ألا يتخذ من أحدٍ صديقًا. ويخبر ولده بما حدث له من اغتيال، قائلاً إنه أثناء منامه بالليل، تم رفع الأسلحة على الملك من رجاله، فكان الملك أشبه بثعبان في الصحراء. وحاول المقاومة. وكانت هذه محاولة للاعتداء على حياته من حرسه الخاص. ولم يكن هناك سلاح بيد الملك، فلم يستطع مقاومة هؤلاء الخونة. ولا يوجد شجاعٌ بليلٍ بمفرده، دون سلاح، ودونَ معاون. ولقد حدثَ هذا الاعتداء على حياته لأن ابنه سنوسرت لم يكن معه، ولم تكن تسمع الحاشية بهذا، ولم يكن يخطر هذا بذهن الملك إطلاقًا، ولم يكن يعلم بخيانة هؤلاء الأتباع. ويؤكد هذا النص اغتيال الفرعون بواسطة حراسه، بينما كان ابنه وولي عهده سنوسرت (سنوسرت الأول بعد ذلك) يقود حملة عسكرية في ليبيا. وتعبر قصة سنوهي عن موت الملك أمنمحات الأول بشكل رمزي أدبي يعكس عظم أدب الدولة الوسطى، العصر الذهبي للأدب في مصر الفرعونية.

أمنمحات الأول ملك محارب من طراز رفيع أسس الأسرة الثانية عشرة وأعاد مصر للمجد والثراء والرخاء، وتم اغتياله على أيدي حرسه الخاص، فلم يكن جزاؤه من جنس عمله الطيب لبلده العظيم: مصر.

- الملك سنوسرت الأول

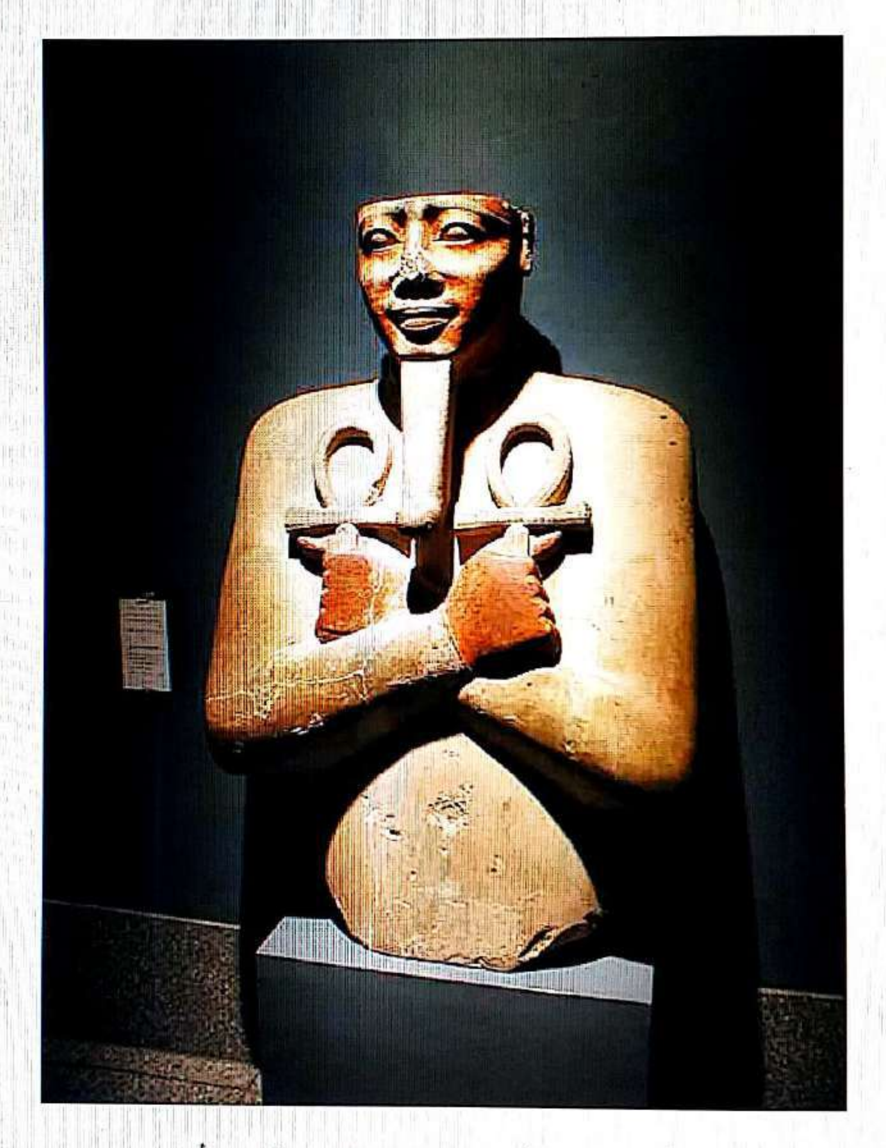
كان ولي العهد الأمير سنوسرت في حملة عسكرية في ليبيا. وفي تلك الأجواء، بلغه نبأ اغتيال والده الملك أمنمحات الأول. وكما تذكر قصة سنوهي أن أمنمحات الأول أرسل جيشًا إلى أرض التمحو، تحت رئاسة ابنه سنوسرت الذي ذهب للسيطرة على البلاد الأجنبية وأسر سكان التمحو. وأثناء عودة الأمير ومعه الآلاف من الأسرى وكل أنواع الماشية بأعدادٍ لا حصر لها من تلك البلاد، تم إرسال عددٍ من رجال القصر الملكي المخلصين إلى الأمير سنوسرت لإخباره بما حدث.

وكان أمنمحات الأول عسكريًا ذكيًا للغاية، يجيد قراءة الأحداث والتنبؤ بالمستقبل، فأشرك ابنه وولي عهده سنوسرت معه في الحكم في العام العشرين من حكمه، وكانت هذه من أوائل حالات الاشتراك في الحكم في مصر الفرعونية.

وكان سنوسرت الأول من أقوى فراعنة الأسرة الثانية عشرة. وواصل سياسة والده وطبّق نصائحه في تعاليمه له، فقام بالتوسع في بلاد النوبة بشكل كبير. وقام بحملتين عسكريتين في العامين العاشر والثامن عشر من حكمه. وحدَّد حدود مصر الجنوبية الرسمية بالقُرب من الجندل الثاني وأقام هناك حامية عسكرية، ونصب لوحة تذكارية تمجد انتصاراته العسكرية هناك.

ولم يكتفِ هذا الفرعون النشيط عسكريًا بهذا بل قام بإرسال حملة عسكرية إلى الواحات الغربية. ونجح في بناء علاقات دبلوماسية وطيدة مع أمراء المدن السورية والكنعانية.

وكما كان سنوسرت الأول ملكًا نشيطًا عسكريًا، كان ملكًا بناءً عظيمًا أيضًا، واستخدم القوة العسكرية من أجل تنفيذ برنامجه المعماري الضخم والطموح عبر الأرض المصرية. فنراه يرسل بعثات تعدينية تحرسها القوى العسكرية كي تجلب له المواد التي تحتاج إليها أبنيته المعمارية الضخمة. وها هو يرسل البعثة تلو الأخرى إلى أرض الفيزوز، أرض سيناء الغالية، والتي هي جزء غالٍ من أرض مصر المباركة منذ أقدم العصور ومنذ أن خط الإله أول كلماته. وكانت منطقة وادي الحمامات في صحراء مصر الشرقية من المناطق التي كان يرسل إليها سنوسرت الأول البعثات التعدينية محاطة بقوى مصر العسكرية الساهرة على حمايتها.



تمثال الملك سنوسرت الأول في هيئة إله الموتى المعبود أوزيريس

بنى ذلك الملك العديد من المقاصير والمعابد عبر الأرض المصرية وبلاد النوبة، وبنى معبد الإله آتوم في منطقة هليوبوليس، (عين شمس والمطرية في شرق القاهرة حاليًا)، والذي كان مركزًا أساسيًا لعبادة الشمس في مصر الفرعونية. وأقام في هذا المعبد مسلتين من الجرانيت الأحمر المجلوب من محاجر أسوان البعيدة، وما تزال مسلة واحدة منهما قائمة إلى الآن في مكانها، وذلك للاحتفال بالعيد الثلاثيني لجلوسه على عرش مصر الأرض الطيبة، فضلاً عن بناء مقصورته البيضاء الشهيرة في معابد الكرنك في مدينة الأقصر لنفس الغرض.

سنوسرت الأول مَلِكي عسكري محنَّك تربى في مدرسة أبيه أمنمحات الأول، فتعلم منه الكثير وكان حذرًا وحريصًا، ونجحَ في أن يفلت من مصير والده، وزاد عن والده بأن أقام برنامجًا معماريًا ضخمًا طموحًا في طول وعرض أرض مصر وبلاد النوبة.

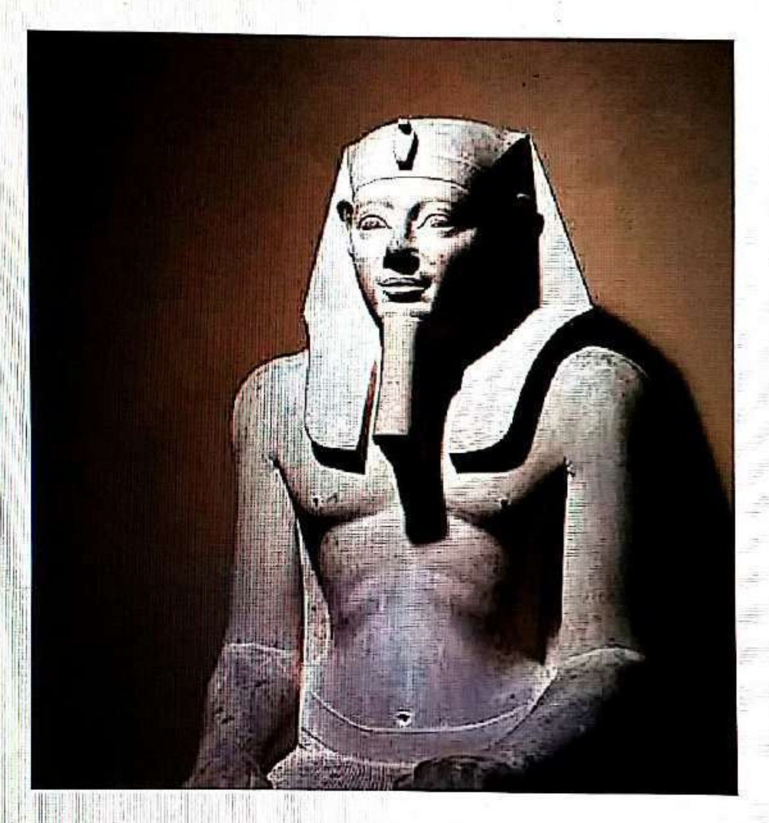
- الملكة نفري تا تشنن

عصر الدولة الوسطى هو الفترة الثانية من الفترات الذهبية من عصور مصر القديمة. وفي عصر الدولة الوسطى، عادت فيها مصر إلى سابق عهدها من الوحدة والاستقرار والمجد. وفي عصر الدولة الوسطى، ازدهر الأدب واللغة المصرية في العصر الكلاسي، وتم الاهتمام بالزراعة ومشروعات الري، وزادت رقعة مصر الزراعية. وقام ملوكها ببناء الأهرامات مرة أخرى في مناطق عدة مثل دهشور وهوارة واللِشت واللاهون.

وفي عصر الدولة الوسطى، برزت عدة ملكات وأميرات إلى المجد والقمة. ومن بين هذه الملكات، الملكة نفري تا تشنن بمعنى «جميلة هي الأرض الناهضة». وعلى ما في هذا الاسم من دلالاتٍ دينية، فإنه قد يُشير إلى أرض مصر التي نهضت بعد فترة طويلة من الاضمحلال بعد أفول نجم الدولة القديمة. ها هي مصر العظيمة تنهض من جديد وبمنتهى القوة.

نؤكد على قيام الوزير أمنمحات، الملك أمنمحات الأول، ملك مصر العليا والسفلى، أول ملوك عصر الثانية عشرة لاحقًا بنقل العاصمة من طيبة (الأقصر الحالية) إلى الشمال حيث يمكنه حُكم مصر بسهولة لتوسُّطها أرض مصر وسهولة الوصول إليها والتحرُّك منها إلى معظم مصر. وأسس هذا الملك عاصمة جديدة، «إيثت تاوي»، بمعنى «القابضة على الأرض». وهذه العاصمة مفقودة الآن، غير أنه من المرجَّح أنها كانت قريبة من منطقة اللِشت الحالية، واتخذ أمنمحات الأول من أهرام الدولة القديمة نموذجًا لمقبرته في اللِشت؛ فقام ببنائها على شكل هرم مما جعلنا ندرج الدولة الوسطى ضمن بناة الأهرام. وترك أمنمحات الأول الأسلوب المعماري الذي كان متبعًا في طيبة حيث كان الملوك السابقون عليه يقومون ببناء مقابر منحوتة في الصخر الطبيعي في البَرّ الغربي للأقصر.

ونُشير إلى أن أمنمحات الأول بنى حول هرمه حوالي ٢٢ بئرًا. وخصَّصها للنساء الأكثر أهمية في العائلة، وكان من بينها، مقبرة زوجته نفري تا تشنن، وكانت أم ابنه وولي عهده وشريكه وخليفته في حكم مصر الأمير سنوسرت (الملك سنوسرت الأول بعد ذلك صاحب مسلة المطرية الشهيرة). وحملت لقب «أم الملك». وذكرها ابنها سنوسرت الأول على أحد تماثيله الصغيرة، ولا نعلم كثيرًا عن ميلادها وزواجها وموتها غير أنها عاشت في القرن العشرين قبل الميلاد، أي منذ حوالي ٤٠٠٠ عام.



(الملك سنوسرت الأول ابن الملكة الملكة نفري تا تشنن)

ونوضِّح أنه بعد ما يقرب من ثلاثين عامًا على عرش مصر، تم اغتيال الملك أمنمحات الأول، أغلب الظن. وعلى عكس كل ضحايا الاغتيالات السياسية، تمكَّن أمنمحات الأول من كتابة خطاب إلى ابنه الأمير سنوسرت. وفيه، حكى الملك بالتفصيل الأحداث المرعبة التي تعرض لها في ختام حياته والتي أدت إلى موته. وكانت صدمة أمنمحات الأول كبيرة. فكيف يتم اغتياله في فراشه وفي قصر وبين حراسه الذين من المفترض أن يكونوا هم المحافظون على حياته؟! وربما جاءت محاولة اغتياله من حريمه الملكي لخلاف على خليفته في حكم البلاد. وربما نجحت المؤامرة وتمَّ قتله، لكنها فشلت في تغيير خليفته سنوسرت، ونصح ولده سنوسرت بألا يثق في أي أحدٍ وألا يتخذ صديقًا. وكان الأمير سنوسرت في حملة خارج البلاد كما جاء في قصة سنوهي. وذلك المصدر الأدبي من الأعمال القليلة التي تظهر الطبيعة البشرية للملك المصري القديم، وكانت تلك من الحالات القليلة التي أظهرت الملك في لحظة ضعف. وليس لدينا دليل رسمي على اغتيال ذلك الملك، وتم نقل الأحداث لنا من وجهة نظر الملك وفي تلك الظروف العصيبة التي يمكن أن يتعرض لها أي إنسان وليس ملكًا عظيمًا

كأمنمحات الأول، أحد بناة مصر العظام، والذي أعاد لمصر مجدها التليد وعظمتها الماضية. وأضفت رواية الأحداث على لسان الملك أبعادا درامية وإنسانية على ذلك النص الأدبي المعروف بين عيون الأدب المصري القديم بـ «تعاليم الملك أمنمحات الأول».

ونؤكّد على أننا نعتبر الملكة نفري تا تشنن ملكة مكلومة تعرَّض زوجها للاغتيال، فتناست جراحها وعظم مأساتها وفقدها زوجها الملك القوي والأثير إلى قلبها، ووقفَت إلى جوار ابنها الأمير سنوسرت، تقوي من عضده في تلك الظروف الحزينة التي كانت تمر بها مصر، إلى أن تمكن الملك الشاب سنوسرت الأول من إدارة البلاد باقتدار لا يقل عظمة عن والده الراحل، فكان خير خلف لخير سلف، وكان ذلك بسبب ملكة مصرية عظيمة وأم فاضلة هي الملكة الجليلة نفري تا تشنن.

-الملك سنوسرت الثالث

يُعتبر الفرعون سنوسرت الثالث أعظم وأقوى فراعنة الأسرة الثانية عشرة والدولة الوسطى المحاربين، وحقَّق في عهده مجد مصر العسكري والقوة والرخاء كأقصى ما يكون المجد والقوة والرخاء في ذلك العصر البعيد. وأضفت كل هذه الأبعاد عليه المسحة الأسطورية، وجعلت منه رمزًا لجميع المصريين وأيقونة يقلدها كل ملوك مصر اللاحقين.

وأدت حروبه العسكرية التي تُدرَّس في الأكاديميات العسكرية إلى سيادة الاستقرار والسلام والرخاء الاقتصادي الوفير في أرض مصر الطاهرة، وحطَّم أسطورة حكام الأقاليم التي لا تُقهر وحجمهم لأقصى ما يكون التحجيم، وقام بنهضة كبيرة في الأعمال المعمارية والفنية والملاحية والزراعية وأعمال الري لم يسبق إليها أحدٌ من قبل. وازدهرت في عهده التجارة ووصلت إلى أقصى بلاد الجنوب وإلى الشمال مع بلاد الشام. وازدهرت أعمال الملاحة في عهده وقام بمد قناة تحمل اسمه تربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط عبر نهر النيل الخالد. وتوسَّع العمران في عهده بشكل مذهل. كل هذه المظاهر الحضارية المشرقة دفعت المصريين إلى تقديس الفرعون المقاتل سنوسرت الثالث في حياته، وكان في ذلك من بين الفراعنة المعدودين الذين تم تقديسهم وعبادتهم في حياتهم على الأرض.

وقام الفرعون سنوسرت الثالث ببناء وتنظيف قنوات ملاحية عدة في منطقة الجندل الأول جنوب مصر مثل قناة الفراعنة التي حاول بناءها. وفي فترة ثلاث سنوات، توسَّع الملك الفذ سنوسرت الثالث بشكل منهجي وغير مسبوق في بلاد النوبة، وأقام سلسلة من القلاع المصرية الضخمة على طول نهر النيل في مناطق بوهن وسمنة وقمنة وتوشكى وغيرها.

وتعدَّدت حملاته العسكرية في بلاد النوبة، فنراه يقوم بما لا يقل عن أربع حملات في هذه البلاد في الأعوام الثامن والعاشر والسادس عشر والتاسع عشر من حكمه المديد. وتشير لوحة العام الثامن من حكمه في منطقة سمنة إلى انتصاراته العديدة ضد النوبيين، والتي من خلالها نجح في تأمين حدود مصر الجنوبية ومنع تسلل الجنوبين إلى الأرض المصرية. بينما تشير لوحة عظيمة أخرى من العام السادس عشر من حكمه من منطقة سمنة إلى أنشطته العسكرية في النوبة وكنعان في بلاد الشام. وفي هذه اللوحة يوصي خلفاءه من ملوك مصر اللاحقين بالحفاظ على حدود مصر الجديدة التي قام بتحديدها ومدّ ممتلكات مصر إليها. وفي هذا السياق يقول جلالة الفرعون: «جعلت حدودي الجنوبية أبعد مما جعله آبائي.. وبالنسبة لابني الذي سوف يحافظ على هذه الحدود التي قام بها جلالتي، فهو ابني الذي وُلد لجلالتي. والابن الحقيقي هو الذي يقوم بأعمال البطولة لأبيه، وهو الذي يحرس حدود الذي أنجبه. غير أن الذي يهملها، والذي يفشل في الدفاع عنها، فإنه ليس ابني، ولم يُولَد لي».



تمثال الملك سنوسرت الثالث بالمتحف المصري بميدان التحرير بالقاهرة.

الفرعون سنوسرت الثالث ملك مقاتل وعسكري استراتيجي من طراز رفيع شغل الدنيا والناس جميعًا، ونشر اسم ورسالة وهيبة مصر في كل ربوع الشرق الأدنى القديم، فكان حقًا على المصريين تخليد سيرته وتقديسه في حياته وتقليده بعد مماته. وهذا هو شأن العظام من حكام مصر الخالدين.

- الملك أمنمحات الثالث

الملك أمنمحات الثالث هو واحد من أهم فراعنة عصر الدولة الوسطى والأسرة الثانية عشرة، وكان إداريًا حازمًا وسياسيًا حكيمًا وبنّاءً عظيمًا، وتعتبر فترة حكمه الفترة الذهبية لعصر الدولة الوسطى وعهد سلام واستقرار وتعمير بعد الحروب التي خاضها أبوه الملك سنوسرت الثالث الذي ربما أشركه معه في حكم مصر لمدة عشرين عامًا.

وبنى هرمه الأول المعروف بالهرم الأسود في منطقة دهشور في الجيزة، وفي حدود العام الخامس عشر من حكمه بنى هرمه الجديد في منطقة هوارة في الفيوم. وربما كان المعبد الجنائزي الخاص بهذا الهرم الأخير هو ما أطلق عليه المؤرخ اليوناني الأشهر هيرودوت وغيره اسم «اللابيرنث» (أي قصر التيه أو المتاهة)، والذي اعتبره المؤرخ والإغريقي استرابون واحدًا من عجائب العالم القديم.

ومنحت الحروب العديدة التي قام بها والده العظيم الملك سنوسرت الثالث هذا الفرعون الجديد الوقت كي يتفرغ للبناء والعمران. وقام الفرعون أمنمحات الثالث بأنشطة عسكرية غير كثيرة في فترة حكمه المديدة؛ فيوجد ذِكر لقيام حملة عسكرية صغيرة في العام التاسع من حكمه، وجاء الدليل على هذه الحملة العسكرية من منطقة بلاد النوبة على نقش صخري بالقرب من قلعة سمنة الشهيرة، وقاد هذه الحملة العسكرية أحد قواد الملك، والذي ذكر أنه عاد بسلام إلى الشمال مع فرقة عسكرية صغيرة، وأنه لم يمت أحدٌ منها عندما ذهبوا في مهمتهم إلى الجنوب.

غير أن أهم ما يميز عهد ذلك الفرعون البناء هو اهتمامه الكبير بإرسال بعثات تعدينية عديدة لمناطق التعدين المختلفة في الأرض المصرية المباركة، وكان من بين أهمها الذهاب في حملة تعدينية إلى منطقة وادي الحودي على حدود مصر الجنوبية للحصول على حجر الجمشت أو الأماتيست أو حجر الأرجوان. ويرجع تاريخ تلك البعثات إلى الأعوام الحادي عشر والعشرين والثامن والعشرين من حكم هذا الملك، وكانت منطقة وادي الحمامات من أهم المناطق التعدينية التي أرسل الملك أمنمحات الثالث البعثات إليها. وترجع بعثات وادي الحمامات إلى الأعوام الثاني والثالث والتاسع عشر والعشرين والثالث والثلاثين من حكم جلالته، وربما كان عمل البعثتين في العامين التاسع عشر والعشرين في وادي الحمامات ينصب على بداية التحضير لبناء مجموعة الملك الهرمية في منطقة هوارة. وكذلك قامت فِرَق العمل الملكية بقطع الأحجار لنحت التماثيل الملكية الجميلة الخاصة بالفرعون أمنمحات الثالث. وعلى شاطئ البحر الأحمر تم اكتشاف لوحة تذكر إرسال بعثة إلى بلاد بونت في عهد أمنمحات الثالث.



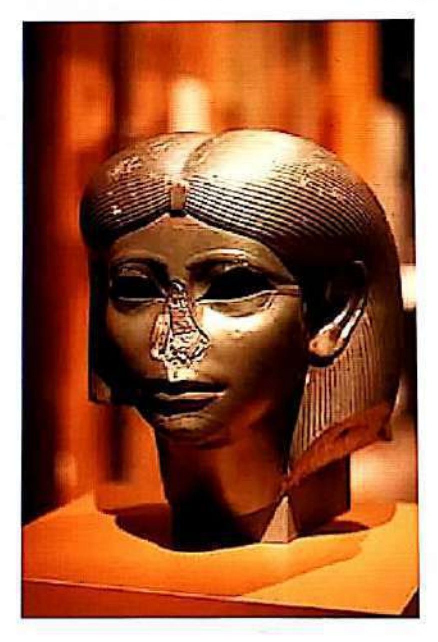
(تمثال الملك أمنمحات الثالث بمتحف الأرميتاج في سان بطرسبرج في روسيا)

شغل أمنمحات الثالث مكانة مرموقة في نظر المعاصرين له، وظلّت سيرته مصدر فخر المصريين، ورفعته الأجيال التالية من المصريين إلى مصاف الآلهة والأرباب كما فعلت مع أبيه من قبل.

الملك العظيم أمنمحات الثالث نموذج قوي يوضّح كيف أن الاستقرار السياسي المبني على القوة العسكرية المستقرة يمكن القائد الفذ من بناء الوطن ونشر السلام والتفرغ للتنمية والرخاء والازدهار.

الملكة سوبك نفرو

يبقى للمرأة المصرية السبق والإبداع والتميز في مجالات عدة، وكان حكم البلاد بانفراد من بينها، وكان إسهامها في ذلك لا يقل عن إسهام نصفها الآخر الرجل المصري القديم، ونؤكد أنه لولا المرأة المصرية القديمة، ما قامت الحضارة المصرية القديمة؛ فالمرأة المصرية هي رمانة الميزان ومركز الدفع والتحفيز على العمل والإبداع وشحذ الهمم والطاقات لدى رجال مصر العظام. وفي ذلك ما يوضح سبق مصر الحضاري على غيرها من الحضارات من خلال عظمة المرأة المصرية التي لولاها ما كانت مصر عمومًا.



(الملكة سوبك نفرو ويظهر التدمير على آثارها)

وتُعتبَر الملكة سوبك نفرو (أو «نفرو سوبك» لدى علماء المصريات الأوائل) واحدة من أهم ملكات مصر القديمة، وكان وجودها مؤثرًا ودورها محوريًا وقصة حياتها وأعمالها خالدة على وجه الزمن.

ويعني اسمها «جمال سوبك». وعرف اسمها في المصادر الكلاسيكية، مثل كتابات مانيتون السمنودي، باسم «سكميوفيرس».

وكانت الأسرة الثانية عشرة تؤمن غالبًا بأحقية ومشروعية المرأة في حكم البلاد؛ فنرى الملك أمنمحات الثالث يفضّل ابنته الكبرى الأميرة «بتاح نفرو» (أو «نفرو بتاح») لخلافته على

العرش، غير أنه تأتي عادة الرياح بما لا تشتهي السفن؛ فتموت تلك الأميرة في سن مبكرة، ثم يذهب الحكم إلى الملك أمنمحات الرابع، ويتوفى أمنمحات الرابع بعد فترة حكم قصيرة دون ولي عهد ذكر، وربما كان هذا الملك هو الأخ غير الشقيق أو زوج سوبك نفرو. وبعده حكمت الملكة سوبك نفرو، ابنة الملك أمنمحات الثالث، أربع سنوات، وأصبحت غالبًا سوبك نفرو أول ملكة تحكم منفردة، وأطلقت عليها المصادر المصرية القديمة لقب «ملك» (نسو) في صيغته الذكورية، متغاضية عن كونها ملكة، و«ابنة الملك»، وليس «أخت الملك»، مما يوضح ميلها للارتباط بأبيها.

واتخذت الملكة خليطًا من الألقاب الذكورية والأنثوية التي تعبّر فيها عن طبيعتها؛ فنراها تأخذ اسم العرش «سوبك كارع»، والاسم الحوري، «ميريت رع» (محبوبة رع)، الذي يربطها بالإله حورس الممثل الأبدي للملكية المصرية المقدسة.

وتم اكتشاف عددٍ قليلٍ من آثارها. وكان من بينها ثلاثة من التماثيل النصفية المفقودة الرأس، أهمها في متحف اللوفر في باريس، مما قد يُشير إلى تعرُّض تماثيلها، وربما آثارها، للاعتداء. ولا ندري السبب وراء تدمير آثارها، وتُظهرها تماثيلها المكسورة بملامح وملابس أنثوية، أغلب الظن، وفي أوضاع الملوك؛ فنراها تطأ بقدميها أعداء مصر التقليديين، مقلّدة ملوك مصر، منذ الملك حورعحا (مينا)، في المظهر والزي والفعل كي يتم قبولها في أعين الشعب ولدى الآلهة. واستخدمت أيضًا الألقاب النسائية. ومن خلال زيها، حاولت التعبير عن ذاتها كي تتحول من ملكة إلى ملك في أعين الجميع، وحتى تظهر بالشكل المثالي الذي يجب أن تُصوَّر به، ليس كملكة حية بل كملكة في العالم الآخر.

واهتمت الملكة بهرم أبيها أمنمحات الثالث ومجموعته الجنائزية الخاصة في منطقة هوارة في الفيوم، وقامت بالعديد من الإضافات لها، والتي أطلق عليها هيرودوت «اللابيرنث» (التيه)؛ نظرًا لكبر المبنى وتعدُّد حجراته وممراته والتيه لمن يدخله. وارتبطت أعمالها الأثرية والمعمارية بوالدها. وكشف عن بعض القطع الأثرية التي تحمل اسمها بالقرب من هرم أبيها. وربما قامت بتأليه أبيها كإله منطقة الفيوم كي تعطي لنفسها الشرعية والمصداقية لحكم البلاد باعتبارها ابنة الإله، وكانت لها أنشطتها في منطقة النوبة في قلعة قمنة حيث تم تسجيل ارتفاع فيضان نهر النيل في العالم الثالث من حكمها. وفي هذا ما يدل على أن هذه الملكة حكمت أرضها مصر شمالاً وجنوبًا إلى النوبة، وأنها كانت مسيطرة على أملاك الإمبراطورية المصرية في الداخل والخارج، وأنها نجحت في ذلك مثل أسلافها من الملوك حكام الأسرة الثانية عشرة.

لا نعرف مكان مقبرتها بشكل مؤكد، إلى الآن، غير أنه يُعتقد أنها ربما قد تكون دُفنت في هرم

مزغونة الشمالي في الجيزة، على الرغم من أن هذا الهرم يخلو من أي كتابات قد تعرّفنا بهوية صاحبه. وإلى الشمال من مجموعة شبيهة ترجع إلى أمنمحات الرابع، يوجد مكان يعرف باسم «سخم نفرو»، ربما كان هذا هو المكان الذي كان به هرم سوبك نفرو.

وماتت سوبك نفرو دون أن تترك وريثًا. وتعد نهايتها غامضة، غير أنه ليس هناك ما يشير إلى أنها ماتت ميتة غير طبيعية، وانتهت بنهايتها الأسرة الثانية عشرة ومجد عصر الدولة الوسطى التي استمرت قليلاً بعد ذلك، لكن في قمة الضعف، قبل أن تنحدر مصر في ظلمات عصر الانتقال الثاني والاحتلال الهكسوسي البغيض لأرض مصر الطيبة.

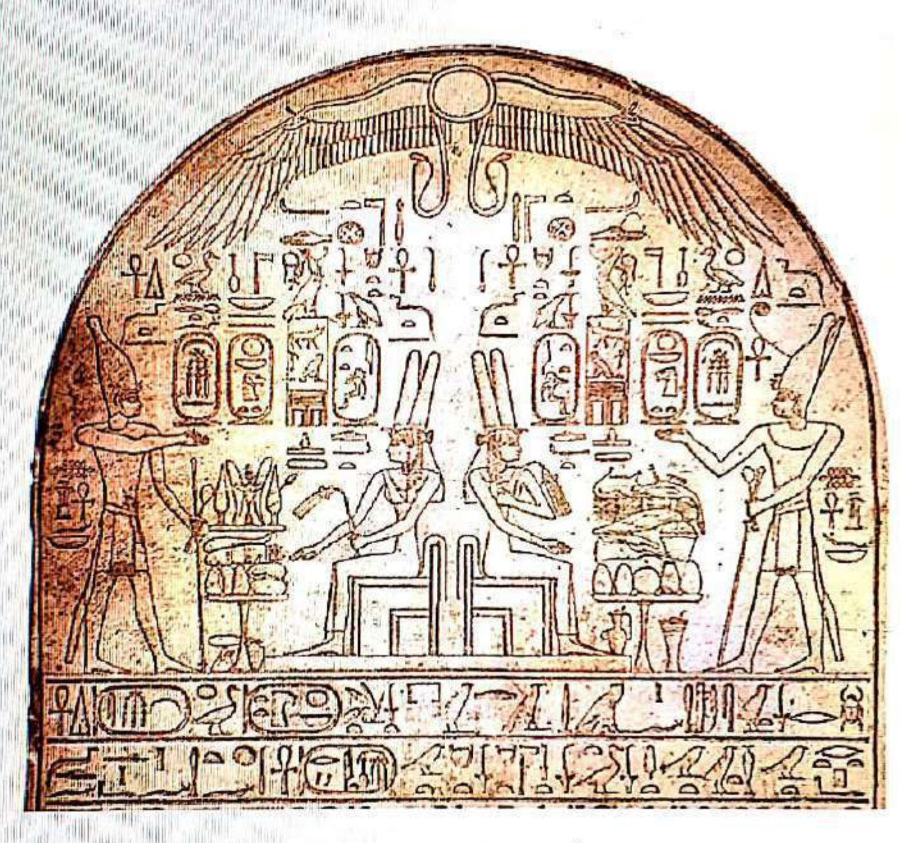
الملكة تتي شيري

انتهى عصر الدولة الوسطى الذهبي، وسقطت مصر في هوة وفوضى عصر الانتقال الثاني الذي عانت فيه البلاد بشدة من ضراوة احتلال الهكسوس («حكام البلاد الأجنبية»، كما أطلقت عليهم النصوص المصرية القديمة) الذين احتلوا الدلتا المصرية وجزءًا كبيرًا من شمال مصر، بينما حافظت أسرة مصرية وطنية على حكم البلاد في العاصمة المصرية العريقة طيبة (الأقصر الحالية). واحتل الهكسوس مصر لمدة تقرب من مائة عام. ولم تهدأ مصر ولا أبطالها من ملوك التحرير القادمين من أقصى الصعيد المصري للدفاع عن الأرض المصرية وتحريرها من احتلال الهكسوس البغيض الذي أذاق البلاد الأمرين. ويذكُر التاريخ أن كفاح مصر ضد حكم الهكسوس اشتد مع عصر الأسرة السابعة عشرة.

ومن بين ملكات ذلك العصر الفاصل في التاريخ المصري القديم، الملكة المناضلة تتي شيري، ويعني اسمها «تتي الصغيرة». وكانت الملكة تتي شيري من أهم ملكات الأسرة السابعة عشرة وعصر الانتقال الثاني. وكانت زوجة للملك ست نخت إن رع تاعا الأول الذي كان ابنًا للملك سوبك إم ساف الثاني. واختارها الملك ست نخت إن رع تاعا الأول كي تكون زوجته الكبرى، على الرغم من أنها لم تكن تنتمي للدم الملكي؛ فقد كانت ابنة شخص عادي يدعى تشنتا وزوجته نفرو، وحكم زوجها فترة قصيرة، وأنجبت منه ابنها الملك سقنن رع تاعا الثاني وابنتها إياح حتب، وربما الأمير كامس.

وحملت ألقابًا مهمّة مثل «زوجة الملك الكبرى»، و«أم الملك». وتزوّج سقنن رع تاعا الثاني وإياح حتب وأنجبا الأمير أحمس الذي سوف يصبح ملكًا على مصر، ويحمل لقب الملك أحمس الأول، ملك مصر العليا والسفلى، ويحرّر مصر من الهكسوس ويطاردهم إلى خارج الحدود المصرية إلى جنوب فلسطين، ويؤسس الأسرة الثامنة عشرة وعصر الدولة الحديثة، أو عصر الإمبراطورية كما يعرف في أدبيات علم المصريات، حين أسّست مصر إمبراطورية امتدت من نهر الفرات والبحر المتوسط إلى الشمال الشرقي، وإلى أعماق السودان جنوبًا، وإلى ليبيا غربًا، وصارت مصر سيدة العالم القديم وحكمت العالم القديم كله بالعلم والحق والعدل والدين القويم.

ومن الجدير بالذِّكر أن الملكة تتي شيري عاشت عمرًا مديدًا، وعاصرت كل مراحل تحرير مصر من احتلال الهكسوس، وعايشت كفاح ملوك مصر الأبطال ابتداءً من زوجها، وابنيها، وحفيدها إلى أن تم تحرير الأرض في النهاية.



لوحة الملك أحمس الأول لجدته الملكة تتي شيري

وقام الملك أحمس الأول بتقدير وتكريم جدته الراحلة الملكة تتي شيري أقصى ما يكون التقدير والتكريم؛ فأقام لها ضريحًا في منطقة أبيدوس الخالدة، مقرّ عبادة رب الأرباب، ورب الموتى، وسيد العالم الآخر، المعبود الأبرز أوزير، ومقرّ ملوك مصر الأسلاف المبجلين، وأقام هناك لوحة تذكارية تخلد ما فعله من أجل تلك الجدة العظيمة. وتظهر الملكة تتي شيري على هذه اللوحة جالسة في منظرين، أحدهما على اليمين والآخر على الشمال، ويقف أمامها، في كلٍّ من المنظرين، حفيدها الملك أحمس الأول، مقدّمًا القرابين والعطايا لجدته المبجّلة دومًا وأبدًا. ويذكر الملك أحمس الأول في نص تلك اللوحة خططه وخطط زوجته الملكة أحمس نفرتاري لتكريم تلك الجدة المحبوبة مثل تشييد هرم ومقصورة لها داخل المجموعة الجنائزية الخاصة بالملك أحمس الأول.

وفي نصه يشير الملك أحمس الأول إليها قائلًا:

- أتذكر أم أمي، وأم أبي، زوجة الملك الكبرى، وأم الملك، تتي شيري المبجلة. إن لها بالفعل

مقبرة وأثرًا جنائزيًا على أرضٍ إقليم طيبة وإقليم أبيدوس، غير أنني قلت ذلك لك لأن جلالتي يريد أن يبني ضيعة هرمية لها في الجبَّانة بالقرب من الأثر الخاص بجلالتي، وتم حفر بحيرتها، وتم زراعة أشجارها، وتم إمدادها بالقرابين من أرغفة الخبز.. وبمجرد أن تحدث جلالته بهذا الأمر، تم تنفيذه. وفعلَ جلالته ذلك لأنه أحبها أكثر من أي شيء. ولم يفعل الملوك السابقون المثل لأمهاتهم.

ولم نعثر لها على مقبرة إلى الآن، وربما تكون قد دُفنت في منطقة دراع أبو النجا في البر الغربي لمدينة الأقصر. وعُثر على مومياء الملكة، التي تحمل اسم «المومياء بغير المعروفة»، في خبيئة الدير البحري التي وُجدَت في مقبرة رقم ٣٢٠، والتي اكتشفتها عائلة عبد الرسول الأقصرية في عام ١٨٨١ ميلادية، واستكمل العمل فيها الفرنسي جاستو ماسبيرو. ووُجدَ اسمها مكتوبًا على لفائف التحنيط الخاصة بمومياتها. وكان هناك تمثال ينسب إليها في المتحف البريطاني بلندن ويمثلها جالسة، وتبين أنه تمثال مزيف.

لقد كانت الملكة العظيمة تتي شيري هي الدافع الأساسي وراء تحرير البلاد من محنة احتلال الهكسوس. وفي ذلك ما يوضِّح عِظَم دور هذه الملكة المبجلة، ودور ملكات مصر العظيمات في الدفاع عن أرض مصر الخالدة، وتنشئة الملوك الأبطال الجديرين بحكم مصر العظيمة، سيدة العالم القديم.

الملك سقنن رع تاعا الثاني

الملك سقنن رع تاعو أو الملك سقنن رع جحوتي عا أو الملك سقنن رع تاعا الثاني هو أحد ملوك الأسرة السابعة عشرة التي كانت تحكم جنوب مصر فقط من منطقة طيبة (الأقصر الحالية). وفي الفترة العصيبة من حكم مصر، كانت البلاد تقع تحت احتلال الهكسوس البغي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها احتلال جزء كبير من الأرض المصرية لفترة زمنية تبلغ القرن من الزمان، وكانوا الهكسوس يسيطرون على شمال مصر، وأعني منطقة الدلتا المصرية العريقة، وكان نفوذهم يمتد إلى مصر أقاصي الوسطى، وبدأ حُكّام مصر في الأسرة السابعة عشرة تحت قيادة الملك الجنوبي سقنن رع تاعا الثاني في البدء في مقاومة الاحتلال الهكسوس خصوصًا أنه لم يبقِ من أرض مصر المستقلة سوى شريط ضيق في صعيد مصر كان ينعم بنوع من الاستقلال الذاتي تحت سيطرة حكام مدينة طيبة العريقة، وكان يمتد من القوصية في محافظة أسيوط (آخر حدود الهكسوس جنوبًا) وإلى منطقة الفنتين في أسوان. فبدأ حكام طيبة يشعرون بالقوة، وأخذوا يتحالفون مع جيرانهم من أمراء مصر في الشمال والجنوب، وكتبوا أسماءهم في خراطيش تسبقها الألقاب الملكية نكاية في الهكسوس وللتعبير عن ذاتهم المصرية في مواجهة المحتل الغاشم.

وتوضح لنا إحدى البرديات المصرية بداية الصراع والاحتكاك بين حكام طيبة والهكسوس، وهي قصة تميل إلى الأجواء الأسطورية وتوضح قصة الاشتباك بين حاكم طيبة سقنن رع تاعا الثاني وملك الهكسوس أبيبي أو أبوفيس في أولى معارك وحروب تحرير مصر من محنة الاحتلال الهكسوسي البغيض، وتُظهر هذه القصة ملك الهكسوس أبوفيس وهو يحاول البحث عن مبرر كي يشتبك مع حاكم طيبة سقنن رع فنراه يرسل إليه برسالة غريبة يشكو فيها من أصوات أفراس النهر التي تسبح في البحيرة المقدسة بمعبد الإله آمون في منطقة طيبة والتي تزعج ملك الهكسوس وتمنعه من النوم في عاصمته البعيدة أواريس التي تقع في دلتا النيل وتبعد مئات الكيلومترات عن طيبة! وفي ذلك إشارة رمزية إلى معرفة الهكسوس بالاستعدادات التي يقوم بها حاكم طيبة لطرد الهكسوس. وردَّ عليه الملك البطل سقنن رع ردًا ذكيًا يظهر رغبته في السلام، كما أكرم وفادة الوفد الهكسوسي بعد أن أشار عليه رجال بلاطه بذلك.



(مومياء الملك الشهيد سقنن رع تاعا الثاني وبها الضربات التي تعرّض لها في معركة الشرف)

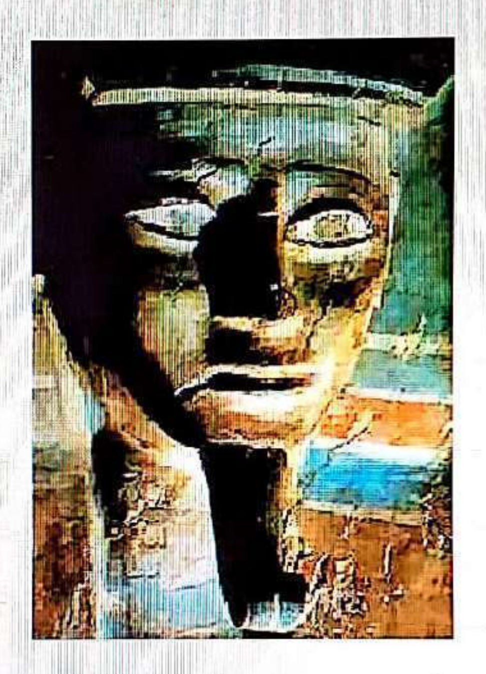
سقط الملك سقنن رع تاعا الثاني شهيدًا في معركة الشرف والكفاح كي يحرر مصر من محنة الاحتلال الهكسوسي البغيض، وتوضّح مومياء الملك البطل الموجودة في المتحف المصري في ميدان التحرير موته متأثرًا بجراحه في معركة الشرف، وتم التأكد من هذا الأمر بعد أن تم تجريب بعض الأسلحة التي استخدمها الهكسوس وتطابقها مع معظم الجراح الموجودة بالجمجمة فضلاً عن سوء التحنيط الذي تم لهذه المومياء نظرًا لسرعة تحنيطه في ساحة المعركة.

سقنن رع تاعا الثاني حاكم وبطل مصري شجاع بدأ معركة تحرير مصر من الهكسوس ومات في معركة الشرف دفاعًا عن وطنه العظيم: مصر.

الملك كامس

الملك كامس هو آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة في طيبة، وربما حكم ما بين ثلاثة إلى خمسة أعوام، وهو البطل الثاني من الملوك الأبطال أصحاب ملحمة تحرير مصر من الهكسوس. وجاءنا كفاح هذا الملك من خلال ثلاث وثائق أكملت كل واحدة منها الأخرى مما أنتج لنا في النهاية قصة شبه كاملة عن ثاني أبطال حرب التحرير، والوثيقة الأولى هي نَصّ كتبه تلميذ مصري قديم على لوح يعرف بلوح كارنارفون، والوثيقة الثانية مكتوبة على لوحة تم العثور عليها عام ١٩٢٨ ميلادية وتحكي أن كامس ضاق بعد وفاة والده وصعوده على العرش بالاحتلال الهكسوسي لأرض مصر الطاهرة، فطلب دعوة رجال بلاطه وقادة جيشه كي يشاورهم في الأمر، فأخذوا في مدح جلالته والتغني بشجاعته والإشادة بقوته، فأثارته الدهشة من أقوالهم، ولفت نظرهم إلى موقفه بين ملكين أحدهما أسيوي يحكم في الشمال والآخر كوشي يحكم في الجنوب. وشعر أن رجاله لا يميلون إلى الحرب وأنهم موافقون على الوضع الحالي، غير أن كامس رفض ذلك وصمم على قتال الأعداء، وكان على يقين من أن البلاد كلها سوف تهتف له. وبالفعل تقدَّم الشجاع كامس على صفحة النهر الخالد شمالًا حتى وصل إلى بلدة نفروسي (شمال القوصية في أسيوط) وانتصر على حاكمها الذي كان مواليًا للهكسوس.

والوثيقة الثالثة عبارة عن لوحة كاملة من الحجر الجيري عثر عليها في معابد الكرنك عام ١٩٥٤ ميلادية وتكمل أحداث الوثيقتين السابقتين. وتروي لنا قصة استمرار انتصارات كامس على الهكسوس وعن الرعب الذي أدخله جيش مصر العظيم إلى قلوبنا أعدائنا من الهكسوس المحتلين لأرضنا المباركة. وتقص أيضًا قصة الغنائم التي حصل عليها من أسر رسول بعث به ملك الهكسوس أبيبي (أو أبوفيس) لتوصيل رسالة منه إلى ملك كوش في بلاد النوبة العليا، وفيها يطلب منه المساعدة ومهاجمة مصر من الجنوب أثناء انشغال كامس في حروبه في الشمال، ثم يعدد المدن التي استولى عليها. وفي عام حكمه الثالث، قام كامس بحملة عسكرية ضد الكوشيين أعوان الهكسوس جنوب مصر كي يقطع الإمدادات والصلات بين عدوه الهكسوسي الأساسي وحليف عدوه الكوشي، ثم قام بحملة أخرى ضدهم في عامهم الرابع أو الخامس.



(وجه الملك الشجاع كامس على تابوته)

لا نعلم على وجه التحديد كيف كانت نهاية الملك الباسل كامس أو سبب موته، غير أنه من المؤكد أن الموت قد حصد روحه الطاهرة أثناء معاركه في الشمال، وقبل أن يفتح عاصمة الهكسوس أواريس (أو أفاريس) في شرق الدلتا المصرية، تاركًا هذه المهمة المقدّسة لخليفته الملك البطل محرر مصر من محنة الهكسوس، الملك العظيم أحمس الأول، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة والدولة الحديثة وعصر الإمبراطورية المصري المجيدة في الشرق الأدنى القديم.

الملك كامس هو ملك مصري عظيم مدّ حكم دولته الجنوبية شمالاً، وحقق انتصارات مذهلة ضد الهكسوس ولم يتمكن من طردهم نهائيًا من مصر، ومات دفاعًا عن الوطن العظيم: مصر، فاستحق أن يخلده التاريخ.

الملكة إياح حتب

قام ملوك التحرير بالتصدي للاحتلال الهكسوسي البغيض على مصر العزيزة، وسجلوا بأحرف من نور بطولات خالدة في سجل الحضارة المصرية العريقة، والتاريخ الإنساني عمومًا، فدخلوا تاريخ الدفاع عن الأوطان الغالية والأرض الطيبة من أوسع أبوابه.

تعتبر الملكة المناضلة إياح حتب الأولى من الملكات الفضيلات، بعد سيدة الأسرة الأبرز الملكة العظيمة تتي شيري، ويعني اسم الملكة إياح حتب «القمر سعيد». وعاشت هذه الملكة في نهاية الأسرة السابعة عشرة، وكانت ابنة الملكة الجليلة تتي شري والملك ست نخت إن رع تاعا الأول، وتزوج الملك سقنن رع تاعا الثاني من ثلاث سيدات، هن: إين حابي، وست حجوتي، وإياح حتب الأولى. وأصبحت الملكة إياح حتب الأولى زوجته الأساسية، وحملت هذه الملكة من الألقاب الملكية ما دلنا على عظم مكانتها في ذلك العصر. فنراها تحمل الألقاب والصفات التالية: «الزوجة الملكية العظمى»، و«أم الملك» في إشارة إلى ابنها الملك أحمس الأول ملك مصر العليا والسفلى، و«المتحدة مع حامل التاج الأبيض (وهو «تاج الصعيد»، في إشارة إلى الملك المصري الذي كان يحكم صعيد مصر فقط في ذلك الوقت، وليس الدلتا التي كانت واقعة في قبضة الهكسوس).

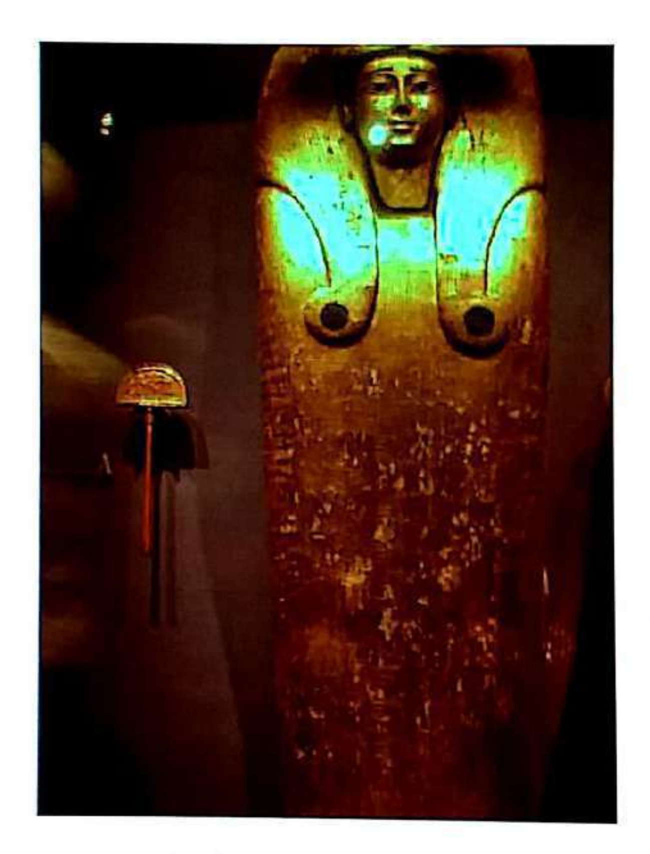
يُعدُّ زوجها الملك سقنن رع تاعا الثاني أحد أبطال وملوك التحرير. ومن الجدير بالذِّكر أن هناك ملكة أخرى تحمل اسمها وهي الملكة «إياح حتب الثانية»، التي يُنسَب إليها تابوت مذهب عثر عليه في منطقة «دراع أبو النجا» في البر الغربي من جبّانة طيبة في مدينة الأقصر الحالية.

وأنجبت الملكة إياح حتب الأولى عددًا كبيرًا من الأبناء، أربعة منهم يحملون اسم أحمس، أميرتان: أحمس نفرتاري وأحمس نب تا، وأميران: أحمس الأكبر الذي مات مبكرًا، وأحمس الأصغر الذي عاش وأصبح الملك أحمس الأول وتزوّج من أحمس نفرتاري.

مات زوج إياح حتب الأولى، الملك سقنن رع تا عا الثاني، في معركة الشرف والكفاح ضد الهكسوس. وعُثر على موميائه في خبيئة الدير البحري بالأقصر. وتظهر بموميائه جراح بالغة في الرأس نتيجة ضربات نافذة بفأس هكسوسية.

ذهب الحكم إلى الملك كامس الذي كان يعتقد أنه ابن الملك سقنن رع تاعا الثاني، أو شقيقه في رأي آخر، غير أنه من غير المعروف صلته بهذه العائلة على نحوٍ محدَّد إلى الآن. غير أن الشيء المؤكد أن الملك كامس كان من أصل نبيل اختار أن يستكمل الحرب ضد الهكسوس كملك محارب من طراز رفيع إلى أن مات بعد حوالي ثلاث سنوات في أرض المعركة البعيدة.

وكان زوجًا للملكة إياح حتب الثانية. ثم تبعه الملك أحمس الأول، الابن الأصغر للملك سقنن رع تاعا الثاني والملكة إياح حتب الأولى، وساعدته في شؤون الحكم والعسكرية أمّه الملكة العظيمة إياح حتب الأولى التي كانت وصية عليه. ولم يخجل الملك أحمس الأول كملك بالغ لمصر الموحدة أن يذكر ذلك وأنه يدين لأمه تلك الملكة المناضلة بالفضل عليه؛ فنرى الملك أحمس الأول يكرم أمه على لوحة في معابد الكرنك، ويشير نص تلك اللوحة أن إلى الملكة إياح حتب الأولى ربما ساهمت في تسيير الفرق العسكرية، ولعبَت دورًا في الدفاع عن طيبة، وأنها دافعت عن مصر، وحمتها واعتنت بها وبجنود مصر، وقامت بأداء الشعائر، وجمعت الهاربين وأعادت الفارين، وأنزلت السلام والسَّكينة على منطقة مصر العليا، وطردت المتمردين. وربما قامت بهذه الأدوار بعد وفاة زوجها، أو أغلب الظن بعد وفاة الملك كامس. وتُعدُّ هذه هي المرة الأولى التي نعثر فيها على نَصٍّ مكتوبٍ يشير إلى ممارسة السلطة من قبل ملكة مصرية قديمة وصية على ابنها. وعُثر ضمن آثارها على عددٍ كبيرٍ من الآثار العسكرية مثل فأس يدوية وخنجر وأنواط عسكرية على شكل ذبابات ذهبية مما يؤكد على دورها العسكري الفريد بين نساء الحكم عمومًا، وكان ذلك ضروريًا بالنسبة لها نتيجة ظروف تلك الفترة القلقة من تاريخ مصر المجيد.



(تابوت الملكة إياح حتب الأولى)

بعد وفاة ابنها الملك أحمس الأول، تولى حكم مصر الملك أمنحتب الأول، فعاصرته الملكة إياح حتب الأولى، وعاصرت خليفته الملك تحتمس الأول الذي ماتت في عهده في سن متقدمة جدًا. وقد كانت حياة تلك الملكة مديدة ومؤثرة للغاية.

لم يتم اكتشاف مقبرة الملكة إياح حتب الأولى، إلى الآن، وإنما عُثر على تابوتها الخارجي في خبيئة الدير البحري في مقبرة رقم ٣٢٠ في الجبانة الطيبية. ويظهرها تابوتها ترتدي باروكة شعر مستعار ثلاثية الأطراف، وتاجًا، وتم تغطية جسد التابوت بالريش.

تلك قصة مَلِكة مناضلة توضح عظمة الدور الذي من الممكن أن تقوم به النساء في تحرير الأوطان وشحذ همم الرجال من الأبطال كي يعيدوا لمصر كرامتها العظيمة وعزها ومجدها.

الباب الثالث: الدولة الحديثة

الملك أحمس الأول

الملك أحمس الأول هو محرر مصر من الهكسوس ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة، عصر الإمبراطورية المصرية المترامية الأطراف في الشرق الأدنى القديم.

ولم نعثر على وثيقة ملكية من عهده تقص علينا قصة طرده للهكسوس، غير أننا عرفنا قصة هذا النضال المجيد من خلال السيرة الذاتية لقائدين من القادة العسكريين لهذا الملك. وفي هذا ما يؤكد على أهمية السير الذاتية في مصر الفرعونية واستخدامها كوثيقة للتاريخ. والقائدان هُما القائد البحري أحمس ابن إبانا والقائد البري أحمس بن نخبت (أي المنحدر من مدينة الكاب في أسوان). وسجلا على جدران مقبرتيهما في الكاب ما قام بها من أفعال بطولية في الحملات الحربية تحت إمرة أحمس الأول الذي تمكّن بعد سقنن رع تا عا الثاني وكامس من الاستيلاء على عاصمة الهكسوس أفاريس (أواريس) واقتفاء أثرهم شرقًا إلى جنوب فلسطين حيث تحصنوا في حصن شاروهين المنيع (في غزة)؛ فقام أحمس الأول بحصار هذا الحصن لثلاث سنوات حتى تمكن من الاستيلاء عليه بعد أن أوقع بهم هزيمة نكراء أظهرت عظمة وبسالة المقاتل المصري في مواجهة أعدائنا، وشتّت هذا الملك المقاتل شملهم في بقاع الأرض واختفوا بعد ذلك من التاريخ ولم يعد لهم أي ذِكرٍ وكأنهم لم يكونوا موجودين من قبل.

وكما تقدّم وذكرْنا في ملحمة كفاح شعبنا المصري الأبي ضد الهكسوس لا يمكن أن ننسى بأي حالٍ من الأحوال دورَ المرأة المصرية العظيمة في شحذ همم الرجال وتقديم البطل تلو الآخر دفاعًا عن أرض مصر العظيمة. وفي المقام الأول تأتي الجدة تتي شيري زوجة سقنن رع تاعا الأول وأم سقنن رع تاعا الثاني وربما كنت أيضًا أمًا لزوجته الملكة إياح حتب. وأشاد بجدته الملكة تتي شيري أحمس الأول وبأفعالها المهمة لمصر في لوحة أقامها لها في أبيدوس كما شيد ضريحًا لها هناك. والملكة الثانية هي إياح حتب زوجة سقنن رع تاعا الثاني وأم أحمس الأول. ولعبت هذه الملكة دورًا مهمًا في حياة زوجها وولدها. وتشير لوحة في معابد الكرنك إلى دورها العسكري حيث كانت ترعى الجنود وتهتم بشؤون مصر وأنها قضت على الأعداء، وعثر في مقبرتها على بلطة وخنجر، وفي هذا ما يظهر دور هذه الملكة العسكري في تلك الفترة، والملكة الثالثة هي أحمس نفرتاري زوجة أحمس الأول التي شاركت مع زوجها في تكريم الجدة تتي شيري، وكانت خير رفيق لزوجها أحمس الأول في نضاله حتى تم تحرير مصر من احتلال الهكسوس.

الملك أحمس الأول محرر مصر الجديد وموحد مصر بعد طول تمزّق وصانع مجد مصر العسكري ومؤسس عصر الأسرة الثامنة عشرة والذي ألهم خلفاءه بإنشاء إمبراطورية مصرية واسعة في الشرق الأدنى القديم كأحد أهم الدروس المستفادة من احتلال الهكسوس لمصر وهو الدفاع عن مصر على أرض غير مصرية تتبع الإمبراطورية المصرية.



رأس الملك أحمس الأول

الملك أمنحتب الأول

أمنحتب الأول هو ابن الملك العظيم أحمس الأول من زوجته الشهيرة الملكة أحمس نفرتاري التي ساعدته وتولت الوصاية عليه عندما كان صغيرًا. وهو أول الملوك الذين يحملون هذا الاسم في الأسرة الثامنة عشرة. ويعني اسمه «آمون راضٍ أو «آمون سعيد». وورث صفات جدّه وأبيه وقام بأخذ نفس السياسة في الداخل والخارج؛ فنراه يخرج في حملة عسكرية في بلاد الشام وراء حدود مصر الشمالية الشرقية. وفي بداية فترة حكم خليفته الملك تحتمس الأول يذكر أن نطاق حكمه يمتد إلى نهر الفرات على الرغم من عدم بدء قيام تحتمس الأول بأية حملات عسكرية بعد.

وبالغ المصريون في تصوير قوة هذا الملك البدنية؛ فنراه مصورًا ممسكًا بأسد من ذيله، ثم يرفعه في سرعة خاطفة، ويقضي عليه. وعلى الرغم من عدم حقيقة هذا التصوير الفني المبالغ فيه، فالأمر يعكس مدى فخر المصريين بقوة ملكهم البدنية الخارقة والتغني بشجاعته وبسالته القتالية.

ومن الجدير بالذِّكر أن عمال منطقة دير المدينة، في البر الغربي لمدينة الأقصر، في عصر الفراعنة، ظلوا لقرون عديدة يقيمون المقاصير لعبادة أمنحتب الأول ويقدمون له القرابين، بل كان هناك تقليد خاص وهو أن كهنة معبده كانوا من العمال أنفسهم. ويأتي تقديس العمال له؛ نظرًا لاهتمام هذا الملك بطوائف العمال ووضع نظام خاص بالعمل لهم، وقدَّم لهم أرزاقهم. ومن ثم جاء تقديرهم لهذا الملك، محبوب العمال. وأطلق المصريون اسمه على أحد أشهر العام والذي كان يقع فيه الاحتفال بذكراه، وهو شهر برمهات في التقويم القبطي. ولم يقف تقديسه عند طوائف العمال فقط، وإنما امتد تقديسه إلى عددٍ كبيرٍ من النبلاء. وهناك أثرٌ لأحد الكهنة، ويعرف باسم «حوي»، يقدس فيه أمنحتب الأول وأمه أحمس نفرتاري وأباه أحمس الأول.

وعسكريًا امتاز أمنحتب الأول بالسير على نهج أبيه مع اختلاف عنه في أنه قام ليس بإعادة حدود مصر إلى أصلها، وإنما شرع في توسيع الحدود المصرية؛ فقام ببعض الأعمال الحربية كما علمنا من السيرة الذاتية للقائدين العسكريين أحمس ابن إبانه وأحمس ابن نخبت. ووصلت جيوش مصر الباسلة إلى القرب من نهر الفرات، وقام أمنحتب الأول محاربة الليبيين كما يذكر أحمس ابن نخبت في سيرته الذاتية؛ وذلك نظرًا لقيام الليبيين باغتنام فرصة احتلال الهكسوس لأرض مصر، قاموا بغزو الدلتا المصرية؛ مما دفع أمنحتب الأول للقضاء عليهم، ونجح في إخضاع بلاد النوبة وتوسيع حدود مصر الجنوبية ونشر الأمن هناك. وفي هذا الشأن، يذكر أحمس ابن إبانه في سيرته الذاتية أنه سافر مع أمنحتب الأول عندما

اتجه جنوبًا إلى كوش لتوسيع حدود مصر. وفي سيرته الذاتية، يفتخر أحمس ابن إبانه بأنه نقل أمنحتب الأول في سفينة من الجندل الثاني إلى مصر في يومين، ولم يستمر أمنحتب الأول في حروبه طويلاً وتفرغ للبناء والتعمير، ومات دون ولد يخلفه على عرش مصر.

أمنحتب الأول ملك مقاتل من طراز رفيع وضع الأسس التي سار عليها خلفاؤه كي يتم تأسيس الإمبراطورية المصرية العظيمة في الشرق الأدنى القديم.



الملك أمنحتب الأول

الملكة أحمس-نفرتاري

الأسرة الثامنة عشرة هي بداية عصر الدولة الحديثة، أو عصر الإمبراطورية المصرية العريقة التي سادت العالم القديم بالعلم والإيمان والعدل والحق قبل القوة. فلم يكن يُعرف عن الملوك المصريين القدماء البطش إلا في الحق والانتقام دون اعتداء سابق. وكانت العقيدة العسكرية المصرية دفاعية لا تميل إلى البدء بالاعتداء. وهذه من سمات الشخصية المصرية التي تميل إلى البناء والتعمير والتسامح والسلام، ولا تحب الاعتداء، لكن ولو حدث اعتداء، يتحول الملوك المصريون إلى أسود شرسة تدافع عن عرين أرضهم الطيبة وشعبهم الأبي، وهذا ما حدث بعد محنة الهكسوس القاسية التي تعرضت لها مصر العظيمة، فأخذت مصر في حماية الحدود وتكوين امبراطورية خالدة دفاعًا عن الأرض خارج الحدود المصرية.

تعتبر الملكة أحمس-نفرتاري أول ملكات الأسرة الثامنة عشرة، والدولة الحديثة، الفترة الذهبية الثالثة من تاريخ مصر القديمة. وكانت ابنة للملك سقنن رع تاعا الثاني وزوجته إياح حتب الأولى. وتزوجت من الملك، البطل، محرّر مصر من الهكسوس، أحمس الأول. ويعني اسمها «ولد القمر-أجملهم (أو حلاوتهم)». وهذا لا يجعلنا نخلط بينها وبين الملكة نفرتاري، زوجة نجم الأرض الفرعون الأشهر الملك رمسيس الثاني في عصر الأسرة التالية، الأسرة التاسعة عشرة. وحملت عددًا من الألقاب الملكية مثل «ابنة الملك» و«أخت الملك» و«الزوجة الملكية العظمى» و«أم الملك» و«زوجة الملك» و«الكاهنة الثانية للإله آمون (رب طيبة والدولة الحديثة الأشهر)»، ومن خلال هذا اللقب منحها زوجها أحمس الأول وأبناءها للأبد العديد من الأوقاف، وكذلك منحها اللقب الديني الجديد «الزوجة الإلهية للإله آمون» وجلب لها الكثير من الثروات. وهو من الألقاب الجديدة التي ارتبطت فيها نساء البيت المالك بعبادة الإله، رب الدولة الحديثة والإمبراطورية المصرية الأكبر، وكهانته مما يدلّ على وعي الملوك المصريين بأهمية ذلك المعبود وكهنته مما جعلهم يدخلون عنصرًا نسائيًا ضمن عبادة ذلك المعبود واسع النفوذ الذي اتسعت ديانته حتى هدّدت سلطة الفرعون وصارت سلطة موازية ودولة داخل الدولة حتى ثار عليه وعلى كهنته فرعون التوحيد، الملك أخناتون (أمنحتب الرابع قبل ذلك). ويعد لقب الزوجة الإلهية للإله آمون لقبًا كهنوتيًا ليس إلا، ولم تكن حاملة هذا اللقب زوجة فعلية للإله، ولم تكن ضمن حريم الإله؛ لأن البغاء الديني لم يكن معروفًا في مصر القديمة كما كانت الحال في بعض حضارات الشرق الأدنى القديم. ومن خلال هذه الثروات الطائلة التي خصصت لتلك الملكة المعشوقة من زوجها الفرعون، صار ممكنًا لهذه الملكة القيام بالعديد من القرابين والطقوس، وأصبح اسمها منقوشًا في عدد كبير من المعابد في أبيدوس وطيبة وسرابيط الخادم في سيناء الغالية حيث كانت تُعبد الربة حتحور التي ارتبطت بشكل

خاص بنساء البيت المالك في عصر تلك الأسرة الخالدة.



(الملكة أحمس-نفرتاري وابنها الملك أمنحتب الأول)

وتم كتابة اسم الملكة مع زوجها أحمس الأول في محاجر الحجر الجيري في منف ومحاجر الألباستر في أسيوط. وعندما قرَّر زوجها تشييد ضريح لجدته تتي شري، ذكر أنه ناقش أولاً خططه مع «رفيقته» أحمس-نفرتاري، وتشير كلمة «رفيقته» إلى مساواة الملكة بالربة «ماعت»، رفيقة الإله رع وكل الملوك، مما يدل على تقدير زوجها لها. وهذا ليس غريبًا على هذا الملك الذي كان حفيًا بملكات أسرته المؤسسة للوحدة المصرية بعد احتلال الهكسوس، ومعترفًا بفضلهن، جدة وأمًا وزوجة، في تحقيق حلم التحرير الذي حلمت به مصر طويلاً، فلولا جهودهن وتشجيعهن، لم يكن الحلم ليرى النور بعد طول إظلام في طول البلاد وعرضها. فسجَّل شكره لهن قولاً وفعلاً في بقاع عديدة من الأرض المصرية الفسيحة.

وأنجبت الملكة أحمس-نفرتاري أربعة أولاد وخمس بنات، مات خمس منهم صغارًا. وبعد وفاة أحمس الأول، قامت بالوصاية على ابنها الصغير الملك أمنحتب الأول. وعند وفاة زوجته الملكة ميريت آمون (وليست ابنة رمسيس الثاني الشهيرة)، قامت الملكة الأم بدور الزوجة الكبرى له كي تدعم ابنها الذي مات دون وريث للعرش. ولعبت دورًا مهمًا في اختيار خليفة ابنها، الملك تحتمس الأول، الذي ماتت في عهده، وذفنت في منطقة دراع أبو النجا في البر الغربي للأقصر. وعُثر على مومياء الملكة في تابوت كبير مع مومياء الملك رمسيس الثالث في خبيئة الدير البحري. ومن خلال فحص مومياتها، تبيَّن لنا أنها ماتت في حوالي السبعين من عمرها المديد، وأن يدها اليمنى سرقها اللصوص القدماء للحصول على حليها.

وبعد وفاة الملكة أحمس-نفرتاري تم تقديسها مع ابنها الملك أمنحتب الأول باعتبارهما إلهين حاميين لجبّانة طِيبة، خصوصًا في منطقة دير المدينة التي كانت قرية الفنانين والعمال بناة مقابر الملوك في وادي الملوك ومقابر الملكات في وادي الملكات ومقابر النبلاء في جبّانات الأفراد العديدة في البر الغربي لمدينة الأقصر. وتم بناء معبد لها في طيبة. وعُبدت إلى نهاية الدولة الحديثة. وتم تصويرها ببشرة سمراء للتعبير عن الخصوبة والبعث؛ ولذا نراها مصوَّرة في مقابر الأفراد بسبب أنها أصبحت إلهة لبعث الموتى فوُصفت بأنها «سيدة السماء»، و«سيدة الغرب»، حيث يرقد الأموات على أمل البعث مع شروق الشمس في الشرق حيث يسكن الأحياء.

كانت الملكة أحمس-نفرتاري ملكة عظيمة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، كزوجة وأم وإلهة ووصية على العرش وموجِّهة لاختيار حاكم مصر الجديد بعد رحيل ولدها دون وريث. فدخلت بجدارة واستحقاق ضمن سجل الخالدات من ملكات مصر العظيمات.

الملك تحتمس الأول

تحتمس الأول هو المهندس المعماري للإمبراطورية المصرية العظيمة في الشرق الأدنى القديم. تولى الحكم في الأربعينيات من عمره، وبدأ عصر إرسال الجيوش إلى خارج الحدود على نطاق واسع؛ وبذلك يكون هو أول من خطا بمصر بخطوات كبيرة في سبيل تكوين الإمبراطورية وعمل على بسط نفوذ وسيادة الدولة المصرية إلى أقاصي الشمال والجنوب، وكان ذا صفات تشهد له بالكفاءة العسكرية والرؤية الاستراتيجية والميل الكبير لأعمال البطولة والبسالة في الحرب ومواصلة كفاح من سبقوه من ملوك مصر في الدفاع عن مصر وتوسيع حدودها إلى أقصى ما تسقط عليه أشعة الشمس في الشرق الأدنى القديم، وكان ذلك الملك ميالاً للتعمير والأعمال السلمية والنهضة بالدولة والدفع بها إلى أقصى غايات التنمية والازدهار.

ولا نعلم إن كان ابنًا لأمنحتب الأول من إحدى زوجاته الثانويات (سن سنب)، أم كان ابنًا لأحمس الأول من زوجته أحمس نفرتاري، أم كان أحد أقرباء أمنحتب الأول البعيدين. والمؤكد هو استيلاؤه على العرش ثم زواجه من أحمس ربما ابنة أحمس الأول وأخت أمنحتب الأول، أو ربما أخته، ليصبغ الشرعية على حكمه.

وبمجرد تولّيه الحكم، نقش موظفوه مرسوم تتويجه في وادي حلفا وغيرها من مناطق النوبة، وظهرت أحمس نفرتاري في نقش وادي حلفا، وكان لها دور كبير في توليه الحكم بعد ابنها أمنحتب الأول، ويعكس هذا رضاءها عنه، وتقديره لها.



رأس الملك تحتمس الأول في المتحف المصري بتورينو بإيطاليا

على الفور قام الملك بحملة برية نهرية في العام الثاني من حُكمِه لردع النوبيين بعد أن قاموا بالقلاقل والاضطرابات وتهديد حدوده الجنوبية، وقام بمعاقبة الثوار، وتم تطهير القناة التي شقها سنوسرت الثالث في الجندل الأول من الطمي الذي تجمع بها نتيجة الاهمال. وتم

هزيمة النوبيين، وترك الملك لوحة عند تومبوس بالجندل الثالث ذكر فيها أنه المهيمن على الأراضي الفسيحة الممتدة من تومبوس جنوبًا إلى الفرات شمالاً. وبنى قلعة هناك، ما تزال آثارها باقية. وعاد الفرعون عن طريق قناة سنوسرت بعد أن قتل أعداءه في العام الثالث من حكمه. وطغت الحضارة المصرية على الحضارة المحلية في تلك البلاد. وتم تمصير بلاد النوبة، وسيطرت مصر على النوبة لمدة ٥٠٠ عام قادمة بلا أدنى قلاقل.

وقام الملك بالحرب في سوريا. ولم تقابل الجيوش المصرية أية صعوبات في قادش ووصلت إلى نهارين (دولة ميتاني) بين الفرات والعاصي. ومن العبارات الجميلة إطلاق نصوصنا تعبير «النهر ذي المياه المعكوسة» على الفرات؛ لأنه يجري من شمال جنوب على عكس النيل الذي ينبع جنوبًا ليصب شمالاً. وترك لوحة عند قرقميش، ذاكرًا كيف وصلت حدوده في آسيا الصغرى إلى ضفة الفرات. وانتصرت مصر، وعاد جيشها بطوائف كثيرة من الأسرى وغنائم الحرب، وقام بحملة على الليبيين وقاتلهم حتى شردهم.

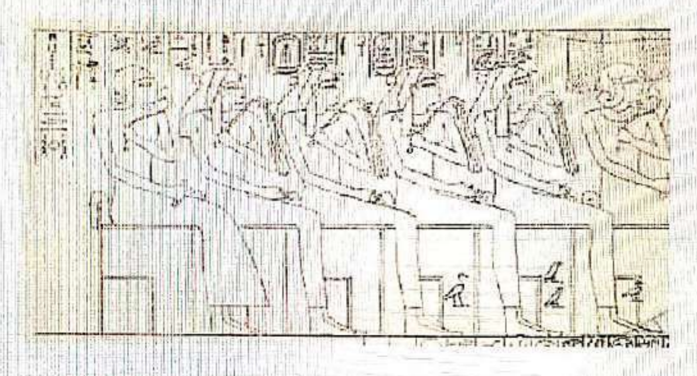
تحتمس الأول هو الذي مد حدود مصر من قرن الأرض جنوبًا إلى أطراف المياه المعكوسة شمالاً ليكون بامتياز هو المهندس المعماري الأول للإمبراطورية المصرية في الشرق الأدنى القديم.

الملكة أحمس

تعد أفضال مصر القديمة على العالم كثيرة، ولا تعد ولا تحصى. غير أن أهمها، في رأيي، هو سبق مصر العالم بمعرفة الكتابة والتدوين، فلولا الكتابة التي اخترعتها مصر القديمة، وليس العراق القديم، ما عرفنا شيئًا عن تاريخ مصر القديمة، ومن ثم تاريخ الإنسانية، وهذه الملكات العظيمات. فبفضل المحبرة والإزميل والقلم والفرشاة للكتابة والرسم والنقش على البردي وكسرات الفخار والأحجار وغيرها من مواد مناسبة، حفظت لنا مصر القديمة الجزء الأهم في تاريخ البشرية في مرحلة تأسيس الحضارة بعد سنوات طوال من الاستغراق في عصور ما قبل التاريخ السحيقة، دون تدوين أو كتابة تُذكر.

وكانت الملكة أحمس زوجة الفرعون مهندس ومؤسس الإمبراطورية المصرية الفسيحة في جنوب غرب أسيا وفي أعماق أفريقيا. ومن المعروف أن الملك تحتمس الأول لم يكن ينتمي للبيت المالك الذي كان منه الملك أحمس الأول وولده الملك أمنحتب الأول، وربما كان هناك ما يربطه نوعًا ما بالملك أمنحتب الأول، غير أن تاريخ عائلة الملك تحتمس الأول غامض لدينا بشكل لا يسمح لنا بتقصي أصوله؛ فليس لدينا ذكر لوالده. وعادة فإن الملوك الذين كانوا ينحدرون من أصول غير معلومة كانوا لا يهتمون كثيرًا بذكر أصولهم المتواضعة. ومن اللافت للنظر أنه أعطى أمه لقب «أم الملك»، وليس لقب «ابنة الملك»، أو «زوجة الملك»، مما يؤكد على تواضع أصلها كأبيه أيضًا. وعُرفت أمه باسم «سي ني سنب»، والذي على الرغم من أنه كان اسمًا شائعًا في عصر الأسرة الثامنة عشرة، لم نتمكن من معرفة والديها. غير أن هذا ليس شرطًا على تواضع عطاء هذا الملك العظيم. فهذا الملك على الرغم من عدم انحداره من أصل ملكي، فإنه أنجز ما لم ينجزه ملوك كثر كانوا من أبناء الملوك أبًا عن جد.

وكما كان من الصعب معرفة والدي زوجها الملك تحتمس الأول، كان من الصعب علينا أيضًا معرفة والدي زوجته الملكية الكبرى الملكة أحمس؛ نظرًا لأن اسميهما ليسا مسجلين في أي مكان، وأن اسم «أحمس» كان اسمًا شائعًا بين رجال ونساء الأسرة الثامنة عشرة على حد سواء، وفي مصر القديمة في تلك الأسرة عمومًا. ويعني اسمها «وُلد القمر».



(الملكة أحمس جالسة في الوسط مع عدد من نساء البيت المالك)

من المرجح أن الملكة أحمس كانت ربما ابنة للملك أمنحتب الأول، أو ابنة لوالده الملك أحمس الأول وزوجته الكبرى الملكة أحمس-نفرتاري، وفي هذه الحالة فإن الملكة أحمس تكون أختًا شقيقة للملك أمنحتب الأول. ويُعدّ هذا الطرح مقبولاً لدينا نوعًا ما؛ نظرًا لأن الملك تحتمس الأول، الوافد إلى حكم مصر من أصل غير ملكي والذي لم يكن ينتمي لعائلة الملك أحمس الأول وابنه أمنحتب الأول، كان لا بُدّ له من أن يجد صلة ما تربطه بالبيت المالك السابق حتى يستمد شرعيته وأحقيته في حكم مصر من خلال الزواج من أميرة من البيت المالك، وأعني زوجته الملكة أحمس التي كان في اسمها ما يدل على ارتباطها بالبيت المالك الذي أسسه الملك أحمس الأول.

غير أنه من الملاحظ أن الملكة أحمس حملَت لقب «أخت الملك» وليس «ابنة الملك» الذي كان من المفترض أن تحمله لو كانت ذات دمٍ مَلَكي.

وربما كانت أختًا أو أختًا غير شقيقة لزوجها الملك تحتمس الأول. ولم يكن الزواج بين الأخ والأخت شائعًا في مصر القديمة إلا بين أفراد البيت المالك في ذلك الوقت من أجل الحفاظ على تتابع خط الملوك المصريين من نفس الأسرة على عرش مصر. وربما حدث هذا الزواج بين الأخ تحتمس والأخت أحمس بعد أن أصبح تحتمس (الأول) وريث عرش الملك أمنحتب الأول.

غير أن أهم ما نتج عن هذا الزواج المبارك هو إنجاب ابنتين هما نفرو بيتي (أو «اخبت نفرو») و(الملكة الفرعونة لاحقًا) حتشبسوت، ملكتنا الفذة التي طبقت شهرتها الآفاق في جميع أنحاء العالم. ومن الجدير بالذكر أن نفروبيتي ظهرت على أحد جدران معبد أختها الملكة حتشبسوت المعروف بمعبد الدير البحري في البر الغربي لمدينة الأقصر. وبعد ذلك تُسدل ستائر النسيان على ذِكر الأميرة نفروبيتي؛ وذلك ربما لموتها في سن مبكرة.

تبقي الملكة أحمس في خلفية الأحداث أثناء فترة حكم زوجها الملك تحتمس الأول، غير أنها تقفز إلى مقدمة الأحداث في عهد ابنتها، الملكة الفرعونة، حتشبسوت التي نسجت قصة مثيرة ادعت فيها أن الإله آمون عاشر أمها الملكة أحمس معاشرة الأزواج وأنجب منها الطفلة حتشبسوت. وقامت الملكة حتشبسوت باختلاق تلك الدعاية السياسية أو ما يعرف لدينا بـ «قصة الولادة الإلهية» وتوثيقها بالصورة والنصوص على جدران معبد الدير البحري الخاص بها كي تكتسب شرعيتها في حكم البلاد بصفتها امرأة، تنتمي إلى الدم الملكي، وتريد تدعيم حكمها في أعين الشعب من خلال الادعاء بأنها من نَسل الآلهة ومن رب أرباب العصر، الإله آمون، رب طيبة والدولة الحديثة الأشهر بلا منازع.

كانت الملكة أحمس محطة مهمة كي تهدينا الملكة المصرية القديمة الأشهر، الفرعونة الأجمل والأذكى الملكة حتشبسوت، التي شغلت العالم وملأت الدنيا جميعًا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

- الملك تحتمس الثاني

تحتمس الثاني هو ابن تحتمس الأول من زوجته الثانوية «موت نفرت»، وهو الابن الوحيد الذي عاش لأبيه، وتزوج من أخته الملكة الأشهر حتشبسوت.

نشأ الخلاف بينه وبين زوجته القوية حتشبسوت؛ نظرًا للفارق الكبير بينهما ولسوء حالته الصحية ولضعف شخصيته، ولقوة شخصية حتشبسوت وطموحها الكبير نحو تولّي حكم البلاد منفردة؛ فجعلت من وجوده رمزيًا.

نتيجة ذلك الخلاف بينهما، انقسمت البلاد إلى حزبين. وسادت الدسائس والمؤامرات، وتحيَّن النوبيون الفرصة وخرجوا عن السيطرة المصرية من العام الأول من حكمه، وكانت هذه هي عادتهم في إشعال الثورة واستغلال فرصة انتقال الحكم من ملك لآخر، واختبار قدرة الفرعون الجديد على السيطرة عليهم.

على الفور أرسل تحتمس الثاني جيشًا إلى النوبة ليس بقيادته، فهزم الثوار، وأعاد الأمور إلى نصابها الطبيعي، وتم تسجيل هذا الحدث على لوحة تذكارية تمت إقامتها بين أسوان وفيلة. وجاء عليها ما يلي:

-لما علم جلالته بذلك، ثار الفهد، وأقسم إنه لن يترك أيَّ رجلٍ من أولئك حيًا.

أغلب الظن أن نشاطات تحتمس الثاني امتدت إلى منطقة الجندل الرابع في بلاد النوبة بسبب وجود اسمه مسجلًا على صخرة في منطقة جبل برقل هناك، وربما لا يعني هذا قيامه بحدث عسكري في تلك المنطقة.

ذكرَ الموظف الشهير أحمس ابن تخبت في سيرته الذاتية المعروفة أنه خاض حربًا في عهد تحتمس الثاني، وقام فيها بضرب البدو الشاسو الذين كانوا يعيشون على حدود فلسطين، وكذلك ليس بقيادة الملك. وتم العثور في منطقة الدير البحري على نقوش من عهد تحتمس الثاني تشير إلى إشارات غامضة لحملات قام بها في بعض الأماكن في سوريا. وربما استغلت بعض القبائل المقيمة في صحراوات مصر الغربية فرصة الخلاف بين الملك والملكة على عرش البلاد، فقامت بالثورة وشق عصا الطاعة، مما دفع الملك إلى إرسال حملة حربية للسيطرة عليهم وذلك وفقًا لنص تم تسجيل اسم الفرعون عليه في واحة الفرافرة في مواجهة أسيوط في مصر الوسطى. وفي المجمل الأعم، لم تكن جهود تحتمس الثاني الحربية بنفس القوة والعظمة كسابقيه من ملوك مصر المحاربين العظام الذين قاموا بذلك قبله.



الملك تحتمس الثاني في معابد الكرنك بمدينة الأقصر في جنوب مصر

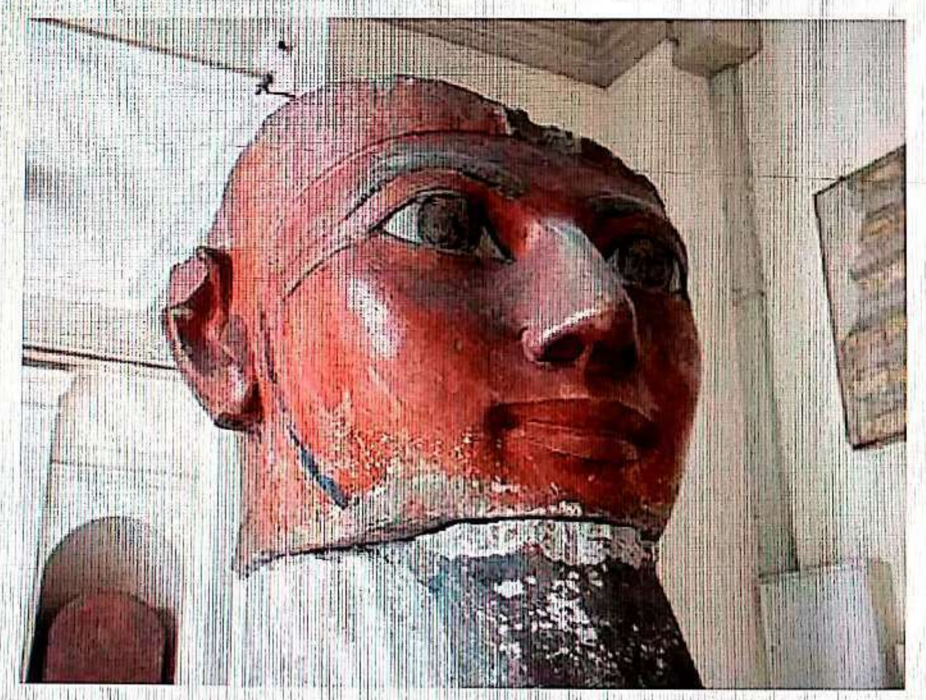
لا نعرف إن كان تحتمس الثاني مات ميتة طبيعية أم لا. وبفحص مومياء ذلك الملك، تبيَّن أنه كان طويلاً، غير قوي البنية، وكان أصلع الرأس، ووسيمًا، ومتأنقًا.

أنجبت له زوجته الأساسية حتشبسوت الأميرتين نفرو رع وميريت رع حتشبسوت، وتزوج أيضًا تحتمس الثاني من زوجات ثانوية مثل إيزيس التي أنجبت له، ابنه، فرعون الحرب والتوسعات الملك الأعظم تحتمس الثالث سيد المحاربين وأعظم ملوك مصر والشرق الأدنى القديم.

تحتمس الثاني حلقة وصل مهمة بين والده تحتمس الأول وولده تحتمس الثالث، هدية مصر للعالم، والذي أعاد لمصر مجدها الذهبي، والذي أنشأ أعظم وأقوى إمبراطورية في العالم القديم.

الملكة حتشبسوت

تعتبر الملكة حتشبسوت من أشهر وأقوى ملكات الفراعنة، وكانت حياة تلك الملكة الشهيرة مثيرة، وكان موتها وسر اختفائها من مسرح الأحداث أكثر إثارة. وتأتي البداية حين تزوج الملك تحتمس الثاني من أخته غير الشقيقة حتشبسوت، ابنة الملك تحتمس الأول والملكة أحمس، وأخت الملك وزوجة الملك الكبرى، وورثت حتشبسوت منصب «زوجة الإله آمون» من ميريت آمون، واستخدمته كلقبها المفضل، وبدأت ملكة مصر الجديدة بناء مقبرة لها في منطقة بعيدة في طيبة الغربية، ثم تركتها إلى مقبرة جديدة في وادي الملوك، الخاص بدفن الملوك من الرجال، تحمل رقم ٢٠.



الملكة الجميلة والقوية حتشبسوت

أنجبت حتشبسوت من أخيها الملك تحتمس الثاني ابنتها الشهيرة الأميرة نفرو رع، والأميرة ميريت رع حتشبسوت، دون وريث ذكر. ومات ذلك الملك، بعد حوالي ثلاثة عشر عامًا في الحكم، فذهب الحكم إلى ولده الأمير تحتمس الثالث، الذي كان ابنًا لذلك الملك من إحدى نسائه من الحريم الملكي، السيدة إيزيس. ونظرًا لأن تحتمس الثالث كان طفلاً وكانت أمه إيزيس غير مؤهلة للوصاية عليه؛ لأنها ليست من الدم الملكي، قامت الملكة الطموح والقوية

حتشبسوت بالوصاية على ابن زوجها الأمير الصغير لفترة ما.

ثم داعبها طموحها وبريق السلطة وروعة العرش وإغراء الحكم، فتصرفت كأنها مَلِك ذَكَر، وتم ذكرها في النصوص وتصويرها في المناظر في هيئة الملوك الرجال، وأخذت لقبًا جديدًا هو «سيدة الأرضين»، الذي كان مساويًا للقب الملك المصري التقليدي «سيد الأرضين». وقامت بتشييد مسلتين أمام بوابة الكرنك، وأصبحت ملكة، ونقشت ألقابها الجديدة بفخر على آثارها. حدث ذلك في العام السابع من حكمها، واتخذت الألقاب الملكية الخمسة التي كان يتخذها الملوك لأنفسهم.

اسمها الكامل هو «غنمت-آمون حتشبسوت» ويعني «المتحدة مع آمون، أفضل النساء». ولم تنسَ الملك تحتمس الثالث، واعتبرته كحاكم مشارك معها، وتم التأريخ بسنوات حكمهما معًا ابتداءً من العام الأول لتوليه العرش، غير أن حتشبسوت كانت هي فقط ملك مصر المسيطر. ونحو نهاية حياتها، حصل تحتمس الثالث على مكانة مساوية لها.

من الأشياء المشهورة من فترة حكم الملكة حتشبسوت قصة «الولادة الإلهية» التي سجلتها على جدران معبدها الشهير بالدير البحري بالبر الغربي للأقصر. وخلاصة هذه القصة المثيرة هو أن الملكة حتشبسوت ادعت أنها ابنة الإله آمون، رب طيبة والدولة الحديثة، وأن هذا الإله أعجب بأمها الملكة أحمس، وعاشرها معاشرة الأزواج، وأنجب منها الملكة حتشبسوت كي تكون الوريث الشرعي لحكم البلاد. وتم تمثيل الملكة أحمس في شكل الربة «موت»، زوجة الإله آمون، وتم تصوير الإله آمون في صورة زوجها البشري، الملك تحتمس الأول، والد حتشبسوت. وأجمل ما في هذه القصة هو زقي المصري القديم في تصوير اللقاء الحميم بين الإله والملكة، فتم تصوير الإله يلامس الملكة باليد كناية عن التواصل الجسدي بينهما دون التعبير الصريح عن ممارسة الحب بينهما. وحملت الملكة أحمس في طفلتها الجميلة التي قام الرب الخالق، خنوم، بتشكيلها على عجلة الفخراني، وفقًا للديانة المصرية القديمة، وتختم القصة أحداثها بأن الأب تحتمس الأول رحّب بإرادة الإله آمون وأعلن على الشعب أن طفلته حتشبسوت شريكته في الحكم، وأوصى بأن تتولى الحكم من بعده.

عهدت الملكة حتشبسوت بتربية ابنتها، الأميرة نفرورع، إلى رجل البلاط أحمس بن نخبت ثم إلى مستشارها الشهير سننموت. ولعبت تلك الأميرة دورًا كبيرًا في الحياة العامة في عهد أمها، واتخذت العديد من الألقاب، كان من بين أهمها لقب «زوجة الإله آمون». غير أن تلك الأميرة اختفت من المشهد تمامًا في نهاية عهد أمها، وماتت، ودُفنت في مقبرة مجاورة للمقبرة الأولى التي بنتها أمها في تلك المنطقة البعيدة في البَر الغربي للأقصر.

يُعَدّ الموظف سننموت من أهم الشخصيات التي عاشت في عهد تلك الملكة، وكان من أقوى

رجال بلاطها والمستشار الخاص بالملكة والمشرف على تشييد معبدها الشهير في الدير البحري بالبر الغربي للأقصر. ونظرًا للدور الكبير الذي لعبه ذلك النبيل والثقة الكاملة التي أعطته له الملكة، ادعى البعض وجود علاقة عاطفية بين الملكة حتشبسوت ورجل بلاطها الأمين سننموت، غير أن هذا مجرد تخمينات وشائعات ولا يوجد ما يؤيدها من دلائل أثرية.

تميزت سياستها الخارجية بالتجديد، وقامت بإرسال رحلة مصرية بحرية إلى بلاد بونت الواقعة إلى الجنوب من البحر الأحمر، وتم تصوير تلك الرحلة بكل معالمها وتفاصيلها وطبيعة هذا البلد على جدران معبدها بالدير البحري الذي يعتبر واحدًا من أروع النماذج المعمارية والفنية من مصر القديمة. فضلاً عن هذا المعبد، قامت الملكة بتنفيذ برنامج معماري ضخم.

تُعَدّ نهاية حكم حتشبسوت من الأشياء الغامضة في تاريخ تلك الملكة الظاهرة. ولفترة قريبة لم نكن نعرف كيف انتهت حياتها، ولماذا تم محو صورها وأسمائها من على آثارها حتى جاءت الأبحاث العلمية الحديثة التي قام بها فريق المشروع المصري لدراسة المومياوات الملكية على مومياء الملكة حتشبسوت وآثار فترة حكمها. ومن خلال دراسة ضرس وُجد داخل صندوق أحشاء الملكة في خبيئة المومياوات في الدير البحري، وكل أسنان المومياوات وفحصها بالأشعة، اتضح وجود جزء في أعلى فك المومياء التي تم نقلها للمقبرة رقم ٦٠ بوادي الملوك من مقبرة الملكة رقم ٢٠ بوادي الملوك، وأن ذلك الضرس كان يخص تلك المومياء. وتأكد لفريق المشروع المصري لدراسة المومياوات الملكية أن تلك المومياء الموجودة في المقبرة رقم ٦٠ هي مومياء الملكة حتشبسوت، وأثبتت الأشعة المقطعية أن الملكة حتشبسوت ماتت في سن ٥٠ عامًا، وأنها كانت ممتلئة الجسم، وأنها كانت تعاني من مرض السكر، وماتت بسبب السرطان.

واتضح أن كهنة الأسرتين الواحدة والعشرين والثانية والعشرين قاموا بنقل محتويات مقبرة الملكة حتشبسوت رقم ٢٠ إلى المقبرة رقم ٦٠ الخاصة بمرضعة حتشبسوت. وهكذا فإن تحتمس الثالث لم يقتل عمته وزوجة أبيه حتشبسوت. وربما تم التدمير الذي حدث لآثار تلك الملكة في آخر عهد ابن زوجها تحتمس الثالث وأول عهد ابنه أمنحتب الثاني، لأسباب تتعلق بنظرة الشعب المصري القديم لتولي امرأة حكم مصر.

في النهاية، أقول إن الملكة الجميلة حتشبسوت هي سيدة القلوب وعظيمة العظيمات، وجميلة الجميلات، وأفضل النساء، والمرأة القوية التي هزت الدنيا وغيرت الرياح في اتجاهها، وجعلت الجميع يحنون إجلالاً وتعظيمًا لمصر ولتلك المرأة التي خبلت الجميع بجمالها، وسحرها، وقوة شخصيتها وذكائها وثراء الأحداث في فترة حكمها اللافت للنظر بقوة في تاريخ مصر القديمة العظيمة قاطبة. فتحيةُ حُبٍّ وتقدير لحتشبسوت على الرغم

الملك تحتمس الثالث

كانت مصر القديمة في موعد مع القدر كي يمن عليها بإنجاب أعظم الفراعنة المحاربين وأعظم ملك مصري على الإطلاق، الملك تحتمس الثالث، فرعون المجد والانتصار وسيد الملوك المحاربين والعسكريين الاستراتيجيين، ومكمل الإمبراطورية المصرية في العالم القديم متخذًا من جده الملك المؤسس تحتمس الأول قدوة ومثلاً أعلى.

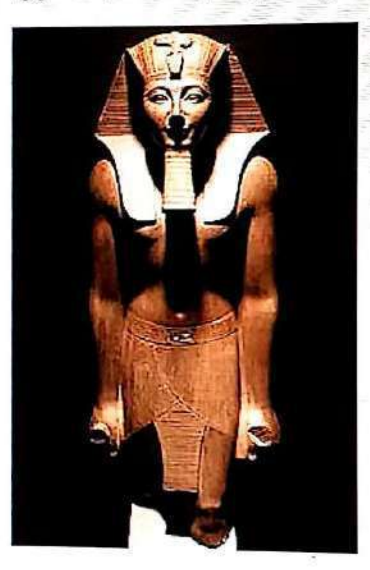
كما تقدم، كان أبوه هو الملك تحتمس الثاني الذي مات وترك الفرعون الذكر وولي العهد الأمير تحتمس وحيدًا تحت وصية عمته وزوجته أبيه الملك الشهيرة حتشبسوت التي داعبها سحر السلطة وأغوتها لذة الحكم، فاغتصبت الحكم من الملك الصغير، وأبعدته إلى رحابة الظل.

ظلَّ تحتمس الثالث في الظل فترة طويلة إلى أن تمَّ غياب أو أقصاء الملكة حتشبسوت عن المشهد السياسي في البلاد، وخرج الأسد من عرينه لتظهر لنا شخصية الملك تحتمس الثالث الأسطورية مسجلاً مجد وفخر مصر العسكري المدوَّن بأحرف من نور وإعزاز في كل كليات وأكاديميات العالم العسكرية.

تزوج تحتمس الثالث من أخته غير الشقيقة الأميرة نفرو رع، ابنة حتشبسوت وأبيه تحتمس الثاني، وماتت قبل العام الحادي عشر من حكمه، وعندما تولى الحكم، تزوج من حتشبسوت ميريت رع التي صارت زوجته الأساسية والتي أنجبت له ولي عهده الملك أمنحتب الثاني، بينما كان تحتمس الثالث في الظل، استثمر وقته في تعلُّم فنون القتال وأصول الحرب مما جعل منه قائدًا عسكريًا فذًا قلَّما يتكرر أو يجود الزمان بمثله في أرض المعارك.

استغل البعض من أمراء ممالك بلاد الشام فترة حكم حتشبسوت وانفصلوا عن الإمبراطورية المصرية وعقدوا تحالفات مع مملكة ميتاني القوية. وفي العام الثاني من حكمه المستقل عن حتشبسوت (حوالي العام ٢٣ من حكمهما المشترك)، قام الملك الشجاع تحتمس الثالث ببدء حملاته العسكرية في بلاد الشرق الأدنى القديم. ونعلم عن حملات هذا الملك الحربية من خلال حولياته التي قام بتسجيلها أحد قواده على جدران الكرنك. وتذكر الحوليات أن الملك انتصر في كل بلدٍ حارب فيه. ولم يقم تحتمس الثالث بحروبه كي يخلد اسمه فقط، وإنما أيضًا كي يمجد من اسم ربه الأعلى المعبود آمون رع سيد طيبة ورب الدولة الحديثة الذي كان يحارب تحت رايته ويجلب خيرات تلك البلدان إلى معبده وكهنته الذين كانوا يباركون الابن البار بأبيه آمون رع الملك المحارب العظيم تحتمس الثالث. وكانت الحملة العسكرية عبارة عن خطة رائعة وقوية الإحكام والتنفيذ. فنراه يزحف نحو غزة في عشرة أيام ويحتل المدينة ويأخذ طريقه إلى مجدو التي تمردت على حكمه بقيادة أمير قادش. وكانت هناك

مشكلة في اختيار الطريق المناسب الذي على القوات أن تسلكه إلى مجدو؛ فكان هناك طريقان معتادان غير أن تحتمس الثالث اختار الطريق غير المتوقَّع والضيق والأشد خطورة ووعورة حتى يُحدِث المفاجأة للعدو ويقضي عليه. وكان النصر العظيم حليفَ الفرعون المحارب تحتمس الثالث بعد أن حاصر المدينة لمدة سبعة أشهر.



(تمثال الملك تحتمس الثالث سيد الملوك المحاربين في مصر القديمة)

كان يخرج على رأس جيشه محاربًا في سوريا كل صيف لمدة ١٨ عامًا، وكان يستخدم القوات البحرية المصرية لنقل القوات المصرية إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، واحتل قادش في العام ٤٢ من حكمه، ودانت أكثر من ٣٥٠ مدينة بالولاء لحكم مصر في بلاد الشام، وقام بحوالي ١٧ حملة عسكرية في غرب آسيا، وقام بحملات في بلاد النوبة، وأقام بها عددًا من المعابد وساهم في تمصيرها بشكل كبير، وأطلقَ عليه عالم الآثار الأمريكي الشهير جيمس هنري بريستد «نابليون مصر القديمة»، غير أن هذه التسمية غير موفقة؛ لأن تحتمس الثالث لم يُهزم في أي معركة قام بها؛ كما أن إمبراطوريته المترامية الأطراف استمرت بعد وفاته في أسرته لفترة طويلة.

تحتمس الثالث فرعون لم تنجب مصر الفرعونية مثله على الإطلاق. وكل شيء قام به كان من أجل بلده مصر العظيمة وأبناء وطنه المصريين العظام مما جعل منها سيدة العالم القديم حقًا وصدقًا، ومن تحتمس الثالث أسطورة خالدة نفخر بها دومًا وأبدًا.

الملك أمنحتب الثاني

يعتبر الملك أمنحتب الثاني من أشهر فراعنة الدولة الحديثة المحاربين، وعُرفَ باسم «الملك الرياضي». وورث إمبراطورية كبيرة عن والده سيد ملوك مصر المحاربين الفرعون الأشهر الملك تحتمس الثالث، وقام بحملات عسكرية قليلة في سوريا. وحارب أقل من والده العظيم الملك تحتمس الثالث.

وعُرف عن الملك أمنحتب الثاني أنه كان محبًا للغاية للألعاب الرياضية؛ فكان الملك رياضيًا قوي البنيان، وكان يجيد ركوب الخيل والتعامل معها. وكان من ضمن هواياته الذهاب إلى الحرب على اعتبار أنها رياضة مسلية كما كان يراها. وبفحص مومياء الملك أمنحتب الثاني، اتضح لنا أنه كان بحق مفتول العضلات وكان قوي الساعد. وكانت رياضة الرماية هي هواية العمر التي واظب على ممارستها الملك أمنحتب الثاني. وعثرنا على لوحة من الجرانيت في الكرنك تصف مهارة الملك أمنحتب الثاني في كيفية استخدام القوس، حيث أنه نجح في استخدام سهامه كي تصيب هدفًا من النحاس بشمك ٦ سنتيمترات لأربع عشرة مرة متتالية. وهذا أمرٌ مذهل للغاية. وكان له مدرب ملكي للرماية من ضمن صفوف جيش الملك تحتمس الثالث العظيم.

وحاول الفرعون الرياضي أمنحتب الثاني الاحتفاظ بالإمبراطورية الآسيوية التي امتلكها عن والده الملك تحتمس الثالث العظيم وذلك باستخدام القسوة في سحق أي تمرُّد قد يبدر ضده؛ فنراه في السنة الثالثة من حكمه يرسل حملة إلى شمال سوريا، وكانت تلك أولى الحروب التي شنها على آسيا. ووجدنا نقوشًا في عمدا وإلفنتين وفي أرمنت، يفخر فيها الملك الرياضي أمنحتب الثاني بقتله سبعة أمراء من شمال سوريا. وقاد في العام السابع من حكمه حملة إلى فلسطين فأخضع أمراءها، ثم استولى عليها في مدة قصيرة، ثم عبر النهر، ثم استولى على العديد من البلدان والقرى.



تمثال أمنحتب الثاني وهو يقدم القرابين إلى الآلهة بمتحف الفنون الجميلة

بيوسطن في أمريكا.

ثم اتجه بعدها إلى مدينة قادش المعروفة التي ما إن علم أهلها بوجوده حتى ذهبوا يقدمون له يمين الولاء والطاعة، وبعد ذلك اتجه الفرعون الرياضي إلى فينيقيا وعاد منها بغنائم كثيرة لمصر العظيمة. وفي العام التاسع من حكمه، أرسل حملة ثانية إلى شمال فلسطين لإخماد ثورة قامت فيها، فهزم أهلها هزيمة نكراء، وأخذ منهم أسرى يقدر عددهم بتسعين ألف أسير، ووصل بجيشه إلى نهر الفرات ببلاد النهرين (العراق حاليًا). ونتيجة لانتصاراته المدوية، أسرع إليه أمراء آسيا محمّلين بالهدايا ومقدّمين إلى جلالة الفرعون الرياضي فروض الولاء والطاعة. وبعد العام التاسع من حكمه، توجّه الملك أمنحتب الثاني إلى الاهتمام بشؤون البلاد الداخلية بعد أن شعر بالرضا عن إنجازاته الحربية التي جلبت له الاستقرار

والراحة والأمان في أرجاء الإمبراطورية المصرية الفسيحة.

توفى الملك أمنحتب الثاني بعد أن حكمَ مصر لمدة ٢٥ سنة، ودُفن في مقبرة بوادي الملوك وهي المقبرة رقم ٣٥. وقد تم نحت تلك المقبرة في الصخر وتم تزيينها بصور مجموعة كتب العالم الآخر، وقد اكتشف تلك المقبرة فيكتور لوريه في عام ١٨٩٨ ميلادية. ولعلَّ أهمية تلك المقبرة ترجع إلى أنه في إحدى الحجرات الجانبية في تلك المقبرة، تم اكتشاف خبيئة لمومياوات الفراعنة وعثر بها على ١٢ مومياء معظمها لملوك نقلوا إلى مقبرته منهم ابنه تحتمس الرابع، وحفيده أمنحتب الثالث وزوجة الأخير الملكة تي، والملوك سبتاح ومرنبتاح ورمسيس الرابع والخامس والسادس وسيتي الثاني وست نخت، بالإضافة إلى صاحب المقبرة الذي وجد داخل تابوته وحول عنقه أكليل من الزهور.

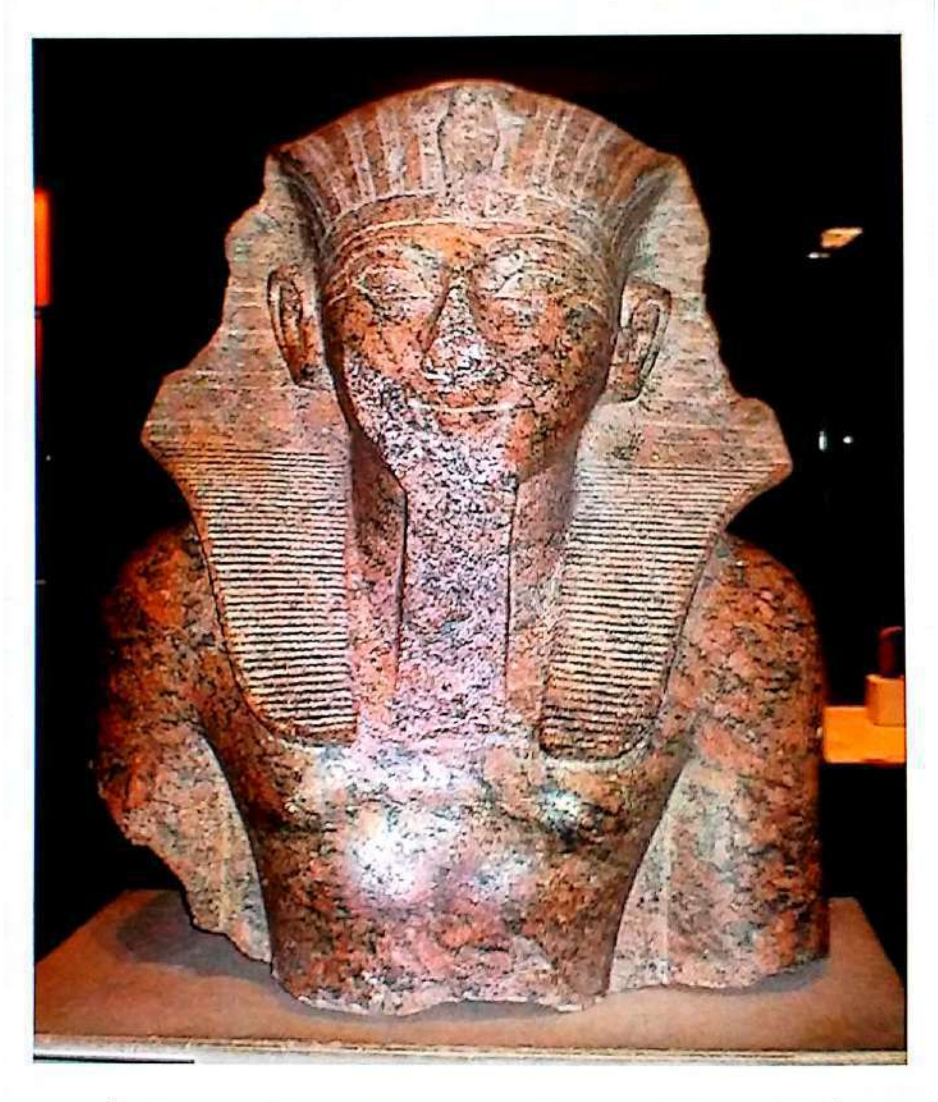
ذلك هو الفرعون الرياضي العظيم الملك أمنحتب الثاني خليفة أبيه العظيم تحتمس الثاني الذي حافظ على عرش مصر وإمبراطوريتها العظيمة في الشرق الأدنى القديم.

- الملك تحتمس الرابع

تحتمس الرابع هو ابن الملك الرياضي أمنحتب الثاني، وكان للملك أمنحتب الثاني أبناء عدة يتسابقون لخلافة والدهم الفرعون الرياضي. وكان من بين حيل وصول الملك تحتمس الرابع للحكم أنه أدعى أنه رأى الإله رع في نومه. وتفاصيل هذا الحلم منقوشة على لوحة الحلم بين مخلبي تمثال «أبو الهول» الشهير في هضبة الجيزة. ويذكُر النص أن «أبو الهول» تحدّث إلى الأمير تحتمس وأخبره أنه إذا قام بإزالة الرمال المتراكمة على تمثاله وحافظ عليه مما يطمسه عن الأعين فإنه سيجعل منه حاكم مصر القادم. وتعتبر هذه اللوحة دليلاً على أن تحتمس الرابع لم يكن الوريث الشرعي لعرش مصر، وأنه كان يتنافس مع إخوته على عرش مصر، وأنهم كانوا عقبةً في سبيل تولّيه العرش مما جعله يختلق قصة الحلم كنوع من أنواع الدعاية السياسية له كي يتحايل كي يستولي على عرش البلاد دون حقٍّ شرعيٍّ قويٍّ، وقد أزال بالفعل الرمال عن تمثال «أبو الهول» العظيم، وأقام حوله سورًا ما تزال آثاره باقية إلى الآن.

وبعد تولّي الفرعون تحتمس الرابع حُكمَ مصر، قام بحملة عسكرية على شمال سوريا، وانتصر فيها، وأخمد كل الثورات التي قامت فيها ضد مصر، وعاد من هذه الحملة بالغنائم الكثيرة لمصر العظيمة، وعاد عن طريق لبنان التي أخذ منها كمًا كبيرًا من أخشاب الأرز لبناء سفينة الإله آمون المقدسة، وتم ذِكر قصة الأخشاب تلك على مسلة توجد في روما. وشهدت علاقاته مع سوريا تغيرات كبيرة نتجت عن التحالف السلمي بين المصريين وأهل مملكة ميتاني الشهيرة، وتم تتويج الأمر بالزواج الملكي الدبلوماسي بين تحتمس الرابع وابنة ملك ميتاني. وقام الملك تحتمس الرابع بحملة ثانية على بلاد النوبة حيث قامت ثورة هناك، واستطاع هزيمة أعدائه وعاد بالكثير من الأسرى والغنائم.

قام تحتمس الرابع في معابد الكرنك بتصوير نفسه في مناظر ونقوش يقدم القرابين لربه المعبود آمون بعد عودته من حملته الأولى ببلاد آسيا.



(تمثال نصفي للملك تحتمس الرابع في متحف اللوفر في باريس في فرنسا)

استمر تحتمس الرابع في الحكم حوالي تسعة أعوام، وتوفى بعدها، ودُفنَ في مقبرته في وادي الملوك رقم ٤٣، وتعرضت المقبرة للنهب، ولكن وُجدت فيها عدة قطع أثاث وعربة حربية.

الفرعون تحتمس الرابع فرعون مجد العسكرية المصرية وأعلى من شأنها وزواج بين العمل العسكري والزواج الدبلوماسي من الشرق الأدنى القديم؛ كي يحفظ لمصر عظمتها ومجدها التليد.

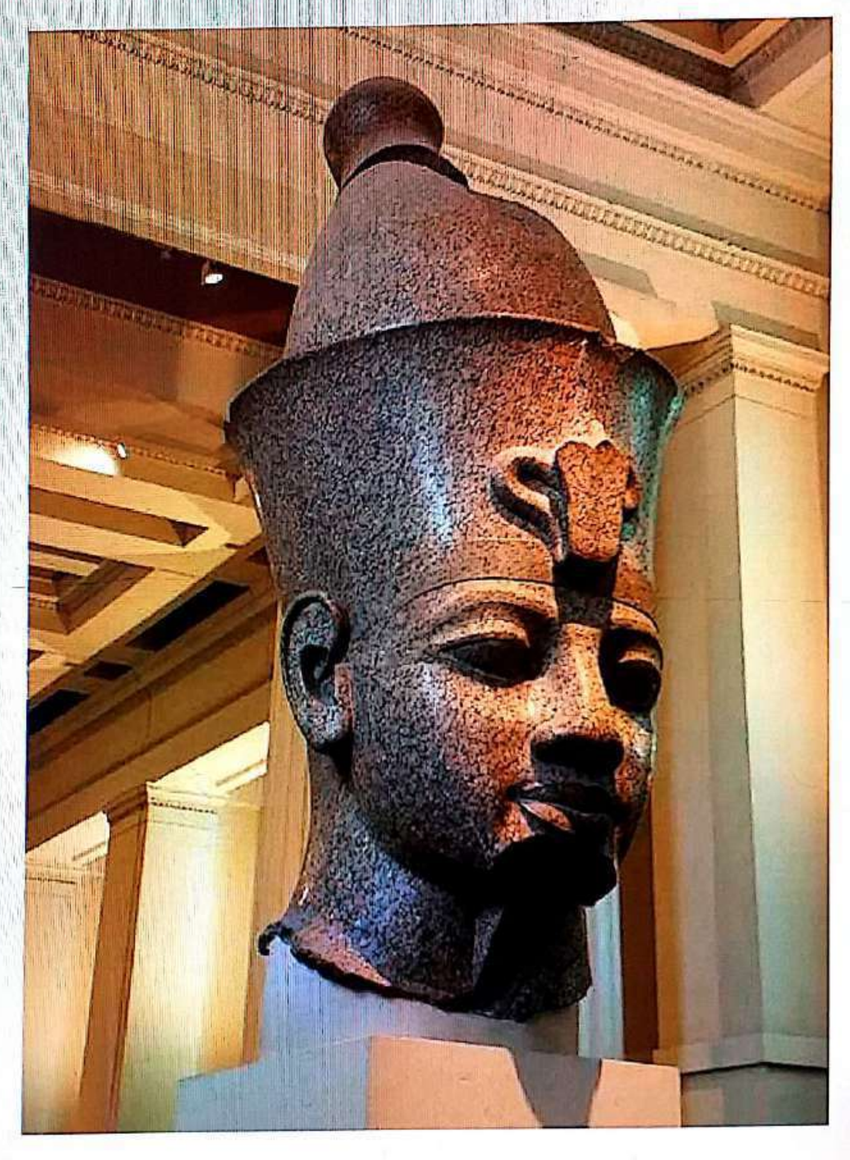
- الملك أمنحتب الثالث

يعتبر عصر الفرعون الشمس الملك الأشهر أمنحتب الثالث (ويعني اسمه «آمون سعيد») واحدًا من أعظم عصور الفن في مصر القديمة قاطبة، إن لم يكن أعظمها على الإطلاق، وواحدًا من أعظم عصور الفن في تاريخ العالم القديم كله، وأيضًا في سجل تاريخ الفن العالمي.

ووُصف الملك أمنحتب الثالث بـ «قرص الشمس المشع» وغرقَ بلاطه بالعظمة وصار مَضرِبًا للأمثال بالثراء المبهر. واختار رجال بلاطه وكبار رجال دولته من عائلات النبلاء القديمة تماشيًا من سياسته القائمة على اختيار أصحاب الدم الأزرق فقط لإدارة دولته الشاسعة. وبعد الوفاة المبكرة لولي عهده الأمير تحتمس، أصبح الأمير أمنحتب (أمنحتب الرابع/ أخناتون بعد ذلك) وليًا للعهد ثم صار ملكًا على مصر بعد وفاة أبيه الفرعون الشمس.

ورث الفرعون الشمس الملك أمنحتب الثالث إمبراطورية كبيرة في قمة المجد والثراء والقوة عن أجداده الملوك الفاتحين العظام أمثال أحمس الأول وتحتمس الأول وتحتمس الثالث وأمنحتب الثاني وتحتمس الرابع. وحكم الملك أمنحتب الثالث (منذ حوالي ١٤١٠ إلى ١٣٧٢ قبل الميلاد) الدولة المصرية العريقة حوالي ثمانية وثلاثين عامًا، وكان الملك التاسع من ملوك الأسرة الثامنة عشرة من عصر الدولة الحديثة، عصر الإمبراطورية المصرية القديمة، سيدة العالم القديم أجمع. واعتلى العرش بعد وفاة أبيه الملك تحتمس الرابع في سن الثانية عشرة تقريبًا. وكانت أمه زوجة ثانوية تدعى «موت إم ويا». وشهد عهده رخاء وازدهارًا كبيرين ليس لهما مثيل.

وبالنسبة للملك أمنحتب الثالث وولعه غير المسبوق بالبناء والفن والعمارة والتشييد، فقد اهتم بترميم ودراسة آثار أجداده من الملوك الأقدمين ملوك مصر السابقين. وقلَّد التمثال الأشهر لجده الأعلى الملك خفرع -من حكام عصر بناة الأهرام من ملوك الأسرة الرابعة- في تمثال فريد له كان موجودًا في مقبرة أمنحتب الثالث بطيبة الغربية (ويوجد الآن في متحف جامعة لندن في المملكة المتحدة) ويظهر الملك أمنحتب الثالث راكعًا وكان يحمي رأسه الإله حورس مثلما هو الحال في تمثال الملك خفرع المعروف عالميًا. وفي النصف الثاني من حكم الملك أمنحتب الثالث، أشرف الملك شخصيًا - أو من خلال مستشاريه المقربين - على تعديل المباني الدينية في طيبة وأضاف إليها معبده الجنائزي الضخم الخاص بتخليد ذكراه في منطقة كوم الحيتان في غرب طيبة.



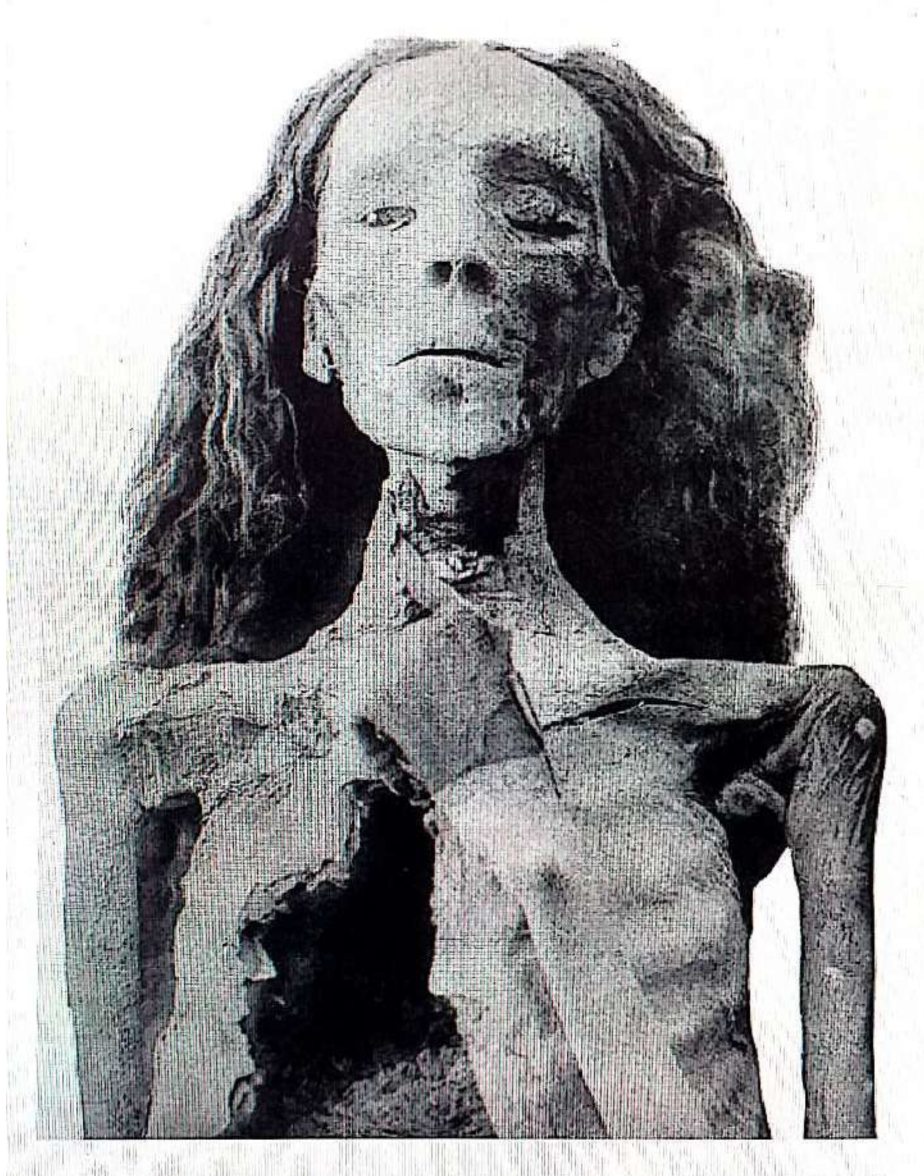
(رأس تمثال ضخم للفرعون الشمس أمنحتب الثالث بالمتحف البريطاني في لندن في إنجلترا)

كان الفرعون الشمس الملك أمنحتب الثالث أشهر فراعنة مصر والعالم القديم، وواحد من أعظم حكام مصر على مَر التاريخ، في أوائل سنوات حكمه مهتمًا بالرياضة وخاصة الصيد والقنص حيث كان صيادًا عظيمًا حيث عثرنا له على جعران يسجل عليه أنه أقتنص مائة ثور برى في رحلة صيد ملكية استغرقت يومين وعلى جعران آخر أنه أصدره في السنة العاشرة

ذكر فيه أنه منذ ارتقائه العرش قتل ١٠٢ من الأسود في رحلات الصيد.

أبدى اهتمامًا قليلاً بالعسكرية لأنه لم يواجه غير القليل من القلاقل مثل ما حدث في السنة الخامسة من حكمه في بلاد النوبة، غير أن القتال كان يدور مع فئة قليلة من المتمردين، وبعد أن انتصر عليهم، وسَّع مساحة مُلكه حتى وصل إلى الجندل الرابع، وقد دوَّن ذكرى لهذه الحملة بالقرب على صخور جزيرة بالنوبة. كما وصفت حملته على بلاد النوبة على لوحة سمنة في المتحف البريطاني في لندن. وقد قامت ثورة أخرى في بلدة واقعة بعد الجندل الثاني. وكانت النوبة لها إدارة ذاتية بإشراف ابن الملك في كوش، فأرسل أمنحتب الثالث نائبه في الجنوب وابن الملك لقمع تلك الثورة، ولم يشترك فيها أمنحتب الثالث. واتسم معظم حكمه بالاستقرار والرخاء.

وفي النهاية، فإن عصر الفرعون الشمس الملك الأشهر أمنحتب الثالث وروائعه الفنية والمعمارية الفريدة والعديدة والمتنوعة الخاصة بالملك وأفراد عائلته وكبار رجال بلاطه وحاشيته كان بحق خير شاهد على الثراء والجمال والروعة ودقة الأداء وعظمة مصر في العالمين القديم والحديث على حد سواء. لقد كانت مصر القديمة محظوظة بوجود ملك مثل الفرعون الشمس الملك الأشهر أمنحتب الثالث بين ملوكها من البنائين العظام، وقد كان أيضًا الفرعون الشمس الملك الأشهر أمنحتب الثالث محظوظًا بحكم دولة عظيمة كمصر سيدة العالم القديم في ذلك العصر: عصر الإمبراطورية، والتي أعطت له شهرة لا يضاهيه فيها كثير من حكام مصر من الفراعين الخالدين على وجه الزمن المتغير دومًا.



(مومياء الملكة تي العظيمة والتي ما تزال تحتفظ بشعرها الجميل الذي أثار فضول الجميع)

كما أسلفنا، يعتبر عهد الفرعون الشمس، الملك الأشهر أمنحتب الثالث واحدًا من أعظم عصور الثراء والرفاهية والجمال والفن في مصر القديمة قاطبة، إن لم يكن أعظمها على الإطلاق، وواحدًا من أعظم عصور الفن في تاريخ العالم القديم كله، وأيضًا في سجل تاريخ الفن

العالمي، وأطلق عليه البعض «لويس الرابع عشر مصر القديمة» أو «باشا مصر القديمة» كي يقرّبوا عهده - البعيد زمنيًا عنا - إلى أذهاننا؛ وذلك نظرًا لما تمتعت به دولته وازدان به بلاطه من ثراء ورفاهية يعجز القلم واللسان عن وصفهما.

في العقيدة الدينية والملكية لفترة حكم الفرعون الشمس، اعتبرت الملكة تي إلهة السماء الأم، بينما اعتبرت بنات الملك بنات إله الشمس مما يؤكد على رغبة الفرعون الشمس العارمة في تأليه نفسه في حياته واقتباس صورة إله الشمس في شخص جلالة الملك أمنحتب الثالث الذي كان من بين الملوك الفراعنة القليلين المؤلهين في حياتهم الدنيا.

تشير الآثار الملكية وغير الملكية من عهد الفرعون الشمس الملك أمنحتب الثالث إلى أهمية زوجته الملكة تي طوال فترة حكم زوجها؛ فقد عثر على عددٍ كبيرٍ من التماثيل في أحجام ومواد مختلفة تصوِّر الملكة تي مع زوجها، بينما تظهرها النقوش تساعده في كثير من طقوس العبادة، وتشاركه في الاحتفالات خصوصًا الاحتفال المعروف بعيد «سد» (عيد الاحتفال بجلوس الملك على العرش الذي كان يتم الاحتفال به عند مرور ثلاثين عامًا على جلوس الملك على عرش مصر). ووصف أحد النصوص الملكة تي بأنها ترافق الملك أمنحتب الثالث مثل الإلهة ماعت حين ترافق إله الشمس رع.

من أبرز ملامح عهد الفرعون الشمس الملك أمنحتب الثالث الفنية ما يعرف بـ «الجعارين التذكارية» التي أنتجت في عصره بكثرة بالغة لتمجد الملك وتعظم من شأنه في مصر العظيمة وخارجها، ولعلَّ الملك أهدى هذه الجعارين لكبار شخصيات الدولة من رجال بلاطه العديدين. ومن بينها أكثر من ستين جعرانًا تذكر الفرعون الشمس الملك أمنحتب الثالث وزوجته الملكة العظيمة تي، وتُعرَف بـ «جعارين الزواج»، وتحتفل ست منها بزواجه من أميرة من بلاد ميتاني في بلاد الشام. بينما يذكر حوالي اثني عشر منها شق بحيرة للراحة والاستجمام في بركة هابو (في منطقة طيبة الغربية بمدينة الأقصر الجميلة) أقامها الملك حبًا في زوجته الغالية قوية الشخصية والحضور الطاغي الملكة الذكية والبارعة تي.

استخدم الملك أمنحتب الثالث نفوذه الكبير كي يحضر كثيرًا من الأميرات من تلك البلدان لمصر كي يتزوجهن؛ إذ كان جلالته مولعًا بالنساء أقصى ما يكون الولع بهن؛ فنراه يتفاوض على زواج أميرات من بلاد الشرق الأدنى القديم مثل أرزاوا وسوريا وميتاني وخيتي غيرها، تلك البلدان التي كانت خاضعة لسلطان مصر العظيمة الممتد عبر الشرق الأدنى القديم أو من البلدان والدويلات التي كانت تربطنا بها علاقات صداقة ودبلوماسية وتبادل تجاري وثقافي. ومن الجدير بالذِّكر أن زوجته الرئيسية الملكة الحكيمة تي كانت توافقه على ذلك ولا تعارض زواج الملك من تلك الأميرات، بل كانت تشارك في مراسم الاحتفال وتبارك تلك الزيجات

الدبلوماسية كي ترضي زوجها العاشق للنساء، والذي لم يكن يسكن قلبه غير حبه الكبير لزوجته الرئيسية الملكة تي العظيمة، وكي توطد دعائم وعلاقات حكم زوجها الملك المحبوب في الشرق الأدنى القديم مع أتباعه وجيرانه. والدليل على الأهمية والمكانة الكبيرة التي حظيت بها ملكتنا العظيمة الملكة تي، هو ذِكر اسمها في «رسائل العمارنة» التي كان يتمُّ تبادلها فقط بين ملك مصر العظيم ومعاصريه من حكام الشرق الأدنى القديم، ولم يكن هناك دوْر أو ذِكرٌ للملكات فيها؛ فنرى حكام الشرق الأدنى القديم العظام يتوددون للملكة ويطلبون توسطها لدى زوجها الفرعون الشمس الملك أمنحتب الثالث ومن بعده ولده الفرعون الموحد الملك أمنحتب الرابع/ أخناتون؛ نظرًا لأهمية دورها وعظم قدرها في البلاط وعند زوجها الفرعون الشمس وابنها الملك الموحد.

تلك ملكة فاقت شهرتها شهرة الرجال، بل ناطحتهم في قوتها وسلطانها، وشاركت في أمور الحكم، وكانت ذات دورٍ كبيرٍ في تحريك السياسة الخارجية وتوجيه دفة الحكم في عهد زوجها وابنها في فترة العمارنة، ذلك العصر الذي كانت مصر فيه على أعتاب مرحَلة كبرى من التغيير على كل المستويات والمجالات.

الملك أخناتون

أحدث الملك أمنحتب الرابع، أو الملك أخناتون بعد ذلك، ثورة في كل شيء في فترة مهمة ومثيرة من تاريخ مصر القديمة، أو ما نطلق عليه «عصر العمارنة». وعصر العمارنة هو فترة زمنية فارقة وحقبة تاريخية ثرية من تاريخ مصر القديمة والشرق الأدنى القديم، بل والإنسانية جمعاء، قلما أن تكرر حين اجتمعت السياسة مع الفكر والتغيير والثراء، وحين طفت على السطح أفكار دينية وفنية وأدبية وإنسانية لم تكن سائدة من قبل.

كان الأمير أمنحتب (الملك امنحتب الرابع بعد ذلك) قد تعلق بديانة الشمس وتحديدًا قرص الشمس «آتون» منذ أن كان صغيرًا. وتأثر كثيرًا بخاله «عنن» الذي كان كبيرًا للرائيين في معبد الإله رع إلى الشمس في مدينة الشمس: هليوبوليس (منطقتا عين شمس والمطرية الحاليتان في شرق محافظة القاهرة). وكان والده الملك أمنحتب الثالث وجده الملك تحتمس الرابع دعما من ديانة آتون من قبل، غير أن أخناتون أخذ الخطوة الأكبر ووصل بديانة آتون إلى قمتها ونهايتها في الوقت عينه.

انتقل أخناتون ونفرتيتي إلى مدينة «آخت آتون» («أفق آتون»)، في منطقة تل العمارنة في المنيا، التي جاءت منها تسمية العصر بـ «عصر العمارنة». وعلى قصر عمر المدينة، فإن حفائرها الأثرية أنتجت عددًا من الروائع الفنية، لعلّ أشهرها تماثيل العائلة الملكية لأخناتون ونفرتيتي وبناتهما.

وجسَّد الفنانون الملك أخناتون وأفراد عائلته وكبار رجال دولته بمعالم فنية مبالغ فيها؛ فصوَّروا الوجه مستطيلاً، والشفاه غليظة، والعيون كبيرة، والبطن مترهلاً، والأفخاذ ضخمة بملامح تخلط بين الصفات الذكورية والأنثوية، وفقًا للمعتقدات الدينية الجديدة. وفي هذه المناظر الجديدة، كان الملك وأفراد نظامه يعبّرون عن رؤية الملك الدينية الجديدة التي اعتبر معبوده آتون، في أناشيده الموجهة إليه، أبًا وأمًا لكل البشر ولكل الكائنات.

قام أخناتون بتطورات بل طفرات في كل مظاهر الحياة بل والعالم الآخر. وكان الدين من بين أهم العناصر المميزة التي قامت عليها دولة الملك أخناتون ودعوته الدينية الجديدة، ولعب الدين دوره الكبير بامتياز في فترة العمارنة الفريدة في التاريخ المصري القديم كله، وانصب اهتمام الملك الشاب على معبوده الجديد «آتون» الذي جسَّده الملك فنيًا على هيئة قرص شمس تخرج منه أيدٍ بشرية تمسك بعلامة «عنخ»؛ كي تهب الحياة للبشرية جمعاء من خلال الوسيط أو النبي الملك أخناتون وأفراد عائلته المقدسة.

وعندما صار الأمير أمنحتب ملكًا غير اسمه في العام السادس من حكمه من أمنحتب الرابع

إلى «أخناتون» أي «المفيد لآتون»؛ كي يكون على أتم الاتساق مع دعوته الدينية الجديدة ومعبوده الجديد قرص الشمس آتون الذي أراد من خلاله الملك أخناتون أن يحقق العالمية لدعوته؛ نظرًا لوجود الشمس في مصر وكل مكان من بلاد الشرق الأدنى القديم، وبذلك يستطيع أن يتعبد إلى ذلك المعبود الكوني البشر في معظم أرجاء الإمبراطورية المصرية الفسيحة التي شيَّدها جده الأعلى الفرعون المحارب الملك تحتمس الثالث في آسيا وأفريقيا. ولاقت الدعوة الدينية الجديدة استحسانًا من قِبَل زوجته الجميلة والذكية الملكة نفرتيتي التي صارت من أقوى المناصرين للملك أخناتون ودعوته الجديدة، وصارت صنوًا له وعنصرًا مكملاً للدعوة الآتونية والديانة الشمس وينقص المشهد شيء مهم إن لم تكن الملكة الجميلة موجودة به، إن لم تكن منافسة للملك الموحد.

في بداية حكمه، بنى الملك أخناتون معبدًا للإله آتون في الكرنك، المكان المقدس للمعبود آمون رع، مهذئًا بذلك دولة آمون رع الأزلية المستقرة وكهنته ومتحديًا إياهم في عقر دارهم؛ مما جعلهم يضمرون له الحقد ويكيدون له المكائد ويناصبونه العداء حتى ترك مدينتهم طيبة العاصمة العريقة لمصر القديمة في عصر الدولة الحديثة، وارتحل إلى مدينة جديدة لم تدنسها عبادة أي إله من قبل. وقامت دعوة أخناتون على جمع كل الآلهة في إله واحد هو معبوده آتون، ولم يجسد الملك أخناتون إلهه الجديد في شكل آدمي على الإطلاق.

وكانت فكرة العدالة والنظام الكوني جزءًا من ديانة أخناتون الجديدة، وكانت فكرة النور والضياء جزءًا لا يتجزأ من الدعوة الآتونية في مقابل الظلام وقوى الفوضى، ولا تنطوي دعوة أخناتون على فكرة التوحيد كما نعرفها حاليًا، وإنما كان الهدف من تلك الدعوة بدمج المعبودات في إله واحد هدفًا سياسيًا؛ كي يحد من سيطرة المعبود آمون رع وكهنته على الحكم في تلك الفترة، الذين شكلوا دولة داخل الدولة. وكان أخناتون قاب قوسين أو أدنى في أن ينجح في ذلك، لكن الحظ لم يحالفه طويلاً؛ نظرًا لوقوعه في عدد من الأخطاء الكارثية الكبيرة، وكذلك انغلاق دعوته، وقيامها على شخصه وأفراد عائلته فقط، وتسرُّعه وقصر فترة حكمه، واعتماده على عدد من المنافقين والمنتفعين الذين انقلبوا عليه حين انتهت دعوته وانفضت دولته وخارت قواها.



(الملكة نفرتيتي وزوجها أخناتون وبناتهما)

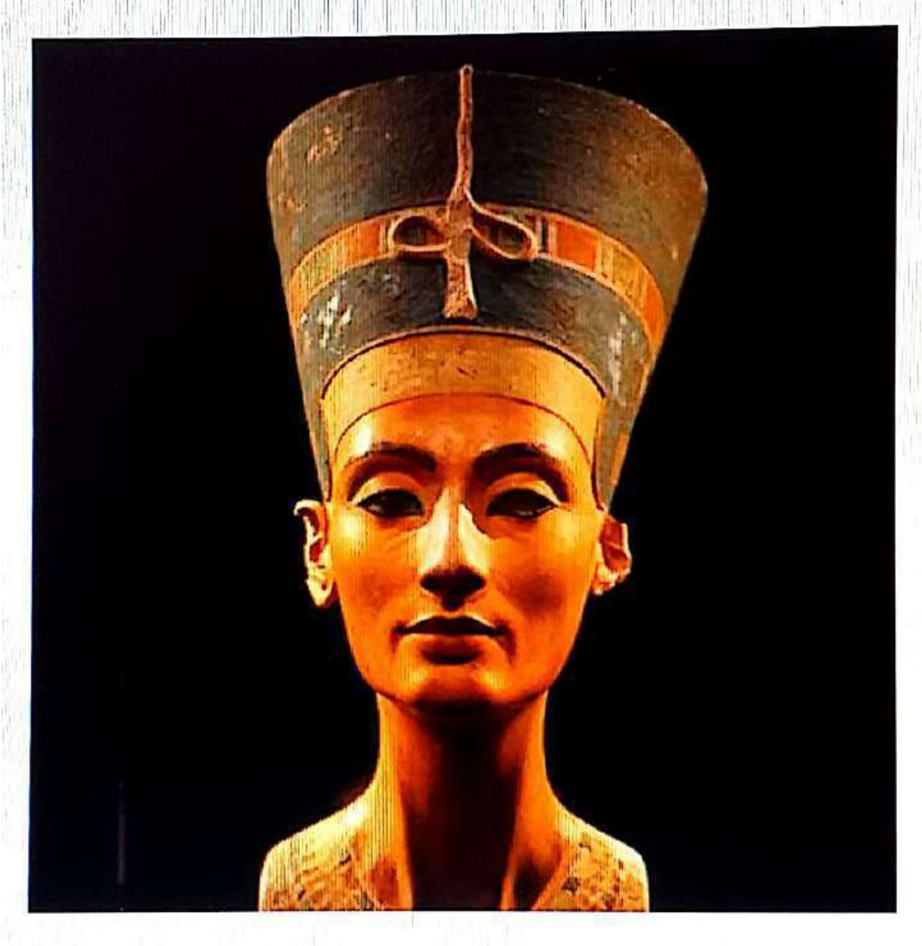
إنه عصر العمارنة، حين حكمَ مصر ذلك الملك الجديد الذي قام بثورات على كل الأصعدة التقليدية، وقلب الأمور رأسًا على عقب في فترة زمنية قصيرة عادت بعدها الحياة في مصر القديمة إلى مجراها الطبيعي وسابق عهدها بعد اختفاء ذلك الملك أو إقصائه وإنهاء زمنه وتاريخه إلى غير رجعة من قبل كارهيه ومعارضيه من أنصار الملكية المصرية المستقرة وكهنة المعبودات الأخرى الذين قضى عليهم أخناتون وأزاحهم عنوة من المشهد السياسي في مصر القديمة.

على الرغم من كل ذلك، فإن الآثار التي تركها عصر العمارنة على معاصريه ولاحقيه لم تختفِ كلية من المشهد، كما كان يظن هؤلاء الكارهون لتلك الحقبة الأكثر إشكاليا وإثارة في تاريخ مصر القديمة قاطبة، بل امتدت آثار عصر العمارنة إلى ما بعد عهد الفرعون الموحد الملك أخناتون لفترة ليست بالقصيرة.

الملكة نفرتيتي

تعتبر جميلة الجميلات، الملكة، «نفرتيتي»، بين الملكات الأكثر شهرة في مصر القديمة في العالم، ويعني اسمها «الجميلة أتت»، واسمها الكامل هو «نفرو آتون نفرتيتي»، ويعني «جمال آتون الجميلة أتت». واعتقد أحد العلماء أن نفرتيتي كانت من أصل أجنبي، ابنة الملك ميتاني، غير أن معظم العلماء يؤكدون أنها مصرية.

الملكة نفرتيتي هي الزوجة الكبرى للملك أمنحتب الرابع، أو الملك أخناتون بعد ذلك، وهي سيدة عصر العمارنة بلا منازع. ويعد ذلك العصر من أهم الفترات التاريخية وأكثرها إثارة في مصر القديمة على الإطلاق، وحدثت به تطورات في كل مظاهر الحياة، وكان الدين من بين أهم العناصر المميزة التي قامت عليها دولة أخناتون ودعوته الدينية الجديدة، وانصب اهتمام الملك على معبوده الجديد «آتون» الذي جسده فنيا على هيئة قرص شمس تخرج منه أيد بشرية تمسك بعلامة «عنخ»؛ كي تهب الحياة للبشرية جمعاء من خلال أخناتون وأفراد عائلته.



(التمثال النصفي للملكة الجميلة نفرتيتي في المتحف المصري ببرلين)

لاقت الدعوة الدينية الجديدة استحسان زوجته الجميلة نفرتيتي التي صارت من أقوى المناصرين لأخناتون ودعوته وصارت عنصرًا مكملاً للدعوة الآتونية. ودون نفرتيتي ينقص المشهد شيء مهم إن لم تكن به.

احتلت العائلة الملكية مكانةً متميزة ضمن دولة أخناتون ودعوته، وقاموا بوظائف ومهام عديدة من أجل مساندته. وتظهر العائلة الملكية في عصر العمارنة في الأعمال الفنية في مناظر جديدة لم يعرفها الفن المصري القديم من قبل؛ فنرى العائلة الملكية في مناظر تبكي وتحزن على وفاة إحدى بناتها أو حفيداتها. وكذلك نرى أخناتون ونفرتيتي في مشاهد حميمية جدًا بين زوج وزوجته، لم نشاهدها بنفس المستوى من قبل في الفن المصري القديم على الإطلاق. وفي مناظر أخرى، نرى الملك والملكة مع بناتهما ورجال البلاط، وحتى مع

حيوانات الصحراء، يبتهلون للشمس المشرقة التي تظهر على حافة الأفق الشرقي. وظهرت نفرتيتي وبناتها في تماثيل فنية تعبّر عن حسية واضحة تظهر معالم ومفاتن الجسد الأنثوي بشكل فني لم يسبق له مثيلٌ في الفن المصري القديم مطلقًا، أو أن نرى الملك والملكة وبعضًا من بناتهما يجلسون في جلسة عائلية جديدة في الفن المصرى القديم.

عندما تزور متحف برلين، فأنت في حضرة نفرتيتي وتمثالها النصفي الأشهر الذي يُعَدّ من أبرز الأعمال الفنية من العصر، وتم تخصيص قاعة واحدة له حيث يعرض تمثالها الأجمل. وهذا التمثال النصفي مصنوع من الحجر الجيري الملون بالحجم الطبيعي، وترتدي الملكة تاجها الأزرق المميز المقطوع من القمة الذي تعلوه حية الكوبرا، ووُجد مع عدد من القطع الفنية الأخرى في أتيليه الفنان تحتمس في تل العمارنة.

حين جاء تمثال نفرتيتي إلى برلين أحدث حُمى كبيرة اجتاحت المدينة منذ عام ١٩١٣ ميلادية، ولم تهدأ إلى وقتنا الحالي. لقيَ تمثال نفرتيتي في القرن العشرين اهتمامًا كبيرًا من قِبَل زوار متحف برلين، وتم الاهتمام بقوة بعصر العمارنة في الأدب الألماني، وزاره وأعجب به الشاعر الألماني الأشهر راينر ماريا ريلكه. وفي يوم ١٦ فبراير عام ١٩١٤ ميلادية وبعد أن زارت معرض برلين، كتبت «لو أندريه سالومه» إلى ريلكه تقول له فيه إن كثيرًا من تماثيل الملك أخناتون تشبهه! ولم يكن ريلكه فقط الذي كان يشبه الملك أخناتون، بل شُبِّه به كثيرون، حتى الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما قِيل إنه يشبه أخناتون زوج نفرتيتي!

ويكفي أن نلقي نظرة على تمثال الجميلة نفرتيتي كي ندرك روعة الفن وصدق الإيمان بالدعوة من قِبَل قلة من بعض مؤيدي أخناتون وتوظيف الفن في خدمة الديانة الآتونية وأخناتون وعائلته ودعوته الدينية وفلسفته في الحكم ونظرته للدين والحياة. إنه عصر العمارنة الفريد بكل ما له وعليه.

اعتقد البعض أن الملكة نفرتيتي قد تكون شاركت أخناتون في الحكم؛ لذا فإنها قد تكون اختفت في حوالي العام الثاني عشر من حكم أخناتون بسبب اشتراكها في الحكم، وأنها قد تكون قد غيرت اسمها إلى نفر نفرو آتون. واعتقد البعض الآخر أن سببَ اختفائها هو وصول الملكة تي، أم الملك أخناتون، إلى عاصمة أخناتون في تل العمارنة، غير أن الاكتشافات الحديثة أثبتت أن نفرتيتي ذُكرت على بعض آثارها زوجها الملك أخناتون بعد العام الثاني عشر من حكمه، وتحديدًا في العام السادس عشر على جرافيتي عُثر عليه منذ فترة في منطقة «دير أبو حنس» بالمنيا في مصر الوسطى، وذلك يشير إلى استمرار ووجود الملكة نفرتيتي إلى جوار زوجها الملك أخناتون قرب نهاية فترة حكم زوجها. وبناءً على ذلك، يعتقد البعض أن مريت-آتون، الابنة الكبرى للملك أخناتون، ربما هي التي شاركت أباها الملك

أخناتون في حكم البلاد، ويعني هذا أن الملك أخناتون ربما لم يحكم مصر منفردًا في نهاية فترة حكمه. في حين يعتقد بعض العلماء أن الملكة نفرتيتي قد تكون ربما قد حكمت البلاد منفردة لمدة عامين أو أقل بعد موت أخناتون، وغيَّرت اسمها إلى اسم «نفر نفرو آتون»، أو إلى سمنخ كارع، وهناك من يعتقد أن سمنخ كارع شخصية مستقلة غير نفرتيتي، وربما كان شقيقًا للملك أخناتون، وربما كانت مومياء سمنخ كارع هي التي عُثر عليها في عام ١٩٠٧ في المقبرة ٥٥ بوادي الملوك، وليس مومياء الملك أخناتون. غير أن الفريق المصري لدراسة المومياء يرجِّح أن تكون تلك المومياء أو ذلك الهيكل العظمي في المقبرة ٥٥ في وادي الملوك للملك أخناتون، وليس للملك سمنخ كارع. وحدث هذا كله خلال فترة زمنية غير كبيرة، أغلب الظن، قبل وصول عرش البلاد إلى الملك الصغير توت عنخ آمون.

قامت نفرتيتي بتغيير اسمِها عدة مرات، وكتبت اسمها مثل الملوك داخل خرطوشين موازيين بعضهما البعض. وأقترح أيضًا أن تكون نفرتيتي أو زوجة أخناتون الأميرة الشمال سورية ميتانية الأصل، كيا، هي «داخامانزو»، وهي غالبًا الترجمة الحرفية للقب المصري زوجة الملك «تا حمت-نسو»، الملكة المصرية التي جاء ذِكرُها في أحد النصوص الحيثية حين أرسلت رسالة لملك الحيثيين تطلب فيها أن يرسل لها أحد أبنائه كي تتزوَّجه بعد وفاة زوجها الملك.

واعتقد بعض العلماء أن نفرتيتي قد تكون هي من أرسلت هذه الرسالة، ولكن البعض الآخر اعتقد أنها كيا، غير أن ذلك غير صحيح؛ لأنه تم اغتصاب آثار كيا في عهد زوجها الملك أخناتون، وتم تعديل تابوتها لدفنة الفرعون، وتم تعديل آثارها لابنة أخناتون الأميرة ميريت آتون، وأحيانًا لابنته الأميرة عنخ إس إن با آتون. واستمر ظهور كيا إلى العام التاسع أو العاشر من حكم الملك، غير أن كيا ربما قد أنجبت بنتًا؛ وذلك بناءً على نَصين كبيرين على كتلتين حجريتين من الأشمونين تم محوهما، ويظهر عليهما اسمٌ مفقودٌ لابنة ملكية، غير أنها ترتبط باسم وألقاب كيا. واقترح البعض اسم كيا كأم للملك توت عنخ آمون من مُنطلَق أن كل الاقتراحات مقبولةٌ في ذلك الشأن إلا أن تكون أمه نفرتيتي، غير أن ذلك الاقتراح ليس له ما يدعمه؛ لأنه قد تمَّ تدمير آثار كيا وعدم تقديرها قبل وفاة أخناتون. وغير أن أغلب الظن أنَّ مَن أرسلت الرسالة هي عنخ إس إن آمون، أرملة توت عنخ آمون.

وتم الادعاء مؤخرًا بأن نفرتيتي دُفنت في مقبرة ٦٢ في وادي الملوك، مقبرة الفرعون الذهبي الملك الأشهر، توت عنخ آمون، مقبرة ٦٢ في وادي الملوك، أو أن مقبرة الملك توت عنخ آمون كانت مقبرة نفرتيتي في الأصل، غير أن ذلك الادعاء ضعيف وثبت عدم قبوله علميًا لأسباب عديدة، وليس هناك ما يؤكده.

اختفت نفرتيتي من المشهد، وهناك أسئلة كثيرة حولها ما تزال دون إجابة مثل تاريخ وفاتها

ومكان موميائها. وهناك اختلاف في تحديد أي مومياء تخص نفرتيتي من المومياويين النسائيتن اللتين تم اكتشافهما في مقبرة الملك أمنحتب الثاني، مقبرة ٣٥ في وادي الملوك.

وظهرت نظريتان حديثتان بخصوص مومياء نفرتيتي، النظرية الأولي هي العثور على مومياء الملكة في المقبرة رقم ٦٣ في وادي الملوك، والثانية هي ما أعلنته الإنجليزية جوان فليتشر نفرتيتي من أن مومياء السيدة الشابة في المقبرة ٣٥ في وادي الملوك هي مومياء نفرتيتي.

وأعلنَ الأمريكي أوتو شادن وفريقُه من جامعة ممفيس أنهم اكتشفوا مقبرة ٦٣ في وادي الملوك وعثروا فيها على سبعة توابيت، منها تابوت لطفل صغير، وآخر لطفلٍ رضيع، واعتقد البعض أن تلك التوابيت لبنات نفرتيتي وأخناتون الست.

وأعطى المجلس الأعلى للآثار إذنًا لجامعة يورك للقيام بالأشعة السينية على مومياوات النساء في الغرفة الجانبية بجوار غرفة دفن المومياء في المقبرة رقم ٣٥ في وادي الملوك. وكانت مومياء السيدة الشابة في حالة سيئة، وكانت ذراعها اليمنى ممزقة بالكامل، وتوفيت صاحبة هذه المومياء في عمر ما بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين عامًا، وثبت أنه ليس هناك سبب مقنعٌ بأن مومياء السيدة الشابة لنفرتيتي، ثم اتضح بعد ذلك كذب ذلك الادعاء، وتم رفض النظرية الثانية وهي أن مومياء الشابة لنفرتيتي.

وتم اكتشاف أم المومياء السيدة الشابة، وربما تكون هذه المومياء إحدى بنات الملك أمنحتب الثالث والملكة تي، وهي أم الملك توت عنخ آمون، أغلب الظن. وفي هذه الحالة لا يمكن أن تكون هذه المومياء لنفرتيتي؛ لأن نفرتيتي ليست ابنة أمنحتب الثالث وتي. وقام الأمريكي دونالد ريان بتحليل المومياوين النسائيتين اللتين كانتا في الغرفة الجانبية، وأثبت العلماء أيضًا أن مومياء نفرتيتي ليست ضمنهما.

وقام الفريق المصري لدراسة المومياوات الملكية بالبحث عن مومياء الملكة نفرتيتي، ودراسة المومياوين الموجودتين داخل المقبرة رقم ٢١ بوادي الملوك، وهي المومياوات التي قام بدراستها وترميمها دونالد راين، وهي مومياء بدون رأس وأخرى برأس. وقام الفريقُ عن طريق دراسة الحامض النووي بعمل مقارنات مع الأجنة التي عُثر عليها داخل مقبرة توت عنخ آمون، واتضح للفريق المصري وجود صلة بينها مما يشير إلى أن المومياء بدون الرأس تخص الملكة عنخ إس إن آمون زوجة توت عنخ آمون.

ويعتقد الفريق المصري أن المومياء الأخرى قد تخص الملكة نفرتيتي؛ نظرًا لأن الكهنة في عصر الأسرتين الواحدة والعشرين والثانية والعشرين كانوا يضعون المومياوات العائلية

بجوار بعضها البعض.

وما يزال المشروع القادم للفريق المصري لدراسة المومياوات الملكية يبحث عن عظام الملكة موت نجمت، زوجة الملك حور محب، كي يعقد مقارنات بينها وبين مومياء المقبرة ٢١ بوادي الملوك لمعرفة هل تلك المومياء تخص الملكة نفرتيتي أم لا.

وقام الفريق المصري أيضًا بعمل دراسات بالأشعة المقطعية والحامض النووي على المومياوات الموجودة داخل المقبرة رقم ٣٥ بوادي الملوك، والتي يوجد بها مومياء لسيدة تُعرَف باسم السيدة الكبيرة، وأخرى تعرف باسم السيدة الصغيرة.

واتضح للفريق المصري أن مومياء السيدة الصغيرة هي لأم الملك توت عنخ آمون، وأنها ابنة الملك أمنحتب الثالث والملكة تي، دون تحديد اسمها بعد. وكانت للملكة تي وأمنحتب الثالث خمس بنات، وقد تكون أم توت عنخ آمون واحدة منهن، وعليه فإن أخناتون قد تزوج من أخته، وقد يكون هذا هو السبب في المشاكل الصحية التي عانى منها الفرعون الصغير. وهناك من يعتقد أن نفرتيتي كانت أم الملك توت عنخ آمون، وهذه نظرية تم طرحها دون توضيح أو تأكيد أسباب هذا الزعم. وإلى الآن لم يتم العثور على مومياء الملكة نفرتيتي.

وشاع استخدام اسم نفرتيتي وتاريخها في العديد من الأعمال الفنية والأدبية والموسيقية والسينمائية والتليفزيونية في العالم كله، كان من بين أهمها الرواية الفاتنة، «العائش في الحقيقة»، لكاتب نوبل المصري الأعظم الأستاذ نجيب محفوظ.

وسوف تظل الملكة نفرتيتي تثير الدهشة والاهتمام والأسئلة والغموض من حولها رغم مرور السنين.

إن نفرتيتي ملكة خلَّدتها مصر وخلَّدت مصر عبر العصور وعلى وجه الزمن بأحرف من نور.

الملك توت عنخ آمون

على العكس من الاعتقاد السائد أن توت عنخ آمون لا ترجع شهرته لإنجازات حققها أو حروب انتصر فيها، كما هو الحال مع الكثير من الفراعنة، فإن الحياة العسكرية كانت عامرة في عهد توت عنخ آمون خصوصًا في الجنوب والشمال بفضل رجال دولته وقادته العسكريين العظام أمثال قائد الجيش العظيم الجنرال حور محب.

ومن الجدير بالذكر حياة الفرعون الذهبي الملك الأشهر توت عنخ آمون كانت تمتاز بأنها مليئة بالدراما والصراع على كل المستويات، ومنها دراما الحب والغيرة والكراهية والخيانة والتآمر ومحو الذكرى والسُلطة والشهرة والحزن وسوء الحظ.



(القناع الأعظم للفرعون الأشهر الملك الذهبي توت عنخ آمون)

لم يكن يعلم الفرعون الشهير أبوه الملك أخناتون بأنه حين استيقظ في بلاط عاصمته الملكية «آخت آتون» على الخبر السعيد الذي كان ينتظره منذ سنوات طويلة بميلاد ابنه الوحيد توت عنخ آتون، أن ذلك المولد سوف يحصل على شهرة كبيرة ويصير أشهر شخصية وملك على وجه الأرض في العالم كله بعد اكتشاف مقبرته الرائعة كاملة في وادي الملوك في البر الغربي لمدينة الأقصر في ٤ نوفمبر عام ١٩٢٢ ميلادية، وأن حياته سوف تحيط بها التعاسة والحزن وعدم التوافق والتجاهل والإهمال، وأنه سوف يتعرض للخيانة والتآمر على حياته، وكذلك على تراث أبيه الملك أخناتون، وأن زوجته وأرملته عنخ إس إن با آتون سوف تُعامل أسوأ معاملة، وأنها سوف تتعرض للاضطهاد والانزواء في زوايا النسيان إلى أن تموت وحيدة مُهمَلة حزينة، وأنه سوف يتم تدمير واغتصاب آثارها ومحو ذكراها إلى الأبد من قبل موت نجمت زوجة حور محب.

لقد كانت اللعنة هي مصير أخناتون وعائلته. وبدأت اللعنة عملها بمحاصرة حياة أبيه أخناتون وغموض وأسباب اختفائه وتدمير آثاره ومحو ذكراه، وكذلك حاصرت زوجة أبيه الملكة نفرتيتي التي كرهت غالبًا توت عنخ آمون بشدة من أعماق قلبها؛ لأنه صار ولي العهد والملك القادم لمصر بدلاً منها أو من إحدى بناتها العديدات، أو بدلاً من ابنها الوريث الذَّكر الذي فشلت أن تنجبه لأخناتون لستّ مرات. لقد كان التآمر على أشده في حياة أبيه الملك أخناتون من رجال القصر الذين رأوا في توت عنخ آمون خطرًا كبيرًا يهدد حياتهم وحياة إلههم الأكبر آمون إذا استمرت عبادة آتون، ربّ أخناتون. بعد اختفاء أخناتون الذي كانوا ينافقونه ويؤمنون بإلههم الأزلي آمون سرًا، ويكرهون أخناتون وإلهه المفروض عليهم بالقوة، الإله آتون المتمثل في قرص الشمس.

لقد عاش الأمير توت عنخ وحيدًا يلعب بمفرده أو مع أخواته بنات نفرتيتي في قصر أبيه الملكي في تل العمارنة. أتخيل أنه كان يقول لنفسه دومًا:

«لا أحد يريدني. لا أحد يحبني في هذا القصر الكبير المخيف. الكل يكرهني. أبي هو الوحيد الذي يحبني؛ غير أنه مشغولٌ عني دائمًا وأبدًا بديانته الجديدة وبربّه الأثير آتون. وزوجة أبي المسيطرة نفرتيتي لا تكنّ لي أيّ حب في أعماق قلبها، بل أعتقد أنها قد تكون تكرهني بكل ما قد تحمله الكلمة من معانٍ، ويظهر هذا واضحًا في مشاعرها نحوي وتعاملها معي. كل هذا حدث لي بعد رحيل أمي الحنون».

مات الأب الملك أخناتون في ظروف غامضة، وحلَّ الاضطراب بأرض مصر وبالقصر الملكي، وعمت الفوضى البلاد وسيطر القلق والحزن على العباد، وصار توت عنخ آتون، ابن السنوات

التسع، مَلِكًا على عرش مصر في ظروف صعبة. وتزوج توت عنخ آتون من أخته الأميرة عنخ إس إن با آتون، ابنة أخناتون ونفرتيتي التي فعلت ذلك؛ كي تضمن ألا يخرج العرش من بين يديها. وثار الجميع على تراث أبيه أخناتون. ووصفوه بالملك المهرطق أو المارق من تل العمارنة، وأجبروا توت عنخ آتون على تغييره اسمه إلى توت عنخ آمون واسم زوجته إلى عنخ إس إن آمون.

ربما أجبر توت عنخ آمون على ترك تل عاصمة أبيه آخت آتون، تل العمارنة؛ كي تصبح من بعده مدينة أشباح ينعق فيها البوم وتسكنها الطيور الجارحة ويملأها الفراغ والخواء والعدم. نقل توت عنخ آمون عاصمته إلى العاصمة التقليدية طيبة. وأدار البلاد من العاصمة الإدارية العريقة منف. وبدأ قائد الجيش حور محب بنشاط وهمة وحماسة لا يُحسد عليها حملة كبيرة لتدمير آثار أخناتون وإلهه الأشهر آتون. وتحت الضغط والإجبار بدأ توت عنخ آمون في سياسة ترميم ما دمره أبوه أخناتون؛ فأعاد للآلهة الأخرى وكهنتها مكانتها، ورجع عن سياسة أبيه تمامًا، وانقلب على أبيه والحزن يعتصر قلبه. وحملت زوجة توت عنخ آمون في توأم، لكن الحمل لم يكتمل، ولم يُكتب للفرعون الذهبي أن يُولَد له وريث ذكر يرث عرش آبائه وأجداده العظام. لقد كان توت عنخ آمون مريضًا، وكانت عنده مشاكل في قدميه وساقيه، وكان يعاني من مرض الـ « flat foot»

وككل الملوك الفراعنة المحاربين تم تصوير الملك توت عنخ في مشاهد عسكرية، غير أن الحقيقة أن قادته العسكريين هم الذين قاموا بالحرب، وأهمهم قائد الجيش الجنرال العظيم حور محب، دفاعًا عن الوطن وإظهارًا لقوة مصر العسكرية خصوصًا في الفترة المضطربة بعد وفاة أبيه الملك أخناتون.

ذات يوم، كان توت عنخ آمون يتريض في صحراء منف وكان يركب الخيل، وكان يقود عربته الحربية، فسقط من فوقها، فأصيبت ساقه، ومات بعدها بفترة قصيرة متأثرًا بتلوث جراحه ومرض ساقيه وقدميه. وبعد الوفاة غير المتوقعة لتوت عنخ آمون في سن صغيرة بعد حكم لتسع سنوات، كتبت أرملة توت عنخ آمون إلى ملك الحيثيين تطلب منه أن يرسل لها أحد أبنائه كي تتزوجه؛ لأنها ترفض أن تتزوج من خادمها الأب الإلهي العجوز آي أو من قائد الجيش حور محب. وفي رأيها، لم يكن هناك في مصر أحدٌ يليق بها أو يدانيها في الشرف والنسب والمكانة كي تتزوجه ابنة الفرعون أخناتون وحفيد الفرعون الشمس الملك أمنحتب الثالث. وفي البداية، لم يصدق ملك الحيثيين أذنيه، وظن أنها خدعة من الملكة؛ لأنه يعرف أن المصريات لا يمكن أن يتزوجن من غير مصري. ولما تيقن من صدق الأمر، أرسل لها بالفعل ابنه، ولما علم قائد الجيش حور محب وآي بذلك، أرسلا إلى حدود مصر

الشرقية مَن قتل الأمير الحيثي، وفشلت محاولة عنخ إس إن آمون، وأجبرت على الزواج من العجوز آي كزوجة ثانوية إلى أن ماتت، وتم اغتصاب آثارها وتدمير ذكرها من قِبَل زوجة حور محب الملكة موت نجمت، وكذلك قام حور محب بحملة كبيرة لتدمير آثار الملك توت عنخ آمون وكذلك آثار خليفته الملك آي كي يقضي على تاريخ أسرة أخناتون وخلفائه.

لقد كانت حياة توت عنخ آمون مليئة بالحزن والدراما والمأساة، على قصته بعد الوفاة واكتشاف مقبرته التي جعلت منه أسطورة الأساطير وأشهر الملوك وأعظم الشخصيات في العالم أجمع عبر العصور والأزمان، وأضافت نقطة منيرة وحيدة في حياته التعيسة التي كانت عبارة عن سلسلة من المآسي والأحزان.

ومِن رحم معاناته، جلب توت عنخ آمون الفرح والبهجة والمتعة والسعادة لنا ولكل إنسان في العالم، بينما كان يعتصره الحزن وتمزقه المعاناة والوحدة والشك وتتقاذفه أمواج الآلام والأحزان. وحقيقة، قد ينبت الفرح من عمق الحزن. وبالفعل، قد يُولد المجد من قمة المعاناة والمأساة. فتحيّة تقدير وحب لتوت عنخ آمون في الحياة وبعد الممات وأبد الأبدين.

الملكة عنخ إس إن آمون

تعتبر الملكة الجميلة «عنخ إس إن آمون» (أو «عنخ إس إن با آتون» سابقًا) من الملكات الجميلات في عصر العمارنة المشهورات والمؤثرات في تاريخ الأسرة والفترة بقوة، ويعني اسمها «التي تحيا لآمون»، وكان اسمها قبل التحول عن ديانة أبيها الملك أخناتون، الديانة الآتونية، «عنخ إس إن با آتون» بمعنى «التي تحيا للآتون»، وهي الابنة الثالثة من البنات الست لأخناتون ونفرتيتي والزوجة والأخت غير الشقيقة للفرعون الذهبي الملك توت عنخ آمون.

ظهرت الأميرة في طفولتها وصباها في مناظر عدة مع والديها، واتخذت عددًا من الألقاب الملكية مثل «ابنة الملك من جسده»، و«الزوجة الملكية الكبرى»، و«سيدة الأرضين». ولا شك أن أهمية وشهرة هذه الملكة ترجع إلى زواجها من الفرعون الذهبي والظاهرة العالمية الملك توت عنخ آمون.

تعدَّدت المحاولات لاكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في وادي الملوك، وقد اكتشف الأمريكي تيودور ديفيز، بين عامي ١٩٠٥-١٩٠٨، إناءً صغيرًا من القاشاني منقوشًا عليه اسم توت عنخ آمون في المقبرة رقم «٥٤» في وادي الملوك، فاعتقد أنها مقبرته، ثم اكتشف حجرةً وحيدةً صغيرة في المقبرة «٥٨» في وادي الملوك، ووجدَ فيها خبيئة صغيرة من كسرات ذهبية منقوشة باسمي الملكين توت عنخ آمون وآي، فاعتقد أيضًا أنها تخص توت عنخ آمون. وظلَّ البحث عن مقبرة توت عنخ آمون مستمرًا إلى أن جاء الإنجليزي هوارد كارتر، الذي يُعتبر من أشهر مَن عملوا في حقل الآثار المصرية؛ نظرًا للنجاح الهائل الذي حقَّقه بالعثور على مقبرة توت عنخ آمون في صبيحة الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢.

في عام ١٩١٧ ميلادية، حصل اللورد هربرت إيرل كارنارفون الخامس على موافقة مصلحة الآثار المصرية للتنقيب في وادي الملوك. وكان حلم كارتر العثور على مقبرة توت عنخ آمون بين مقابر وادي الملوك، فطلب اللورد كارنارفون من كارتر أن يجري الحفائر لحسابه في الوادي، وقد كان الاثنان على يقين من أن مقبرة الفرعون الذهبي لم تُكتشف بعد، وأن الافتراضات التي ادعاها الأمريكي ديفيز غير صحيحة، وأن المقبرة ما تزال في بطن الوادي لم تبح بأسرارها بعد. وكان من بين ما أكد ظنهما أن مومياء الملك لم تُكتشف في أي خبيئة مومياوات ملكية بعد، مما يعني أن المقبرة ما تزال سليمة ولم يعثر عليها. وبدأت الحفائر في العام نفسه دون أي نتائج مشجعة، واستمر الحفر خمس سنوات أخرى دون نتائج مرجوة. يقول كارتر مفصحًا عن تمنياته للكشف عن الحلم الذي ظلَّ يراوده طويلاً: «نعمل في شيءٍ لم يُمس؛ لذا فلا أحد يعرف ما الذي ربما يأتي، أتمنى مئات المرات شيئًا جيدًا.»

بعد طول عناء وسنوات عدة من الحفر المستمر، وفي يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٢ ميلادية، اكتشف كارتر الدَّرَج الحجري أسفل مدخل مقبرة الملك رمسيس السادس (المقبرة رقم ٩ في وادي الملوك). وكان هذا الدَّرَج أولى حلقات السلسلة التي قادت إلى مدخل المقبرة التي حملت رقم «٦٢» بين مقابر وادي الملوك.

منذ ذلك الحين، اندلعت في العالم كله حمى الولع بالملك توت عنخ آمون الذي صار حُلم كل إنسان في العالم أن يزور مقبرته في وادي الملوك، وأن يغوص في بحار السحر والجمال بين آثاره التي تزيِّن قاعات الدور الثاني بالمتحف المصري بميدان التحرير قبل أن يتم نقلُها كلها بشكل نهائي إلى بيت توت عنخ آمون: المتحف المصري الكبير بهضبة الجيزة بالقرب من أهرامات الجيزة الخالدة، خصوصًا هرم الجيزة الأكبر الخاص بالملك خوفو الذي يُعتبَر العجيبة الوحيدة الباقية من عجائب الدنيا السبع في العالم القديم.

وتولى الفرعون الذهبي الحكم في سن التاسعة، ومات الملك الشاب في سن الثامنة عشرة أو التاسعة بعد حكمٍ دامَ حوالي تسع أو عشر سنوات، ومات نتيجة حادث تعرَّض له وعلى أثر مضاعفاته، ولم يُقتل كما كان يُعتقد سابقًا. وعُثر على باقة زهور فوق مومياء توت عنخ آمون، ربما وضعتها أرملته الملكة عنخ إس با آتون (عنخ إس إن آمون لاحقًا) تحية منها لزوجها وشقيقها ورفيق صباها الراحل قبل الآوان.



(الملكة عنخ إس إن با آتون - «عنخ إس إن آمون» لاحقًا - ترظّب جسد زوجها توت عنخ آمون)

ما يزال البحث مستمرًا عن تحديد أم زوجها الملك توت عنخ آمون؛ فمن المعروف عن الفرعون الشمس الملك أمنحتب الثالث، باشا ملوك الفراعنة، أو لويس الرابع عشر مصر القديمة، أنه كان يعيش حياة الترف والمتعة. وكان كثير البناء والتعمير والإنشاءات، ووصلت العمارة والفنون في عصره إلى أرقى المراحل في مصر القديمة وفي العالم القديم كله. وكان أمنحتب الثالث محبًا للنساء، وكان كثير الزواج خصوصًا من أميرات الشرق الأدنى كي يدْعم بالزواج الدبلوماسي من العلاقات بين مصر وجيرانها من القوى الكبيرة الصديقة أو المنافسة في المنطقة، التي كانت مصر سيدتها بلا منازع. وكان قد تزوج من الأميرة الميتانية جليوخيبا، أخت الملك الميتاني توشراتا، في العام العاشر من حكم أمنحتب الثالث. ومن الجدير بالذّكر أن زوجته الرئيسة الملكة تي، أم الملك أخناتون، كانت تبارك تلك الزيجات لزوجها الملك الذي لم يكن يسكن بقلبه أحدٌ سواها. وبعد ذلك العهد، اتخذ الملك رمسيس الثاني من الملك أمنحتب الثالث قدوةً له وكان يقلده في كل شيء.

نعرف أن الفرعون الفيلسوف الموحّد الملك أخناتون هو والد الفرعون الذهبي الملك توت عنخ آمون بعد أن كنا نعتقد أنه الملك أمنحتب الثالث، غير أننا لا نعرف على وجه التحديد هويّة والدة توت عنخ آمون. وهناك ثلاث نظريات في هذا الشأن. وكانت النظرية السائدة هي أن أم توت عنخ آمون هي الأميرة كيا التي قد تكون الأميرة الميتانية تدوخيبا، ابنة الملك الميتاني توشراتا التي تزوّجها الملك أمنحتب الثالث في العام السادس والثلاثين من حكمه. ومات أمنحتب الثالث بعد فترة وجيزة، والتي تزوجت بعد وفاته ابنه الملك أخناتون والتي ربما أنجب منها ابنه، الملك توت عنخ آمون، والتي ربما ماتت أثناء ميلاد توت عنخ آمون في تل العمارنة، ثم اختفت من مسرح الأحداث في عصر العمارنة بعد العام الحادي عشر من حكم أخناتون. غير أن هذا غير صائب، أغلب الظن. وحاول بعض العلماء القول إن كيا ونفرتيتي شخصية واحدة بناءً على ترجمة خاطئة لاسم نفرتيتي بمعنى «الجميلة أتت من بعيد»، قاصدين قدوم الأميرة الميتانية من بلاد الشرق الأدنى القديم، غير أن اسم نفرتيتي يعني «الجميلة أتت» فقط. وهذا الافتراض ليس صحيحًا لأسباب عدة ليس هنا مجال لذكرها. وهناك نظرية جديدة، وهي ما تزال تحت البحث والدراسة، وهي الأقرب إلى الصواب، وهي أن أم الملك توت عنخ آمون هي بنت من بنات الملك أمنحتب الثالث والملكة الخمس. وهن: نبت ياه وست آمون وآسيت سي وحنوت نب وبكت آتون.

وهناك نظرية حديثة جدًا ذكرها لي عالم المصريات البريطاني إيدن دودسون في لقائه

الأخير معي في الإسكندرية في شهر يناير عام ٢٠٢٠ ميلادية بعد محاضرته الرائعة في متحف الآثار بمكتبة الإسكندرية عن الملكة الجميلة نفرتيتي ملكة مصر. وذكر لي أن الملكة نفرتيتي، زوجة الملك أخناتون وأم بناته الست، هي أم الملك توت عنخ آمون. وكتب في كتابه الصادر حديثًا عن الملكة نفرتيتي في شهر أكتوبر عام ٢٠٢٠ ميلادية بعض الأدلة التي بنى عليه نظريته الجديدة. وإلى الآن لم يؤيده أحد من العلماء في ذلك الزعم. وفي انتظار الدراسات المستقبلية حتى نعرف مَن هي أم زوجها الملك توت عنخ آمون تحديدًا.

من الأشياء المثيرة التي تخص زوجها الملك توت عنخ آمون سر وفاته، وقد عثر كارتر على دليل يؤكد أن مومياء توت عنخ آمون لم تكن محفوظة جيدًا، وفحص العلماء مومياء الملك، وأثبتوا أن طول توت عنخ آمون كان ١٧٠ سم وأن جمجمته تشبه جمجمة والده أخناتون.

فحص الإنجليزي هاريسون المومياء واكتشف أن بعض أجزاء جسم الملك تمزقت، وأن توت عنخ آمون فقد واحدًا من أصابع الإبهام وقضيبه، وأكّد أن عمر الملك عند الموت كان ما بين ١٨ إلى ٢٠ عامًا، وأكد أنه يوجد تشابه بين جمجمة توت عنخ آمون وجمجمة مومياء المقبرة ٥٥ في وادي الملوك.

أعتقد البعض أن الملك تلقى ضربة قاتلة على رأسه. وجاء الأمريكي جيمس هاريس إلى مصر لعمل أشعة إضافية على رأس الملك، واعتقد أن الملك مات ما بين عمر ٢٣ و٢٧ عامًا.

رفض علماء المصريات وفاة الملك في تلك السن الصغيرة! وتبيَّن أن الملك توفى وعمره ١٩ عامًا، وكان بصحة جيدة، ولم يكن يوجد أيّ دليل علي وجود ضربة على الرأس، وما حدث في رأسه كان لوضع مواد التحنيط من خلال الجمجمة.

لم يظهر أيّ دليل على أن الملك تلقّى أي إصابة في صدره، ورغم كل تلك الأضرار التي لحقت بالرأس والصدر التي تم تشريحهما، كشفَت الأشعة عن إصابة محتملة تعرَّض لها الملك قبل وفاته بفترة طويلة، فعظمة الفخذ الأيسر في الجزء السفلي للملك تم كسرُها، ويمكن أن يكون عظم الفخذ كُسر أثناء التحنيط، وهناك احتمالية أن هذا حدث وهو على قيد الحياة قبل وفاته ببضعة أيام، ولكن أثبت أطباء الأشعة أن الكسر الذي يوجَد في الرِّجل اليُسرى ناتجٌ عن حادث وقع قبل وفاة توت عنخ آمون ببضع ساعات، وربما لم يكن الحادث وحده السبب في موته.

ويؤكد الفريق المصري لدراسة المومياوات الملكية من خلال دراسته لمومياء الفرعون الذهبي، أن أشعة المسح الضوئي والاختبارات الحديثة كشفت أن العمود الفقري لتوت عنخ آمون كان منحنيًا قليلاً، وأن قدمه اليمنى كانت مقوسة قليلاً، وكانت قدمه اليسرى مشوهة

تمامًا، ولم يُقتل الملك. ومن خلال فحص المومياء، لا توجد أي علامة عن أي إصابة تلقَّاها الملك خلال حياته في الرأس أو الصدر. وكان لدى الملك العديد من الاضطرابات في قدمه، وربما يكون الحادث هو سقوطه من عربته الحربية قبل ساعات من وفاته مما أدى إلى كسر في رجله. وكان أيضًا مصابًا بمرض الملاريا، ومن الممكن أن الالتهابات المستمرة تكون قد أضعفت من جهازه المناعي مما جعله يُصاب بعدوى الملاريا القاتلة. ولا شيء من ذلك وحده أدى إلى وفاته، بل كل تلك الاضطرابات والأمراض تراكمت وأدت إلى وفاته وبسبب ضعفه لم يُنقذ.

ومن الممكن أن يكون ذلك الحادث قد حدث عندما كان يصيد الحيوانات البرية في عربته الحربية في الصحراء بالقرب من منف. وبسبب ضعفه وإعاقته، استسلم الفرعون الذهبي الملك توت عنخ آمون لجراحه مما أدى إلى وفاته وصعود روحه إلى السماء والتحامه بالأبدية مع آبائه الخالدين من ملوك مصر العظام. وللأسف ربما كانت تلك هي نهاية زوجها الفرعون الذهبي الملك الأشهر توت عنخ آمون!

وبعد وفاة ملك مصر، أرسلت أرملته رسالة من ملكة مصر إلى ملك الحيثيين تطلب منه أن يرسل إليها ابنه كي تتزوجه! ويشكك البعض في إرسال هذا الخطاب لملك الحثيين، غير أن أمر وجود الخطاب مؤكَّد، لكن هوية الملكة التي قامت بإرساله هي التي كان العلماء يختلفون بشأنها. وتم قتل الأمير الحيثي، ابن ملك الحيثيين، على حدود مصر - أغلب الظن - على أيدي القائد حور محب والأب الإلهي آي أغلب الظن، ففشل أمر زواجه من ملكة مصر، التي كانت غالبًا الملكة عنخ إس إن با آتون («عنخ إس إن آمون» لاحقًا)، أرملة الفرعون الذهبي الملك توت عنخ آمون! ورأوا في ذلك الفعل التي أقدمت عليه تلك الملكة خيانة وإهانة للكرامة الوطنية المصرية لاتصالها بملك الحيثيين في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر القديمة.

ومن المعروف أنه لم يكن يُسمح أبدًا بزواج الأميرات المصريات من الملوك والحكام والأمراء الأجانب؛ وذلك نظرًا لعزة المصريات وارتفاع مكانتهن في أعين آبائهن الملوك المصريين العظام. وعلى العكس من ذلك، قام الكثيرُ من الملوك المصريين بالزواج من الأميرات الأجنبيات، مثل الملك تحتمس الثالث، وتحتمس الرابع، وجدّ العائلة نفسها الفرعون الشمس الملك أمنحتب الثالث الذي تزوّج الكثير من أميرات بلاد الشرق الأدنى القديم. غير أن الحقيقة أن هذه الملكة كانت لا تريد أن تتزوج أحدًا من رعاياها أقل مكانة منها مما اضطرها للقيام بهذا الفعل؛ وذلك لعدم وجود زوج كفء لها تجري في عروقه الدماء الملكية ويصلح للزواج منها في تلك الفترة العصيبة من نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة. وبقتل ذلك الأمير

الحيثي شر قتلة، تحسَّر قلب أبيه، ملك الحثيين، على ولده الحبيب. ومن غير المعروف مَن كان وراء مؤامرة قتله، غير أنه من المؤكد أنه كان وراء قتله كبار قادة الدولة ورجال البلاط المصري أمثال قائد الجيش المصري الجنرال حور محب والأب الإلهي آي.

ربما تزوَّج الأب الإلهي ثم لاحقًا الملك «آي» من الملكة عنخ إس إن آمون قبل أن تختفي من الأحداث، ولم يتخذ الملك آي منها زوجته الكبرى، وربما ماتت في عهده أو بعد عهده القصير. وتم التنكيل بالملكة عنخ إس إن آمون وتم تدمير آثارها ومحوها ذكرها من الآثار؛ بسبب أنها ابنة الملك الموَحد الفرعون أخناتون الذي أطلق عليه خلفاؤه، خصوصًا في عصر الرعامسة، «الملك المرهق من تل العمارنة»؛ وبسبب أنها زوجةُ الملك توت عنخ آمون أيضًا. وحدثَ التنكيل لها ولآثار زوجها الفرعون الذهبي الملك توت عنخ آمون من قبل القائد العسكري حور محب، قائد الجيش في عهد أبيها الملك أخناتون وفي عهد زوجها الملك توت عنخ آمون، عندما صار مَلِكًا على مصر في نهاية الأسرة الثامنة عشرة. وكذلك ساهمت، زوجةُ الملك حور محب، الملكة موت نجمت، في تدمير آثار عنخ إس إن آمون واغتصاب آثارها ونسبها إلى نفسها؛ ولذا فإن الآثار الباقية من عهد هذه الملكة عنخ إس إن آمون تعد قليلة. غير أنه بالتدقيق في العديد من آثار الملكات اللاحقات عليها، خصوصًا آثار الملكة موت نجمت، يتضح لنا أنها آثار كانت تخص الملكة عنخ إس إن آمون، أرملة الفرعون الذهبي الأشهر الملك توت عنخ آمون، وتم اغتصابهن لآثارها.

وعُثر في مقبرة الفرعون الذهبي الملك توت عنخ آمون على مومياويين محنطين لطفلتين، إحداهما جنين غير مكتمل يبلغ خمسة أشهر، والأخرى لطفلة ماتت وقت الميلاد أو بعده مباشرةً. وثبت أنهما بنتا توت عنخ آمون، وربما من عنخ إس إن آمون، باعتبارها زوجته الوحيدة. وكانت المومياوبان محفوظتين في قسم التشريح بطب القصر العيني، وتم نقلهما للعرض، مع آثار أبيهما، الملك توت عنخ آمون، في المتحف المصري الكبير حين افتتاحه في المستقبل القريب.

ماتت الملكة. ولم يتم العثور على مقبرة لها، ومن المحتمل أنها قد تكون دُفنت في مقبرة ٦٣ في وادي الملوك المجاورة لمقبرة زوجها الملك توت عنخ آمون. وأجريت دراسات الدي إن إيه (الحامض النووي) لتحديد مومياء عنخ إس إن آمون، التي قد تكون إحدى المومياويين الملكتين من الأسرة الثامنة عشرة المكتشفتين في المقبرة رقم ٢١ من مقابر وادي الملوك، وربما تكون المومياء رقم كي في ٢١ إيه، هذا إذا تم غض النظر عن تلك المومياء المكتشفة في مقبرة رقم ٥٥ في وادي الملوك التي تخص والدها الملك أخناتون أغلب الظن، وما يزال الأمر قيد البحث والدراسة.

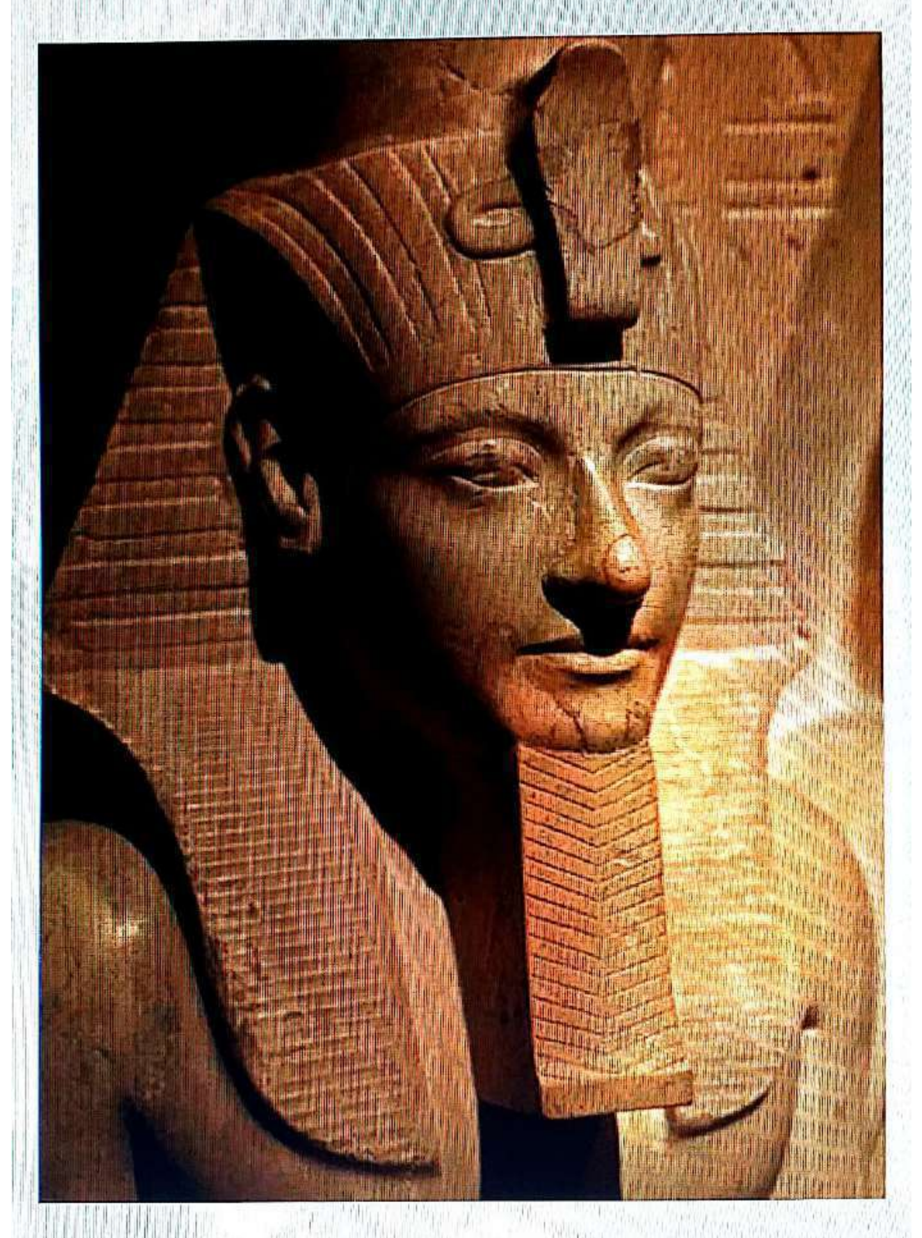
عنخ إس إن آمون ملكة مهمة عاصرَتْ فترة مثيرة من تاريخ مصر. وكانت ابنةً لأخناتون ونفرتيتي وزوجة لتوت عنخ آمون. ومات عنها زوجها. وشهدت نهاية الأسرة في تلك الفترة الثرية والمثيرة من تاريخ مصر العظيمة، وشهدت كذلك أفول وغروب نجم عصر العمارنة المثير، تلك الفترة المهمة والغامضة والمدهشة من تاريخ مصر القديمة قاطبة.

الملك حور محب

كان الفرعون والقائد العسكري حور محب آخر فراعنة الأسرة المصرية الثامنة عشرة في مصر الفرعونية. واسمه الكامل حور محب ميري آمون ومعناه «حور في عيد، محبوب آمون». ولا نعرف الكثير عن خلفية الفرعون حور محب، غير أننا نعرف أنه كان القائد العام لجيش الملك أخناتون. وبدأت أهمية حور محب تظهر في عهد الفرعون الصغير الملك توت عنخ آمون حيث أنه ظهر مصوَّرًا إلى جانب الملك في مقبرته كقائدٍ عسكريٍ والتي بناها حور محب لنفسه في منطقة سقارة قبل أن يصبح حاكمًا لمصر، ولعب دور المتحدث الملكي الخارجي باسم مصر. وقاد شخصيًا إحدى البعثات الدبلوماسية لزيارة حاكم النوبة، وبناءً على ذلك، تمت الزيارة التي قام بها حاكم النوبة للملك توت عنخ آمون. وارتفع حور محب في الأهمية في عهد توت عنخ آمون، وأصبح القائد العام للجيش ومستشار فرعون للشؤون الخارجية.

وكان هناك وزيران لتوت عنخ آمون، وهما الأب الإلهي آي والآخر كان هو القائد العسكري الجنرال العظيم حور محب. وبعد وفاة توت عنخ آمون، استلم الملك آي مقاليد الحكم لفترة قصيرة. ثم جاء من بعده عدوه اللدود ومنافسه الوزير الثاني القائد العسكري الجنرال العظيم حور محب الذي تم في عهده التدمير المنهجي لمعظم آثار فترة حكم توت عنخ آمون والملك آي.

وأعاد حور محب الاستقرار إلى مصر بعد فترة من الفوضى، وضرب بيدٍ من حديد على أيدي العابثين والمفسدين في الدولة المصرية آنذاك. وكان الملك حور محب أول من وضع تشريعات وقوانين لتنظيم حياة العامة في التاريخ، واهتم بإصدار العديد من القوانين التي تنظم العلاقة بين الفرد والسلطة الحاكمة. وبدأ حور محب سلسلة شاملة من الإصلاحات الداخلية لمنع سوء إساءة استخدام السلطة، وقلّل من الامتيازات التي كانت في أيدي المسؤولين وكانت قد بدأت في عهد أخناتون. وأعاد المركزية والهيبة للدولة، وقضى على الامتيازات التي كانت في أيدي عددٍ قليل من المسؤولين. ولما تولى حور محب الحكم أعاد الانضباط إلى الإدارة الحكومية، وعيّن القضاة، وأعاد السلطات الدينية المحلية، وقسّم السلطة في حكم الصعيد والدلتا بين وزراء من طيبة ومنف على التوالي.



تمثال الملك حورمحب

كانت سياسة أخناتون قد أفقدت مصر إمبراطوريتها التي أسسّها الملوك العظام تحتمس الأول وتحتمس الثالث، فأعاد حور محب لمصر هيبتها في الخارج، واختار حور محب، رفيقه في الجيش الوزير رمسيس (الملك رمسيس الأول بعد ذلك)، خليفة له على العرش.

حور محب فرعون عسكري من طراز رفيع جاء لحكم مصر لضرورة اقتضتها الظروف في مصر بعد فترة عصر العمارنة المضطربة والخاصة بحكم أخناتون وخلفائه، وأعاد حور محب الاستقرار للبلاد، وفتح لمصر صحفة من المجد باختياره قائده العسكري الفذ رمسيس كي يخلفه على عرش مصر باسم رمسيس الأول، فاتحا بذلك صفحة عظيمة من مجد مصر التليد، وأعني فترة حكم الرعامسة، وأولها الملك رمسيس الأول وابنه الملك سيتي الأول وحفيده الملك رمسيس الثاني بطل الحرب والسلام الأول في التاريخ.

الملكة موت نجمت

تنتمي الملكة موت نجمت إلى ملكات عصر العمارنة ونهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة، ويعني اسمها «(الربة) موت الحلوة». وكان أبوها ربما الملك «آي» وأمها الملكة تي (أخرى غير زوجة الملك أمنحتب الثالث). وكانت الزوجة الملكية الكبرى للفرعون والقائد العسكري السابق الملك حورمحب، آخر فراعنة عصر الأسرة الثامنة عشرة.

وحملت من الألقاب والصفات الملكية المهمة «الأميرة» و«الزوجة الملكية الكبرى» و«عظيمة المديح» و«سيدة الفضل» و«حلوة الحب» و«سيدة مصر العليا والسفلى» و«مغنية حتحور» و«مغنية آمون».

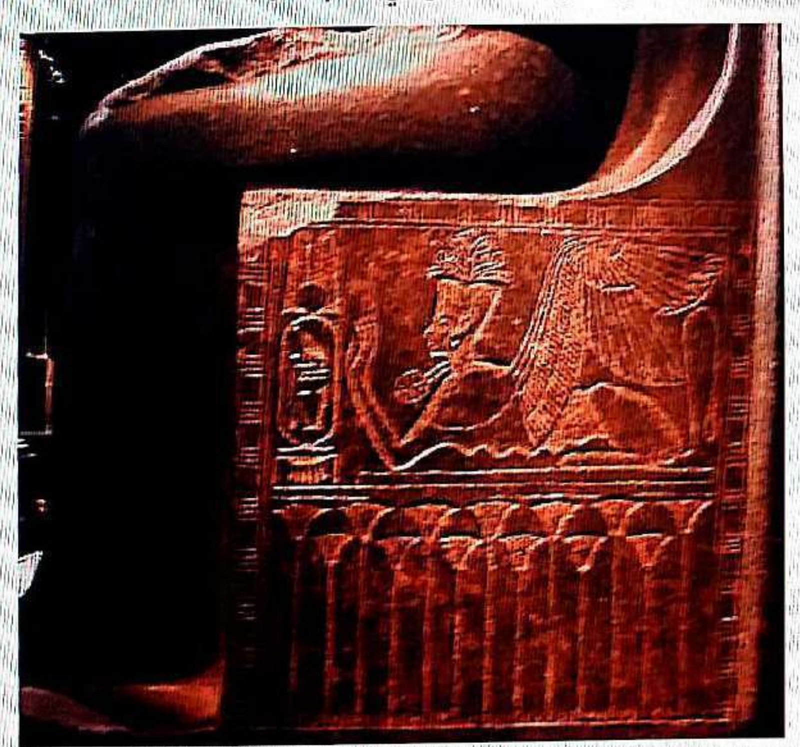
ويميل البعض إلى الاعتقاد بأن موت نجمت كانت أخت الملكة نفرتيتي التي كانت تحمل اسم «موت بنرت»، (بمعنى «موت الحلوة»)، وأنها هي التي أعطت زوجها الملك حور محب الشرعية وجعلت منه حاكمًا لمصر. وربما كانت هي موت نجمت التي ظهرت في مقابر العمارنة التي كانت تحمل بها لقب «أخت زوجة الملك الكبرى»، بيد أن البعض يعتقد أنها ليست هي، وأنها قد تزوجت من حور محب حين كان قائدًا عسكريًا في نهاية عصر العمارنة، وأنها مثلها مثل الملك لم تكن تنتمي للدم الملكي.

وذُفنت الملكة موت نجمت في مقبرة في منطقة سقارة الأثرية التي كان قد شيَّدها زوجها حور محب لنفسه عندما كان قائدًا للجيش، وقبل أن يصعد إلى سدة الحكم بعد رحيل الملك «آي»، وزواجه ربما من ابنته الأميرة موت نجمت.

ظهرت الملكة موت نجمت على كثير من الآثار من تلك الفترة، ولعلَّ من بين أهمها، تمثال التتويج الأشهر لزوجها الفرعون العسكري الملك حور محب والذي تظهر فيه معه، وكان قد عُثر على هذا التمثال في معابد الكرنك. ويوجد هذا التمثال في المتحف المصري في مدينة تورينو الإيطالية. ولعلَّ من أروع ما صُوِّر على هذا التمثال هو تمثيل الملكة موت نجمت على هيئة تمثال «أبو الهول» المجنح على الجانب الأيسر من كرسي العرش لهذا التمثال. وفي هذا المشهد، تتعبد الملكة لاسمها المكتوب داخل الخرطوش الملكي، ذلك الشكل البيضاوي الذي كانت تُكتب فيه أسماء ملوك مصر القديمة، ومن فوق الخرطوش قرص الشمس الذي تكتنفه ريشتان طوليتان. وظهرت الملكة ترتدي التاج ذا القمة المسطحة، ومن فوقه عناصر نباتية مرتبطة بربة الرطوبة الإلهة تفنوت والملكة تي زوجة الفرعون الشمس الملك أمنحتب الثالث. وعلى ظهر التمثال، كتب الفرعون العسكري الملك حور محب قصة صعوده لحكم مصر العظيمة.

تم تصوير الملكة موت نجمت وزوجها الفرعون حور محب في مقبرة النبيل روي، المقبرة رقم ٢٥٥ في منطقة دراع «أبو النجا» في جبانة طيبة الغربية بالبر الغربي لمدينة الأقصر الحالية. وفي هذه المقبرة، يظهر الملك وزوجته الملكة يقدمان القرابين.

يوجد تمثال ضخم يخص الملك حور محب في معابد الكرنك، وتحديدًا في الجانب الشمالي للصرح العاشر من صروح معابد الكرنك، وتم تصوير الملكة موت نجمت عليه. وللأسف تم اغتصاب هذا التمثال من قِبَل الملك رمسيس الثاني ونسبه لنفسه وعليه صور نفسه وزوجته الشهيرة الملكة الجميلة نفرتاري، بدلاً من الملك حور محب والملكة موت نجمت. وهذا ليس غريبًا على الملكة موت نجمت نفسها فقد قامت بنفس الفعل واغتصبت لنفسها عددًا من نقوش سابقتها، وربما قريبتها، الملكة عنخ إس إن آمون، زوجة الملك توت عنخ آمون، في منطقة الأقصر، مما قلل من وجود الآثار الخاصة بعنخ إس إن آمون في الأقصر. وعُثر على عدد كبير من التماثيل، أو غالبًا كسرات التماثيل، وبعض كسرات الألباستر تحمل اسم الملكة موت نجمت في مقبرة زوجها الملك حور محب في سقارة. وبعض من تلك الآثار تحمل نصوصًا جنائزية تخص تأمين رحلة المتوفى في العالم الآخر.



(موت نجمت على هيئة تمثال «أبو الهول» المجنح تتعبد لاسمها المكتوب

بالخرطوش الملكي)

ماتت الملكة موت نجمت بعد العام الرابع عشر أو الخامس عشر من حكم زوجها الملك حور محب. وكانت غالبًا في منتصف العقد الخامس من عمرها، وذُكِرَ إنه قد عُثر على مومياء الملكة موت نجمت في مقبرة زوجها في سقارة، وكذلك عُثر على مومياء طفل حديث الولادة، غير أنه لا يعرف أين مومياء موت نجمت الآن. ومن الظاهر أن الملكة موت نجمت دُفنت في هذه المقبرة مع الزوجة الأولى لحور محب، التي تزوجها حينما كان قائدًا للجيش، السيدة «أمنيا». ويظهر من مومياء موت نجمت أن أنجبت كثيرًا، غير أنها لم تنجب ولي العهد الذكر لزوجها الملك حور محب، ويدلل دفن مومياء الطفل حديث الولادة معها على أنها ربما ماتت وهي تلد هذا الطفل. وكانت لموت نجمت ابنة غير أنها لم تُذكر على أي من الآثار. وكان عدم وجود وريث ذكر لهذا الملك هو النهاية الفعلية للأسرة الثامنة عشرة، وربما كانت موت نجمت هي صاحبة المقبرة رقم ٣٣ في وادي الملكات في البر الغربي لمدينة الأقصر، ومن المعروف أن هذه المقبرة تخص ملكة غير معروفة تدعى «تا نجمت» بمعنى «اللذيذة» أو «الحلوة»، غير أن تشابه الاسمين وبعض المقاطع في الاسمين قد يسمح بصحة نسب المقبرة لموت نجمت.

موت نجمت ملكة عاشت في فترة مثيرة وشهدت نهاية الأسرة، وكان عدم إنجابها ولد ذكر لزوجها الملك والقائد العسكري حور محب سببًا في نهاية الأسرة الثامنة عشرة والتعجيل بنهايتها ونهاية عصر العمارنة، وبزوغ عصر الملوك الرعامسة العظام، وأشهرهم نجم الأرض الفرعون الأشهر جدنا الأعظم نجم الأرض وملك الملوك الملك رمسيس الثاني.

الملك سيتي الأول

يعتبر الفرعون الشهير سيتي الأول من أعظم وأشهر الفراعنة المحاربين في عصر الدولة الحديثة والأسرة التاسعة عشرة. وعُرف بـ «من ماعت رع». وهو ابن الملك رمسيس الأول والملكة سات رع، وكان قد حكم أبوه رمسيس الأول، الذي أسس الأسرة التاسعة عشرة، عامين فقط؛ بسبب تقدمه في العمر وقت اعتلائه العرش، فخلفه سيتي الأول على عرش مصر.

غير أن شهرة ابنه الأشهر نجم الأرض الملك رمسيس الثاني سحبت البساط من تحت قدمي والده الملك سيتي الأول وجعلت كل الشهرة والمجد من نصيب ولده الملك رمسيس الثاني. واسمه سيتي يعني: المنتسب للرب «ست»، الرب الشهير في مصر القديمة خصوصًا في قصة إيزيس وأوزيريس الأسطورية.

وقام الفرعون المحارب العظيم الملك سيتي الأول بتوطيد السلطة المصرية في بلاد الشام في سوريا وفلسطين. وقاوم الحيثيين الذين كانوا يحكمون منطقة أسيا الصغرى (في بلاد الأناضول أو تركيا حاليًا) بنجاح وعقد معهم معاهـدة سلام وعدم الاعتداء عليهم.



(الملك سيتي الأول)

وأقام سيتي الأول العديد من الآثار، ولعلّ من بين أهمها صالة الأعمدة الكبرى بمعابد الكرنك. وكان قد تم البدء في تشييدها قبل ذلك، ثم زخرفتها في عهد سيتي الأول بمناظر طقسية، وتم التصوير على الجدران الخارجية الانتصارات العسكرية الكبيرة للفرعون على البدو الذين كانوا يغيرون على حدود مصر الشمالية، والليبيين، والأموريين في قادش في سوريا، والحيثيين.

ويُعتقد أن الفرعون المحارب سيتي الأول مات دون الأربعين من عمره، على عكس أبيه الملك رمسيس الأول وولده الملك رمسيس الثاني اللذين عاشا طويلاً وماتا في سن متقدِّمة.

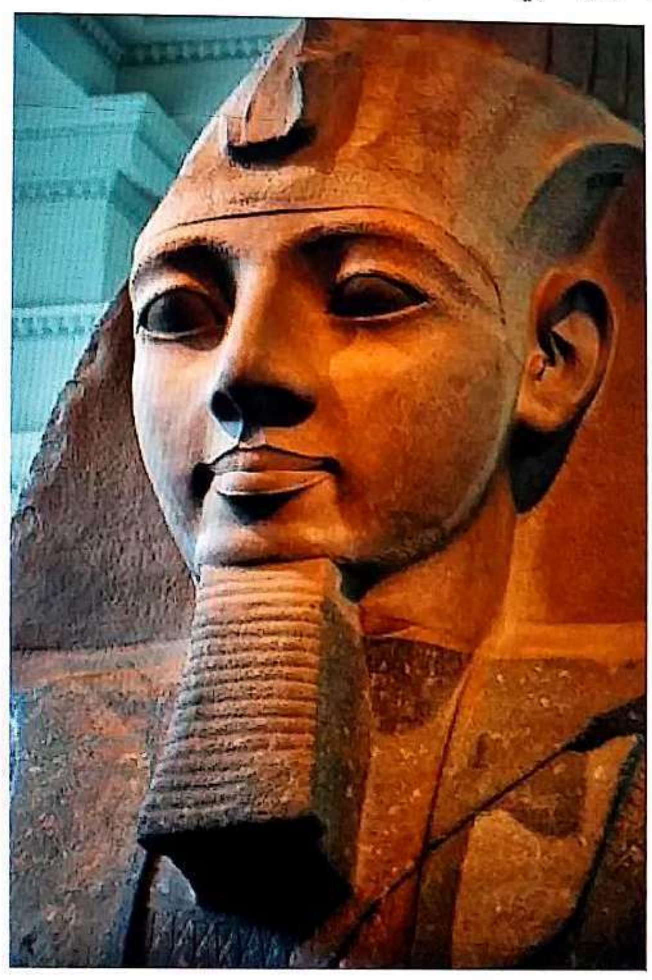
الملك سيتي الأول فرعون محارب عظيم حارب وأعاد لمصر هيبتها وعظمتها في الشرق الأدنى القديم بعد أن كانت قد أوشكت على الضياع في نهايات الأسرة الثامنة عشرة خصوصًا بعد ملوك العمارنة وأعني الملك أخناتون وخلفاءه. وحقَّق الملك سيتي الأول مجدًا عظيمًا وشهرة كبيرة، غير أن شهرة ابنه الملك رمسيس الثاني العظيم طغت على شهرة الفرعون المحارب أبيه الملك سيتي الأول.

الملك رمسيس الثاني

رمسيس الثاني هو فرعون المجد والانتصار.

رمسيس الثاني هو فرعون الحرب والسلام.

رمسيس الثاني هو نجم الأرض وأشهر ملوك الفراعنة والذي ملأ الدنيا وشغل الناس جميعًا. اعتلى رمسيس الثاني العظيم عرش مصر وهو شاب صغير، ابن الخامسة والعشرين من عمره المديد، كي يسطر أسطرًا من نور ومجد وعزة وفخار في تاريخ مصر القديمة والشرق الأدنى القديم والعالم القديم، وكأن القدر كان على موعد مع مولد وتولي حكم مصر لذلك الملك الأسطوري رمسيس الثاني ملك الملوك وسيد العالم القديم.



تمثال الملك رمسيس الثاني بالمتحف البريطاني بلندن

صار هو رمسيس العظيم على الرغم من وجود عدد كبير من الملوك الفراعنة الذين حملوا اسم رمسيس من قبله، مثل جده رمسيس الأول في أسرته الأسرة التاسعة عشرة، وخلفائه من رمسيس الثالث إلى رمسيس الحادي عشر في الأسرة التالية وأعني الأسرة العشرين، وصار علمًا واسمًا على عصر كامل، وهو عصر الرعامسة أي ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، عصر المجد في مصر القديمة. عندما نقول رمسيس دون تحديد ترتيبه في الأسرتين أو في العصر أو في مصر القديمة عمومًا، فيعلم الجميع في العالم كله، أننا نقصد دون شك نجم الأرض وملك الملوك رمسيس الثاني العظيم الخالد.

كان رمسيس الثاني العظيم هو ابن الفرعون المحارب الخالد الملك سيتي الأول العظيم وابن الملكة تويا، ويعني اسم رمسيس «الإله رع خلقه» واسمه الكامل «رمسيس مري آمون» ويعني «الإله رع خلقه، محبوب الإله آمون». واسم العرش الخاص به هو «وسر ماعت رع ستب إن رع» أي «عدالة الإله رع قوية، المختار من الإله رع».

تزوج رمسيس الثاني عددًا كبيرًا جدًا من النساء، لعلَّ أشهرهن هي الملكة الفاتنة وحلوة الحب جميلة الجميلات الملكة نفرتاري، وكذلك أنجب عددًا كبيرًا من البنين والبنات، لعلَّ أشهرهم ابنه وولي عهده الملك مرنبتاح والأمير الزاهد الناسك الشهير خع إم واس والأميرة ثم الملكة ميريت آمون، ولم ينجب ملك مصري قديم مثلما أنجب رمسيس الثاني العظيم من أبناء كثيرين. وحكمَ مصر فترة طويلة تبلغ حوالي سبعة وستين عامًا، وامتاز عهده بالعظمة والمجد والضخامة في كل شيء خصوصًا في أعمال البناء والتشييد والتي امتدت في أركان الكون الأربعة خصوصًا في أرض مصر الطيبة وبلاد النوبة وبلاد الشام وعلى ساحل البحر المتوسط. ولم يشيد ملك مصري قديم من معابد وتماثيل ضخمة ومسلات مثلما بنى رمسيس الثاني العظيم. وكان زمنه بحق عصر رمسيس الثاني العظيم، وامتد به العمر طويلاً ومات في سن متأخرة بعد العام التسعين من عمره المديد، وعندما مات تم دفن الفرعون المقدس بكل جلال الملكية المصرية المقدسة التي تليق بعظمة جلالة الملك رمسيس الثاني العظيم في مقبرته رقم ٧ في منطقة وادي الملوك في البر الغربي لمدينة الأقصر الشهيرة بصعيد مصر الخالد. ووضع جلالة الملك رمسيس الثاني العظيم بصمته، التي لا يمكن محوُها أبدًا، في ذاكرة مصر والشرق الأدنى القديم والعالم القديم. إنه رمسيس الثاني العظيم الخالد عبر العصور والأزمان.

وسجَّل جلالة الملك رمسيس الثاني العظيم مناظر الاحتفال بنصره في معركة قادش على الحيثيين في مناظر ونصوص عديدة في آثارها التي تملأ البلاد في طولها وعرضها، وعندما

كان رمسيس أميرًا صغيرًا تأثر كثيرًا بالتقاليد العسكرية التي أرساها جده الملك رمسيس الأول الذي أطلق اسمه عليه تيمنا به، وشارك رمسيس في سن صغيرة مع أبيه الملك المحارب العظيم سيتي الأول حملاته العسكرية ضد الحيثيين، وتم أيضًا تصوير الأمير رمسيس مع أبيه سيتي الأول في حملاته ضد الليبيين على جدران الكرنك.

كانت مع العلاقات مع الحيثيين على الحدود المصرية في سوريا غير جيدة في الفترة الأولى من حكم رمسيس الثاني العظيم. وفي عهده والده الملك سيتي الأول، سيطرت مصر على الموانئ الساحلية الفينيقية الجنوبية، بينما سيطر الحيثيون على مدينة قادش. وفي العام الرابع من حكم رمسيس الثاني حدث تمرد في بلاد الشام وفي ربيع العام الخامس عام ١٢٧٥ قبل الميلاد، اضطر الملك الجديد لتحريك جيشه. فقام الملك بتجميع واحدة من أعظم تجميعات الجيش المصري وكانت تبلغ حوالي عشرين ألف مقاتل في أربع فرق وكانت كل فرقة قوامها حوالي خمسة آلاف مقاتل، وحملت كل فرقة اسمًا من أسماء آلهة مصر العظام على النحو التالي: آمون، ورع، وبتاح، وست. وصار الملك رمسيس الثاني على خطى جده المقاتل الأشهر الملك تحتمس الثالث الذي سبقه في الحكم بحوالي مائتي عام، فدخل قطاع غزة وكان على مقربة عشرة أميال من مدينة قادش في بداية شهر مايو. وفي ذلك التوقيت تم القبض على جاسوسين وبسؤالهما عن مكان الحيثيين من مدينة قادش، أفادا بأن الحيثيين على مبعدة مائة ميل إلى الشمال. وبناء على هذا، تحرك رمسيس الثاني بفرقة آمون وهي الفرقة الوحيدة التي كانت معه، وعبر نهر العاصي، وعسكر على الغرب من قادش، وكانت قادش مدينة محصنة أشبه بالجزيرة. وهنا قبض رجال الجيش المصري على جاسوسين حقيقيين وقالا لهما الحقيقة تحت التعذيب بأن الجيش الحيثي يعسكر على الجانب من مدينة قادش منتظرًا الهجوم.

وكان ملك الحيثيين مواتشلي قد جمع جيشًا كبيرًا أكبر من جيش الملك رمسيس الثاني. وكان جيشه مقسمًا إلى قسمين أحدهما كان مكونًا من حوالي ١٨ ألف مقاتل والآخر من حوالي ١٩ ألف مقاتل، بالإضافة إلى ألف وخمسمائة عربة حربية. وكانت هذه قوة عسكرية كبيرة، وانقضت على فرقة الإله رع التي كانت في طريقها للانضمام للملك رمسيس الثاني. وهاجمت القوات الحيثية جيش مصر بضراوة، واقتحمت المعسكر المصري، وسيطر الارتباك على الملك رمسيس الثاني، وصار منعزلاً عن بقية قواته، وكان معه حارسه الشخصي حامل درع المدعو منا. وكقائد عسكري بارع، اعتمد رمسيس الثاني العظيم على قواته القليلة وأخذ يجمعها ليصد الهجوم الحيثي. وحارب الملك رمسيس الثاني بضراوة مما اضطر الملك الحيثي للتراجع في المساء. وفي اليوم التالي، تجمع الجيش المصري وحارب بشدة. وهنا عرض الملك الحيثي السلام على الملك رمسيس الثاني. فعاد الجيش المصري بسلام إلى

أرض الوطن، ثم تم عقد معاهدة السلام بين المصريين والحيثيين، وتم تتويج تلك المعاهدة بزواج رمسيس الثاني من الأميرة الحيثية ابنة الملك الحيثي خاتوشِلي الثالث، ثم تزوجت الملك رمسيس الثاني من أختها بعد ذلك بحوالي سبع سنوات.

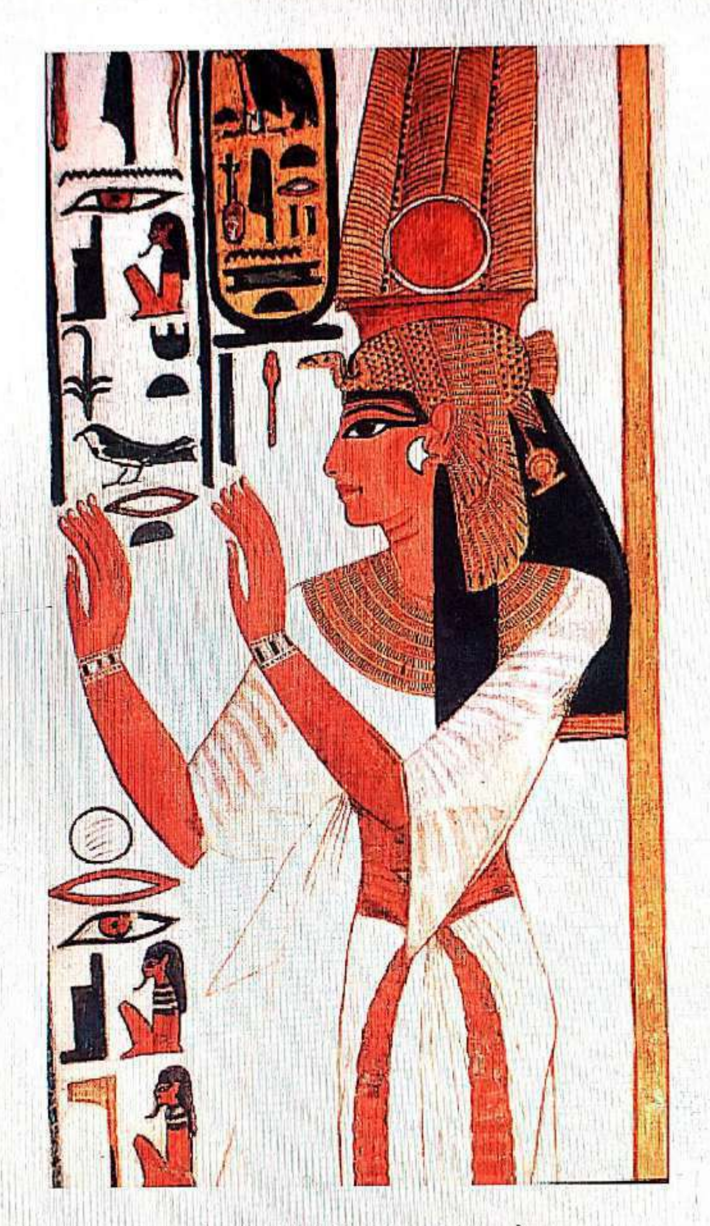
رمسيس الثاني العظيم ملك الملوك الذي جعل من نفسه ملك الحرب والسلام ومن مصر أرض المجد والانتصارات؛ لذا فقد عاش في ذاكرة مصر والعالم أبد الأبدين.

الملكة نفرتاري

الملكة نفرتارى هي جميلة الجميلات والملكة الأجمل والأكثر سحرا وجاذبية وفتنة، والزوجة الملكية الكبرى، والأجمل والأحب في قلب زوجها نجم الأرض، فرعون مصر الأشهر، ملك الملوك الملك رمسيس الثاني الذي عاش في عصر الأسرة التاسعة عشرة في عصر الدولة الحديثة.

اسمها الكامل هو «نفرتاري ميريت موت»، ويعني «نفرتاري محبوبة الربة موت»، ويعني اسمها المختصر الأشهر «نفرتاري»، «أحلاهن»، أو «حلاوتهم» بالعامية المصرية.

كان من فرط وعظم حب وإعزاز وتقدير رمسيس الثاني لزوجته المحبوبة نفرتاري هو أن أمر بتصويرها معه في معظم آثاره، وبناء الآثار الكبيرة والجميلة لها مثل مقبرتها البديعة في وادي الملكات رقم ٦٦ ومعبدها إلى جوار معبده في «أبوسمبل.»



(جميلة الجميلات الملكة نفرتاري)

تقع مدينة «أبو سمبل» إلى الجنوب من أسوان على الضفة الغربية لنهر النيل في النوبة المصرية بالقرب من حدود مصر مع السودان الشقيق. وبنى الفرعون الأشهر رمسيس الثاني بـ «أبوسمبل» معبدين في الصخر، المعبد الكبير له، والمعبد الصغير لمحبوبة قلبه الجميلة نفرتاري.

كان معبد «أبوسمبل» الكبير واحدا من أربعة معابد بُنيت خلال فترة حكم الملك رمسيس الثاني كوحدة واحدة، والثلاثة الأخرى هي: معبد وادي السبوع (مقر المعبود آمون رع) ومعبد الدر (مقر المعبود رع حور آختي) ومعبد جرف حسين (مقر المعبود بتاح). وقد أمر الفرعون رمسيس الثاني مهندسيه البارعين بالبدء في بناء معبديّ «أبو سمبل» في السنوات الأولى من فترة حكمه العريق، واكتمل العمل فيهما في العام الخامس والعشرين من حكمه المديد.

يطل معبد «أبو سمبل الكبير» على بحيرة ناصر في منظر جمالي رائع قلّما أن يتكرر في أي مكان أثري آخر؛ حيث تتزاوج زُرقة السماء الصافية بزُرقة المياه الرائقة ورمال صحراء مصر الصفراء النقية بصخور المعبد الداكنة وخضرة الأشجار والنباتات الموجودة في المنطقة بسمرة أبناء مصر المميزة.

يعتبر معبد «أبو سمبل» الكبير من روائع فن العمارة في مصر القديمة. ومن أروع معالم معبد «أبو سمبل» الكبير هو اختراق شعاع الشمس باب المعبد ليصافح وجه رمسيس الثاني مرتين من كل عام في ظاهرة هندسية وفلكية تثير الانبهار باستمرار. ويؤكد هذا على عبقرية المصري القديم التي لها أدلة كثيرة ما تزال تحير العالم كله إلى يومنا الحالي. وتُعَد ظاهرة تعامد الشمس على وجه تمثال الملك رمسيس الثاني بذلك المعبد المهم حدثًا فريدًا ينتظره عشاق مصر في كل مكان في العالم.

يقع معبد «أبو سمبل» الصغير أو معبد جميلة الجميلات الملكة نفرتاري إلى جوار المعبد الكبير الخاص بزوجها الفرعون الشهير الملك رمسيس الثاني. ومن أجل الجميلة نفرتاري، بنى لها زوجها ذلك المعبد المتميز المنحوت في الصخر الطبيعي، ونُحتت تماثيل عديدة في واجهة المعبد تمثل الملك العظيم وزوجته الجميلة التي أبهرت العالم، قديمًا وحديثًا، بجمالها وجاذبيتها وعذوبتها ورقتها التي لا تُقاوم. ثم تتوالى الأجزاء المعمارية المكوِّنة لهذا المعبد المهم. وصارت نفرتاري الزوجة العظمى للملك رمسيس الثاني، على الرغم من تعدُّد زيجاته ومحظياته، وكانت نفرتاري أم ستة من أهم أبناء الملك رمسيس الثاني، ومن فرط حبه الشديد لزوجته فائقة الجمال، أمرَ الملك المعظم بإنشاء مقبرة رائعة لها في وادي الملكات.

وقد حملت منطقة وادي الملكات في مصر القديمة أسماء عدّة مثل «الوادى العظيم»، و«الوادي الجنوبي»، و«تا ست نفرو»، ويعني الاسم الأخير «مكان الجمال»، وشاع أكثر من الاثنين السابقين. وأسس في البداية كجبّانة مُخصَّصة لدفن نساء الطبقة الحاكمة من المجتمع المصري القديم في بداية عصر الدولة الحديثة على الشاطئ الغربى لنهر النيل المواجه لمدينة الأحياء في شرق طيبة (الأقصر الحالية). ولم تبدأ الحفائر العلمية المنظمة إلا في عام ١٩٠٣، بوصول الإيطالي الشهير «إرنستو سيكياباريللي» - مدير المتحف المصري في

تورينو- وحصوله على التصريح بالتنقيب في الوادي من مصلحة الآثار، فنجح في اكتشاف مقبرة الملكة الفاتنة نفرتاري، جميلة الجميلات.

ومنذ العثور على تلك المقبرة الجميلة، اعتبرت واحدة من أجمل المقابر التي أبدعتها مخيلة المصريين القدماء فكرًا وأداءً، فبلغت الرسوم المصوَّرة على جدرانها وممراتها ٥٢٠ مترًا مربعًا من الجمال الساحر. وحين اكتشفها سيكياباريللي في عام ١٩٠٤، فتح الباب ليطل العالم على واحدة من أجمل الإبداعات الفنية في العالم عبر تاريخ الفن البشري الطويل، وعلى واحدة من أجلّ وأجمل المقابر القادمة من مصر الفرعونية ذات الرسوم التي تخلب الأبصار، وتسحر العقول بجمال مناظرها، وتنوع موضوعاتها، ونقاء وصفاء ألوانها. وأصبح من المفضل عند عشاق الجمال الراغبين في نشدان البهجة زيارة هذه المقبرة للنهل من جمالها الأخاذ، وأصبح الجمال علامة وعنوانًا عليها وعلى صاحبتها، جميلة الجميلات، كما كانت الحال في حياتها الأولى المليئة بالجمال والحب والسعادة والعشق في عهد مليكها العاشق الأبدي لها ولجمالها التي كانت تنافس به حتحور ربة الحب والجمال عند قدماء المصريين. وتحوّل الطموح الفني الذي راود وساور صاحبتها ومبدعيها إلى حقيقة واقعة واضحة كوضوح الشمس في كبد السماء في نهار مشمس رائق العذوبة.

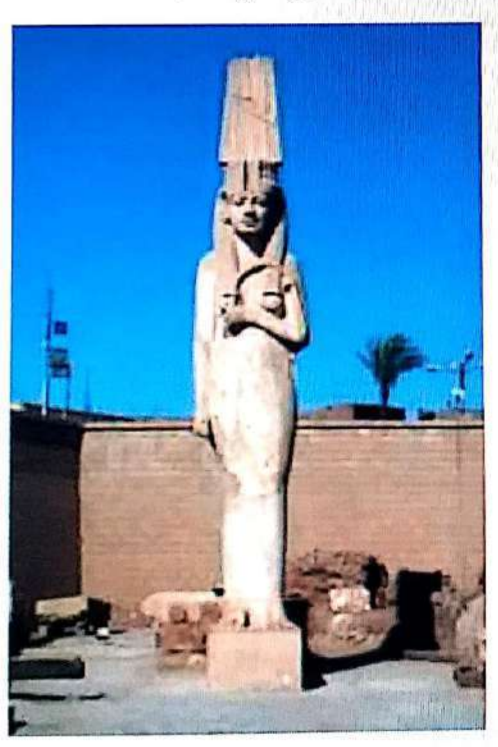
وماتت نفرتاري مبكرًا في عهد زوجها الملك رمسيس الثاني، في حدود العام الرابع والعشرين من حكم الملك المديد، ودفنت في مقبرتها الأشهر والأكبر والأهم بين مقابر وادي الملكات في البر الغربي لمدينة الأقصر.

لقد كانت جميلة الجميلات نفرتاري ملكة قوية ومؤثرة بقوة في عهد زوجها، نجم الأرض الفرعون الأشهر، الملك رمسيس الثاني، ولعبت آنذاك دورًا كبيرًا في الشؤون الدبلوماسية في الدولة المصرية العريقة؛ نظرًا لما كانت تتمتع به من مهارات عديدة مثل فنون الكتابة، خصوصًا الكتابة الهيروغليفية، والقراءة وأصول وفنون علم المراسلات الدبلوماسية، فأفادت بمهاراتها الكبيرة مصر وزوجها الملك العظيم الشأن في الشرق الأدنى القديم، فضلاً عن حبها وإخلاصها لزوجها الملك المعظم مما جعل من قصة حب رمسيس الثاني ونفرتاري أعظم قصص الحب والعشاق التي خلّدها الإنسان في الحجر والفن قبل أن يخلدها في فنون الأدب والقول.

الملكة مِيريت آمون

كانت الجميلة مِيريت آمون، أو محبوبة آمون، الابنة الغالية عند أبيها الفرعون العظيم الملك الأشهر رمسيس الثاني نجم الأرض، وفرعون الفراعنة، وعند أمها الملكة الشهيرة جميلة الجميلات، نفرتاري، أو حلاوتهم، كما يعني اسمها في اللغة المصرية القديمة.

وظهرت ميريت آمون على أنها الابنة الرابعة في قائمة البنات على واجهة معبد أمها الملكة نفرتاري في أبو سمبل. وعندما توفيت والدتها (حوالي الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين من حكم رمسيس الثاني)، أصبحت مِيريت آمون الزوجة الملكية العظيمة، وحملت الكثير من الألقاب المهمة مثل ملكة مصر، والزوجة الملكية الكبرى، وسيدة الأرضين، وسيدة مصر العليا والسفلى، وابنة الملك، والمحبوبة من الملك.



(تمثال الملكة ميريت آمون بأخميم)

تم تصوير مِيريت آمون في عددٍ كبيرٍ من التماثيل والمعابد مع والدها ووالدتها. ولعلّ أجملها وأشهرها تمثال ميرت آمون في أخميم، أو تمثال العروسة، كما يُطلِق عليه الناس في أخميم، ويُعجَب مُشاهِد التمثال بسحرها وجمالها الفرعوني؛ إذ تظهر في أبهى زينتها، ويلقبها الجميع

بالملكة الجميلة.

وتم اكتشاف التمثال في عام ١٩٨١ ميلادية وبجواره تمثال آخر صغير لها. وعلى عمود ظهر التمثال، تُعرف الملكة بأنها «... جبهتها جميلة تحمل الصل الملكي، حبيبة سيدها، العظيمة من حريم آمون رع، وعازفة السيستروم للربة موت، وعازفة المنات للربة حتحور، ومطربة آتوم، وابنة الملك المحبوبة، جميلة الوجه، وجميلة في القصر، وحبيبة رب الأرضين، يسعد المرء بما قيل عندما تفتح فمها لتهدئة رب الأرضين، ابنة الملك في القصر.»

وتشتهر ميريت آمون بتمثالها الجميل الآخر المنحوت من الحجر الجيري، أو تمثال الملكة البيضاء في معبد الرامسيوم بالأقصر. وتظهر على واجهة معبد أبو سمبل الكبير حيث يظهر التمثال العملاق في أقصى الشمال ابنة الملك، ومحبوبته، ميريت آمون. وتمَّ تزيين معبد أبو سمبل الصغير المخصص للملكة نفرتاري بتمثالين كبيرين للملكة نفرتاري محاطين بابنتين هما الأميرتان ميريت آمون وحنوت تاوي.

ويُظهر السجل العلوي للوحة الصخرية في «أبو سمبل» لنائب الملك في النوبة، حِقا نخت، رمسيس الثاني والأميرة ميريت آمون يعبدان الآلهة. ويُعتقد أن تلك اللوحة تمثل ميريت آمون في دور نائبة الملكة لأمها التي من المحتمل أن تكون مريضة.

وفي الأقصر، صُوِّرت ميريت آمون مرتين على تماثيل والدها، ويظهر التمثال العملاق الغربي أمام الصرح ميريت آمون بجانب والدها، وتم تصويرها على تمثال في الفناء الأمامي. وعلى الرواق الجنوبي، يظهر التمثال الشرقي ميريت آمون الملكة المصورة على اليسار، ويظهر تمثال في تانيس ميريت آمون وهي تقف بين ساقي والدها بارتفاع ركبته.

وفي تمثال ضخم لرمسيس الثاني من أخميم ترافق الملك ملكتان من بناته. وتم التعرف على الأميرة أو الملكة من ساقها اليسرى على أنها ابنة الملك، محبوبته، زوجة الملك العظيم، ميريت آمون. وفي هيراكليوبوليس، تم العثور على تمثال مغتصب من عصر الدولة الوسطى يصوِّر ميريت آمون على قاعدته. ويوجد في معبد رمسيس الثاني في الكاب(1) منظر لكاهن والأميرة ميريت آمون، والمشهد يتضمن خراطيش والأميرة تحمل عصا.

وبعد وفاة ميريت آتون، حزن عليها أبوها رمسيس الثاني حزنًا شديدًا. وتم دفنها في المقبرة رقم ٦٨ وادي الملكات. وتحدّد النقوش الملكة على أنها ابنة الملك، الزوجة الملكية العظيمة، سيدة الأرضين، ميريت آمون. ويوجد غطاء تابوت ميريت آمون في برلين. وتمت كتابة عدة ألقاب لها على غطاء التابوت مرتين. وتصفها بأنها ابنة الملك، والزوجة الملكية العظيمة، وسيدة الأرضين، ميريت آمون، المرحومة.

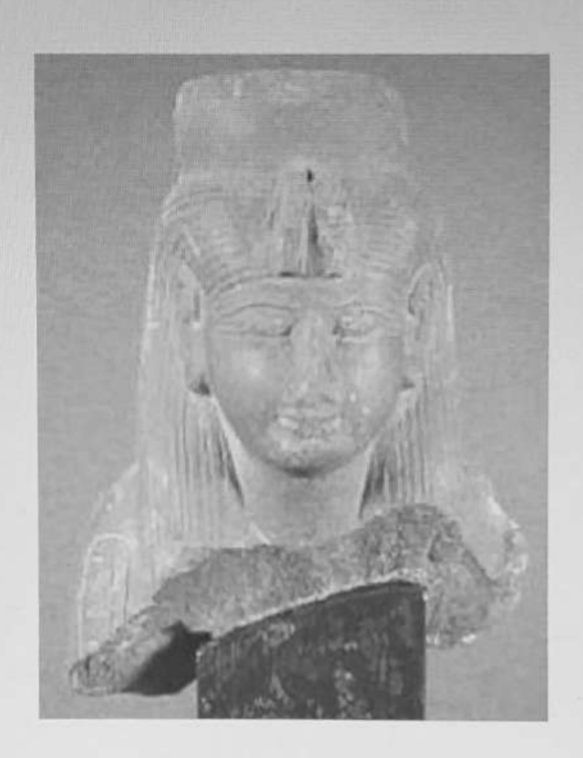
إنها ملكة مصر الجميلة، الملكة ميريت آمون، ابنة الملك العظيم رمسيس الثاني، وابنة جميلة الجميلات الملكة نفرتاري.

الملكة إيست نفرت الأولى

كانت الملكة إيست نفرت الأولى (أو «إيزيس نفرت الأولى») زوجة ملكية كبرى من الزوجات الملكيات العظيمات (مع الملكة نفرتاري والملكة سات آمون) لنجم الأرض، الفرعون الأشهر، الملك رمسيس الأعظم أو رمسيس الثاني. ويعني اسمها «إيست الجميلة» أو «إيزيس الجميلة».

بعد الموت المبكر والمفاجئ لجميلة الجميلات الملكة نفرتاري في حوالي العام الرابع والعشرين من حكم زوجها الملك رمسيس الثاني، اضطر إلى رفع زوجته الأخرى إيست نفرت الأولى إلى مقام الزوجة الملكية الكبرى الذي فرغ برحيل حبيبة قلبه الجميلة ومعشوقته الكبرى الملكة الفاتنة نفرتاري التي لم يملأ قلبه غيرها، على الرغم من كثرة زيجاته وولعه الكبير بالنساء؛ لأنها كانت الوحيدة «حلوة الحب» والحب الأحلى في عين جلالة الملك المعظم.

لا نعرف على وجه التحديد هوية والدي الملكة إيست نفرت الأولى. وربما كانت من دم غير ملكي؛ نظرًا لأنها حملت لقب «الأميرة الوراثية»، ولم تحمل لقب «ابنة الملك» أو «أخت الملك» أو ما شابه ذلك من ألقاب كانت تحملها عادة نساء البيت المالك، وحملت الملكة إيست نفرت الأولى العديد من الألقاب والصفات الملكية المهمة. وكان من ضمن ألقابها ونعوتها، «أم الأمراء» و«زوجة الملك»، و«عظيمة المديح»، و«سيدة الأرضين بأكملهما»، و«زوجة الملكة». غير أن أهم ألقابها كان «الزوجة الملكية الكبرى».



تمثال الملكة إيست نفرت الأولى

وربما كانت الملكة إيست نفرت الأولى أولى زوجات الملك رمسيس الثاني، قبل الملكة نفرتاري، وحصلت على لقب الزوجة الملكية الكبرى بعد رحيل نفرتاري المبكّر في عهد زوجها المديد. غير أن ظهور الملكة إيست نفرت الأولى على الآثار كان في مناظر عائلية عادةً بصحبة الملك رمسيس الثاني وأبنائها أولياء العهود رمسيس وخع إم، واست ومرنبتاح. ومن الملاحَظ أنها لم تكن تظهر كثيرًا منفردة مع زوجها الملك، كما كانت الحال مع حبيبة قلبه الملكة الجميلة نفرتاري التي كانت تظهر مع رمسيس العظيم على معظم آثاره. وبدأت الملكة إيست نفرت الأولى في الظهور ابتداء من العام الخامس والعشرين من حكم زوجها الملك وبعد رحيل نفرتاري في العام الرابع والعشرين من حكمه. وربما تزوجت الملكة إيست نفرت الأولى من الأمير رمسيس قبل أن يصبح ملكًا على مصر ويحمل اسم رمسيس الثانى؛ إذ ظهرَ أبناؤها معها في مناظر من عهد جدهم الملك العظيم سيتي الأول.

كانت الملكة إيست نفرت الأولى أم أكبر أبناء الملك رمسيس الثاني، وأنجبت ثلاثة من الأبناء وبنتًا واحدة (أو بنتين). وهم الأمير والقائد العسكري رمسيس الذي كان وليًا لعهد أبيه الملك من العام الخامس والعشرين إلى العام الخمسين من حكم والده، وربما الأميرة إيست نفرت، المسماة على اسم أمها، التي ربما كانت إيست نفرت الثانية.

كان أهمهم كاهن المعبود بتاح في مدينة منف، وأقدم مرمم للآثار في تاريخ العالم، الأمير خع إم واست الذي كان وليًا لعهد أبيه من العام الخمسين إلى العام الخامس والخمسين من حكم أبيه (ويعني اسمه «الذي يشرق في طيبة»)، والذي رحلَ في حياة أبيه، والبنت الملكية الكبرى للملك رمسيس الثاني الأميرة «بنت عنات» التي تزوَّجها الملك رمسيس الثاني، وصارت الملكة «بنت عنات الأولى»، وولي العهد وخليفة الملك رمسيس الثاني، الملك الشهير مرنبتاح، (ويعني اسمه «محبوب الرب بتاح»)، الأمير الثالث عشر من أبناء رمسيس الثاني الذي عاش بعد أن رحل إخوته الاثني عشر أميرًا من قبله.

يدل اختيار أبناء الملكة إيست نفرت الأولى لولاية عرش أبيهم رمسيس الثاني وللزواج من إحداهن على أهمية وعظم المكانة التي تمتعت بها الملكة إيست نفرت الأولى لدى زوجها الملك العظيم رمسيس الثاني. ومن الجدير بالذّكر أن الأمير خع إم واست أنجب ابنة وأطلق عليها إيست نفرت على اسم والدته، وأعتبرت إيست نفرت الثالثة التي ربما تزوجت من الملك مرنبتاح، غير عمتها إيست نفرت الثانية، وربما أطلقَ الملك مرنبتاح اسم أمه على واحدة من بناته، وربما دُفنت الملكة الأم إيست نفرت الأولى بعد وفاتها في إحدى مقابر وادي الملكات كعادة ملكات العصر.

وعلى الرغم من أن الملكة إيست نفرت الأولى لم تكن مشهورة في الربع القرن الأول من حكم رمسيس الثاني، الذي حكم مصر لحوالي مدة ستة وستين عامًا، غير أنها حصلت على ولاية العرش لأبنائها الثلاثة على التوالي الأمراء: رمسيس، وخع إم واست، وأخيرًا مرنبتاح الذي صار ملكًا بالفعل.

الملكة إيست نفرت الأولى هي الملكة المصرية راعية ومربية الملوك والملكات، والتي كانت تزهد في كل شيء إلا أبناءها وبناتها وتربيتهم من أجل أن تراهم كما تحب، كعادة كل الأمهات المصريات العظيمات من قديم الأزل وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

الملكة مآت حور نفرو رع

امتاز عهد الملك رمسيس الثاني بالروعة والعظمة. ونعرف الكثير من زوجاته العديدات، غير أن تلك المرة الملكة مختلفة تمامًا؛ فلم تكن مصرية كسابقاتها اللاتي ذكرناهن من قبل، ونعني الملكة إيست نفرت الأولى أو جميلة الجميلات، الملكة نفرتاري، وبنتها الملكة ميريت آمون، وإنما كانت أميرة أجنبية من بلاد الحيثيين، مما يعني أن مصر القديمة كانت مجتمعًا منفتحًا جدًا ومتسامحًا للغاية ومتعدد الثقافات والأعراق بشكل ليس له مثيل، وأن ملوكها البنائين العظام آمنوا بتلك القيم والمبادئ وطبقوها في حياتهم وحكم دولهم وممالكهم وعلى رعاياهم.

لقد كانت مصر القديمة في «عهد» نجم الأرض الفرعون الأشهر الملك رمسيس الثاني القوة الضاربة العظمى في الشرق الأدنى القديم، وإن أردنا الدقة يجب أن نصف زمنه بـ «عصر رمسيس الثاني» الذي كان علامة فارقة في تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم؛ نظرًا لعظمة مصر وتجدد أمجادها مثلما كانت في عهود الملوك المصريين العظام، ملوك مصر الفاتحين أمثال تحتمس الأول وتحتمس الثالث وأمنحتب الثاني وتحتمس الرابع، إلى والده الملك سيتي الأول الفاتح العظيم، ولطول فترة حكمه، ولكثرة العمران والبناء والتشييد في عهده، ولرخاء الإمبراطورية المصرية في أرجائها الفسيحة على نطاق واسع. وكان الجميع يخشى قوة مصر العظمى ويهابها بشدة، ويرجو صداقتها بكل ما أوتي من قوة، ويتطلع إلى السلام معها بأي ثمنٍ وبأي شكلٍ؛ نظرًا لما كانت تمور به منطقة الشرق الأدنى القديم من صراعات عدة، وكانت هناك قوى دولية تظهر وأخرى تختفي بيد أن مصر حافظت على قوتها وعظمتها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وكان الحيثيون (أو الخِيتيون أهل ملكة خِيتي أو بلاد الأناضول في تركيا وشمال سوريا حاليًا) من القوى البازغة على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى القديم، وبدأت تتنافس مع مصر العظمى، وأحيانًا تتطلع للاستيلاء على ممتلكات الإمبراطورية المصرية العريقة والمترامية الأطراف في بلاد الشام المترامية الأطراف، ثم دخلت مصر في حروب مع الحيثيين انتهت بتوقيع معاهدة سلام بين رمسيس الثاني وملك الحيثيين الملك خاتوشِلي الثالث في العام الحادي والعشرين من حكم رمسيس العظيم. وتعد هذه من أقدم معاهدات السلام في التاريخ، وبناءً عليها تم إنهاء الحرب الممتدة بين القوتين العظميين.

ومن المعروف عن الملك رمسيس الثاني أنه كان متعدِّد الزوجات، وأنه كان مولعًا بالنساء بشكل كبير؛ ولذا كانت كثرة زيجاته من أميرات الشرق الأدنى القديم. وكان هذا الزواج يدخل في نطاق ما يمكن أن نطلق عليه «الزواج الدبلوماسي»، وكان الهدف منه تكوين

تحالفات سياسية وعسكرية بين القوى العظمى، التي كانت مصر على رأسها، وكذلك تدعيم أواصر المحبة والتواصل بين كبار الملوك في المنطقة.

من هذا المنطلق، كان زواج نجم الأرض، الفرعون الأشهر، الملك رمسيس العظيم، وجه مصر الأشهر في الشرق الأدنى القديم، من إحدى الأميرات الحيثيات الجميلات التي أعطاها الملك رمسيس الثاني اسمًا مصريًا، وصارت ملكة مهمة من زوجاته الكبريات، وهي الملكة «مآت حور نفرو رع»، أو «مات نفرو رع» أو «مآت نفرو رع». ويعني اسمها المصري «مَن ترى الإله حورس، وجمال إله الشمس رع». ولا نعرف اسمها الحيثي. وكانت هذه الملكة كبرى بنات الملك الحيثي خاتوشِلي الثالث وزوجته الملكة الحيثية «بودوخيبا». وتم الاتفاق على الزواج بين رمسيس العظيم والأميرة الحيثية. ودفع لها الملك المصري مهرًا كبيرًا. ووصلت الأميرة إلى أرض مصر المباركة في صحبة أمها الملكة «بودوخيبا». ودخلت إلى قصر الملك رمسيس العظيم في العاصمة بر-رمسيس في شرق الدلتا المصرية. وكان هدف الحيثيين من هذا الزواج أن يكون مقدمة لأواصر الصداقة والمحبة مع الملك المصري رمسيس العظيم. وتم الاحتفال بمراسم الزاوج في العام الرابع والثلاثين من حكم رمسيس العظيم المديد.

ومن عظيم تقدير الملك رمسيس الثاني للملك الحيثي خاتوشِلي الثالث وابنته أنْ أمرَ بنحت لوحة تذكارية تخليدًا وتكريمًا لزواجه من تلك الأميرة الحيثية، والأهم أنه أمرَ بأن يتم نصبها في واحد من أهم معابده الكبرى، وأعني معبده الكبير الأشهر بـ «أبوسمبل». وذُكر تحت الخرطوش الذي يحتوي على اسم الملكة الحيثية «ابنة الحاكم العظيم لخيتي». وعلى هذه اللوحة ذُكرَ رمسيس العظيم عنها ما يلي: «الجميلة في قلب جلالته، وأنه أحبها أكثر من أي شيء». وكانت هذه التعبيرات من العبارات المصرية التقليدية في هذا السياق. وحملت الملكة من الألقاب الملكية لقب «سيدة الأرضين»، واللقب الأهم لقب «الزوجة الملكية الكبرى»، الذي ربما حصلت عليه بضغطٍ من أبيها الملك الحيثي. غير أن النصوص المصرية كانت تذكُرها دائمًا بالوصف التالي «ابنة الحاكم العظيم لخيتي». ويبدو أن هذا الوصف كان تمييزًا وتقديرًا وإعزازًا لها ولوالدها الملك الحيثي، وليس تقليلاً من شأنهما.

أنجبت تلك الملكة طفلاً، ربما كانت أنثى، مما أغاظ والدها الملك الحيثي الذي كان يأمل أن تنجب ولي العهد لرمسيس العظيم، وماتت هذه الطفلة صغيرة.

غير أنها بعد فترة زمنية، تركت العاصمة بر رمسيس، وبنى لها الملك رمسيس العظيم قصرًا منيفًا في ضيعة «مِر وُر» (مدينة غراب في الفيوم حاليًا) التي خصصها لها. وانسحبت من المشهد، وانضمت إلى الحريم الملكي في مدينة غراب، وربما ماتت صغيرة ودُفنت في مدينة غراب.

من الملاحظ أن هذه الملكة الحيثية لم تظهر مع رمسيس العظيم في آثاره كثيرًا، بل إن بعض آثارها معه تعرَّض للتدمير ولا نعرف السبب وراء ذلك على وجه التحديد، وربما كانت غيرة سيدات البيت المصري الحاكم وراء محو ذكراها من مصر. فعلى سبيل المثال، يوجد في منطقة تانيس (صان الحجر بمحافظة الشرقية)، أحد التماثيل الضخمة المكسورة للملك رمسيس الثاني، وصُوِّرت عليه الملكة واقفة إلى يسار زوجها الملك، تلامس رجله اليسرى بيدها اليمنى، ونُقش اسمها في خرطوش أمامها.

(مآت حور نفرو رع على أحد التماثيل الضخمة المكسورة لرمسيس الثاني في تانيس)

لقد كانت مآت حور نفرو رع ملكة غير مصرية ساهمت في تلطيف الأجواء بين مصر وخيتي، غير أنها لم تصل إلى حب نفرتاري في قلب رمسيس العظيم، ولا لابنتها الملكة ميريت آمون، ولا إلى تقديره لإيست نفرت الأولى ولا لأبنائها. ولم تترك بصمتها على وجه التاريخ، وربما يعود ذلك لأصولها غير المصرية وعدم إنجابها ولي عهد للملك رمسيس العظيم. تلك فترة كانت مهمة من فترات تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم حين كان يحكم مصر ملك عظيم ويهابه ملوك الشرق الأدنى القديم هو نجم الأرض وملك الملوك؛ الملك رمسيس الثاني.

الملك مرنبتاح

الملك مرنبتاح، أو «محبوب الرب بتاح»، هو ابن وولي عهد الملك رمسيس الثاني العظيم. لقد كان مرنبتاح هو الابن الثالث عشر للملك رمسيس الثاني، والذي خلف أباه المعفر على عرش مصر العظيم، وتولى حكم مصر وهو في العقد السابع من عمره. وحكم مرنبتاح حوالي عشر سنوات. وتم توثيق فترة حكمه في ثلاثة نقوش عظيمة: الأول عبارة عن حوالي ثمانين سطرًا على لوحة في معبد الإله آمون في الكرنك، والثاني عبارة عن لوحة ذات ٣٥ سطرًا من منطقة أتريب، أو بنها، في الدلتا، والثالث هو لوحة الانتصار العظيمة التي وجدها عالم الآثار البريطاني الأشهر السير وليم فلندرز بتري في عام ١٨٩٦ في المعبد الجنائزي المدمر للملك مرنبتاح في طيبة أو الأقصر، والمكوَّنة من ٢٨ سطرًا. وتشير اللوحات الثلاث إلى حملات مرنبتاح العسكرية وتكمل الواحدة منها الأخرى.

وفي سنوات حكم الملك رمسيس الثاني الأخيرة ساد السلام والهدوء على الحدود المصرية وبين الدول التابعة لمصر، غير أن الزمن قد تغيَّر الآن في عهد الفرعون مرنبتاح. فهب تمرد في جنوب سوريا وسرعان ما تمت السيطرة عليه من قِبَل الفرعون القوي، وتمت مهاجمة حليف مصر الملك الحيثي في ممتلكاته الشمالية، وحدثت مجاعة في أرضه؛ نتيجة نقص المحاصيل الزراعية، فأرسل الملك المصري مرنبتاح إليه الحبوب؛ لأن مصر كانت سلة الغلال لبلاد الشرق الأدنى القديم، كما تذكر القصة التوراتية.



(تمثال الملك مرنبتاح)

كان هناك عدم استقرار على حدود مصر الغربية مع الليبيين الذين انتشروا في الدلتا المصرية في العام الخامس من حكم الملك مرنبتاح، وحاولوا غزو مصر وإحداث ثورة في بلاد النوبة وواحات صحراء مصر الغربية. فقام الملك مرنبتاح بتحرك سريع وهجوم شديد وقضى عليهم وذبح منهم ما يزيد على ستة آلاف فرد. وقام مرنبتاح بإخضاع النوبيين بعد القضاء على الليبيين. وعلى الرغم من كبر سن مرنبتاح، فإنه لم يتهاون مطلقًا في الدفاع عن مصر وتأمين حدودها وقهر أعدائها بقسوة وجعل منهم عبرة لمن يعتبر. وعلى لوحة انتصار مرنبتاح الكبرى، كتب الملك المنتصر مرنبتاح يفتخر بالقضاء على كل الأعداء. ومن بين ما تمت كتابته على تلك اللوحة، جاء الذكر الوحيد لإسرائيل في كل الآثار المصرية القديمة وقال: «تم القضاء على إسرائيل، واختفت بذرتها، وصارت فلسطين أرملة لمصر». وهنا تم تصويرها والتعبير عنها بالكتابة في اللغة المصرية القديمة كقبيلة وليس كبلد له منطقة جغرافية محددة كمعظم البلاد من أعداء مصر التقليديين. وهذا ما جعل البعض يعتقد أن الملك مرنبتاح هو فرعون الخروج الذي خرج في عهده بنو إسرائيل من أرض مصر المباركة، غير أن هذا الامر ما يزال محل جدال بين العلماء ولم يتم حسمه بعد إلى الآن.

مرنبتاح ملك مصري عظيم هو خير خلف لخير أسلافه العظام: أبوه رمسيس الثاني العظيم، وجده الملك سيتي الأول المحارب العظيم، وجده الأعلى الملك رمسيس الأول. تلك ذرية بعضها من بعض، لا يهمها إلا نهضة مصر ومجدها ورفع رأسها عالية خفاقة بين الامم.

الملكة تاوسرت

الملكة تاوسرت هي آخر ملوك عصر الأسرة التاسعة عشرة. وأطلق عليها المؤرخ المصري مانيتون السمنودي «ثوريس». وحكمت حوالي عامين كملك مصر منفردة. ويعني اسمها «القوية».

حكم سيتي الثاني مصر ست سنوات وكانت فترة حكمه غير مميزة. وكانت زوجته الكبرى تاوسرت. ونظرًا لأن خليفته مات، انتقل العرش إلى رمسيس-سابتاح الذي ربما كان ابنًا لسيتي الثاني من زوجة ثانوية (ربما كانت الزوجة الأجنبية سوتايلجا) أو ربما أنه كان ابن آمون مس. ومن العام الثالث من عهد هذا الملك غير اسمه إلى مرنبتاح-سابتاح، والمعروف باسم «سبتاح». وربما كان هذا الملك مريضًا كما ظهر من فحص موميائه؛ فاحتاج لشريك في الحكم. وكانت أمه غير مناسبة للقيام بهذا، ربما بسبب أصولها الأجنبية أو عدم انتمائها لأصل ملكي أو لوفاتها، وقامت تاوسرت بهذا الدور لابن زوجها، ولم تحمل تاوسرت لقب «ابنة الملك»، بيدَ أنها ربما كانت ابنة لأحد أفراد العائلة المالكة، أو ربما مرنبتاح. وفي عام ١٩٠٨، عثر إدوارد أيرتون على خبيئة مجوهرات الأسرة التاسعة عشرة في «المقبرة الذهبية» رقم ٥٦ بوادي الملوك حيث يظهر اسما تاوسرت وسيتي الثاني، وتمثل هذه الخبيئة بقايا الأثاث الجنائزي بمقبرة تاوسرت التي تم إنقاذها آنذاك بعد أن أغتصب مقبرتها ست نخت أول ملوك الأسرة العشرين، أو ربما تمثل دفنة ابنتها الصغيرة.



(تمثال مقطوع الرأس للملكة تاوسرت بالمتحف المصري الكبير بالجيزة)

استعانت تاوسرت بـ «مستشار كل البلاد»، «بيا»، الذي ربما كان سوريًا، وغير معروف دوره، غير أن هذه الجملة «الذي وضع الملك على عرش أبيه» ربما تشير إلى أنه لعب دورًا كبيرًا في دعم الملك سبتاح (وتاوسرت) كمَلِك على العرش. وتم تصويره بجوار حاكم مصر مرتين، الأولى: مع سبتاح واقفًا وراء عرشه، والثانية: مع تاوسرت واقفًا مواجهًا لها على عتب معبد عمدا في النوبة، وكان «بيا» شخصًا بارزًا في السياسات المصرية لاربع سنوات، واختفى، وربما قُتل في العام الخامس لسبتاح، وبوفاته صارت تاوسرت الحاكم الوحيد لمصر.

لم يترك سبتاح دليلاً على وجود زوجة ملكية له، ولا يعني هذا أنه لم يتزوج. وعلى هذا كانت تاوسرت تحكم نيابةً عنه، ولهذا السبب لم يشعر بالحاجة إلى وجود امرأة أخرى كي تملأ هذا الفراغ، فمارست تاوسرت ذلك الدور. ومات سبتاح في العشرين من عمره، دون وريث ذكر

للعرش. فقفزت تاوسرت للعرش، وربما كانت قد تزوجت من سبتاح كي تحكم قبضتها، واتخذت لقب «ملك» في صيغته الذكورية، والعديد من الألقاب الملكية مثل «سات رع، مريت آمون» ويعني: «ابنة رع، محبوبة آمون»، و«ابنة رع، سيدة الأرض المحبوبة، تاوسرت المختارة من الإلهة موت». وتولت تاوسرت الحكم في ظروف مغايرة وفي أوضاع سياسية متأزمة، وربما كان توليها العرش إحدى علامات الضعف السياسي آنذاك. وصارت العائلة المالكة في أشد لحظات ضعفها، وصار التنافس على العرش شديدًا بين أفرادها، وفقدت الإمبراطورية المصرية عوائدها من الخارج، وحدث تضخُم كبير ونقص حاد في المواد الغذائية في طول البلاد وعرضها، واندلعت حرب أهلية متقطعة في البر الغربي لمدينة طيبة (الأقصر الحالية)، وقام الليبيون بتهديد الحدود الغربية والدلتا.

وماتت تاوسرت. ولا نعلم إن كانت ماتت ميتة طبيعية كملك لمصر، أم أن خليفها الملك «ست نخت» خلعها من العرش كما يُستشف من لوحته التذكارية في إلفتين في أسوان. وبغياب تاوسرت، تنتهي الأسرة التاسعة عشرة.

شيدت تاوسرت معبدًا غير مكتمل في البر الغربي للأقصر إلى الجنوب من معبد الرامسيوم الخاص برمسيس الثاني، واتخذت لنفسها مقبرة كملك في وادي الملوك، حيث كان الدفن مقصورًا على الملوك، وحملت مقبرتها رقم ١٤ بين مقابر الوادي، وبدأ العمل في هذه المقبرة في عهد سيتي الثاني، وربما كانت مخصصة لدفن سيتي الثاني وتاوسرت، وتم توسيعها في فترة مشاركتها في الحكم، ثم ثانية في عهد حكمها، ولم يتم الانتهاء منها عند وفاتها. واغتصب المقبرة ست نخت، أول ملوك الأسرة العشرين، ووسع المقبرة لتصبح واحدةً من أطول مقابر وادي الملوك، ورفع منها دفنة تاوسرت (وغير معروف أين هي الآن)، وأعاد دفن سيتي الثاني في مقبرة رقم ١٥ في وادي الملوك. بيد أن القدر كان له بالمرصاد، فتم سرقة مقبرة ست نخت نفسه بعد ذلك، وتم إعادة استخدامها في عصر الانتقال الثالث الذي بدأ مع الأسرة الحادية والعشرين التالية لأسرته. وتم تصوير تاوسرت كملك حاكم في مقبرتها، وتم تزيين مقبرتها بكتب عدة من كتب العالم الآخر المعروف في مصر القديمة مثل كتاب البوابات وكتاب الكهوف.

ولم يتم العثور على مومياء تاوسرت، إلى الآن. وإن كان يُعتقد أنها قد تكون صاحبة المومياء الموسومة بـ «المرأة غير المعروفة د»، والمكتشفة في الخبيئة التي تم اكتشافها في مقبرة الملك أمنحتب الثاني، رقم ٣٥ في وادي الملوك، والموجودة حاليًا في المتحف المصري في ميدان التحرير.

لقد كانت تاوسرت ملكة عظيمة، وعاشت في فترة قلقة للغاية من تاريخ مصر القديمة،

وشهدت أحداثًا جسيمة، غير أنها أبلت بلاءً حسنًا قدر المستطاع. ومن المحزن هو ما تعرضت له تلك الملكة من تدمير وتشويه لتاريخها وآثارها وسرقة مقبرتها والعبث بمومياتها من ملوك الأسرة التالية لها، الأسرة العشرين. وقد يكون ذلك شأنًا مصريًا بحتًا، وهو أن يمحو اللاحق تاريخ السابق.

الملك رمسيس الثالث

الملك رمسيس الثالث هو آخر فراعنة مصر العظام. وفي فترة حكمه، عاصر نهايات واضطرابات في دول وممالك عدة في عالم البحر المتوسط مثل الحرب الطروادية وسقوط وهروب شعوب كثيرة بحثت عن أوطان جديدة. وتأثرت مصر دون شك بتلك الهجرات التي جاءت إلى الشواطئ المصرية بحثًا عن وطن جديد بعد الذي كان.

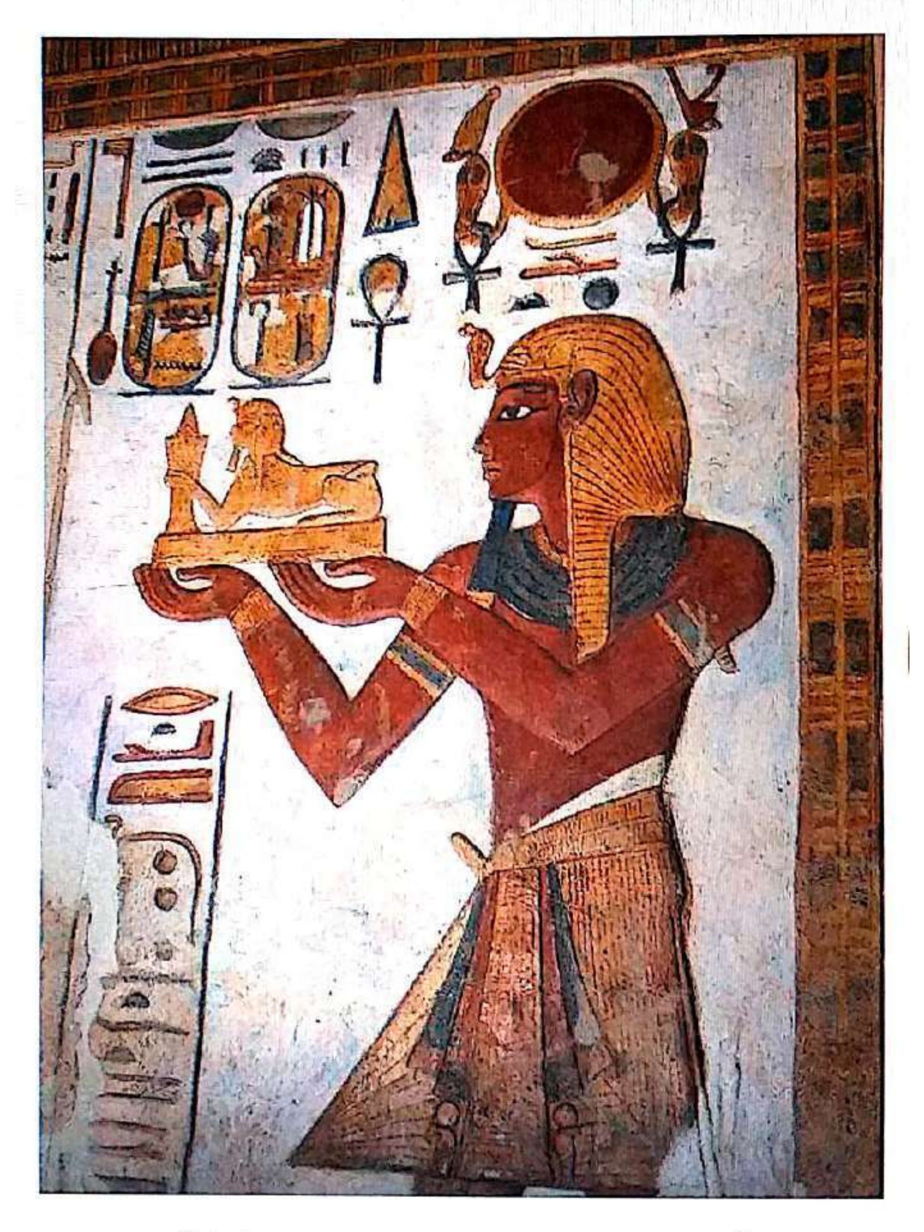
كانت السنوات الأربع الأولى من حكم رمسيس الثالث هادئة، وأخذ في تدعيم دولته واستمر في سياسة والده الملك ست نخت لجلب الاستقرار لمصر، ولم تكن هناك مشكلات تُذكر في بلاد النوبة، فقد كانت مستعمرة خاضعة للحكم المصري، غير أن الليبيين، مع قبيلتين أخريين المشوش والسبد، تركوا الصحراء وحاولوا غزو الأرض الخصبة في غرب الدلتا المصرية، وقام الجيش المصري بقمعهم على الفور، ومن لم يتم قتله منهم، تم أسره واستعباده في مصر. ومنذ ذلك الحين، وعت البلاد المجاورة لمصر الدرس، وعرفت جيدًا ألا تستفز الفرعون وألا تثير غضبه، وإلا سوف تلقى ما لا يُحمد عقباه.

في العام الثامن من حكم الفرعون رمسيس الثالث، جاءت إلى مصر قبائل كبيرة العدد في طريقها إلى الاستقرار. وكانت قد دمرت الحيثيين قبل المجيء إلى مصر. وكانت هذه القبائل أو الشعوب ذات أسماء عدة غير أن الاسم الأشهر الذي تم إطلاقه عليها هو «شعوب البحر». وقام الملك رمسيس الثالث بتسجيل وتصوير حروبه وانتصاراته على شعوب البحر على جدران معبده الجنائزي العظيم بمدينة هابو بالبر الغربي لمدينة الأقصر، وسجَّل الملك نص حروبه ضدهم على الجدار الخارجي للصرح الثاني من الناحية الشمالية. ويُعد هذا النص أطول نص هيروغليفي على المعابد معروف لدينا إلى الآن. وتم تصوير المعركة ضدهم على الجدار الشمالي الخارجي للمعبد.

في طريق شعوب البحر إلى مصر، توقفت في سوريا. وتقدموا نحو مصر عبر البر، ولم تكن حربًا عادية بمفهومها التقليدي المعروف لدينا، وإنما كانت هجرة ونزوحًا جماعيًا، وكان الهدف منها الاستقرار والإقامة في مصر؛ فقد كانت شعوبًا تتحرك بكل أفرادها من النساء والأطفال وكل ممتلكاتهم الأسرية المحمولة على عربات تجرها ثيران إلى مصر. وفي البحر، كان أسطول شعوب البحر معسكرًا في البحر كي يتوجه لاحتلال مصر والاستقرار فيها. وتقين الملك رمسيس الثالث بسرعة التحرك ووضع حد لإيقاف تلك الموجات البشرية الهائلة العدد، فتم إرسال قوات عسكرية على نقاط الحدود الشرقية حتى يتم إحضار الجيش المصري بشكل كامل، وحدثت الحرب على الحدود، وتم قتل الغزاة كما تُصوِّر مناظر المعركة على معبد مدينة هابو. وتم تصوير الفرعون رمسيس الثالث محاربًا على عربته الحربية في

كل مكان في المعركة. وتم تصويره بحجم أكبر من كل المشاركين في المعركة وفقًا لقواعد الفن المصري القديم.

على الرغم من أنه تم القضاء على حملة شعوب البحر البرية، فقد كان ما يزال هناك تهديد قادم من البحر تلك المرة. فدخل أسطول شعوب البحر إلى شرق الدلتا المصرية من خلال أحد أفرعها، غير أن الأسطول المصري العظيم كان له بالمرصاد. وعلى الرغم من أن المصريين القدماء لم يفتخروا بكونهم بحَّارة عظماء، فقد حاربوا ببسالة يُحسدون عليهم ومارسوا كل فنون القتال التي عرفوها على البر في مواجهة عدوهم في الماء. وقام المصريون القدماء بحرق سفن أعدائهم تحت إشراف الفرعون العظيم رمسيس الثالث. وانتصر المصريون القدماء على تلك الشعوب المهاجمة انتصارًا عظيمًا تحت راية الإله آمون سيد آلهة مصر ورب طيبة، الأقصر، المقدس، والذي تم إرسال كل الغنائم إلى معبده.



(الملك رمسيس الثالث في معبده الشهير بمعبد مدينة هابو)

عاشت مصر هادئة لمدة ثلاث سنوات. ثم جاءت الاضطرابات تلك المرة من الحدود الغربية، من الليبيين ثانية، الذين تحالفوا مع قبيلة المشوش وخمس قبائل أخرى، وتسللوا كمهاجرين في منطقة غرب الدلتا المصرية لبعض السنوات، غير أنهم في العام الحادي عشر من حكم الملك رمسيس الثالث صار الأمر كغزوة؛ فقام الملك بقهرهم وقتل حوالي ألفين فرد منهم،

وأخذ ماشيتهم وممتلكاتهم كغنائم لخزائن معبد الإله آمون.

ذلك هو الملك رمسيس الثالث العظيم الذي جعل من جده الأعلى الملك رمسيس الثاني العظيم مثلاً أعلى يُحتذى به؛ فقد كان خير خلف لخير سلف، وحافظ على مصر من هجوم شعوب البحر واحتلال أرض مصر والاستقرار بها والقضاء على حضارة مصر العظيمة تحت معاول دعاة الهدم والفوضى؛ لذا صار رمسيس الثالث، في رأي بعض العلماء، آخر ملوك مصر العظام.

الملكة تي الخائنة والملكة تي الفاضلة

من المعروف أن مصر القديمة كانت كأي مجتمع إنساني تمور بحياة عارمة تتأرجح فيها حياة المرء بين المجد الذي لا يُضاهى والضعف الإنساني لدى البشر العاديين أجمعين. وفي هذا السياق الحضاري المتنوع، لا يمكن إغفال أو تجاهل حياة القصر الملكي - الذي كان يعيش فيه الملك مع أفراد عائلته والمقربين من حاشيته - بكل ما كان يعج به من أحداث جسام ارتفع بعضها إلى درجات عظمى وانحط البعض الآخر إلى منازل دنيا من الخيانة والخسة والدناءة، وغلبت الغيرة والطموحات والمؤامرات على حياة القصور الملكية المصرية القديمة في بعض المناسبات. وامتلأت تلك القصور - التي كانت ملء البصر - بصراعات محمومة لا حدود لها، كانت أحيانًا معروفة للجميع وأحيانًا أخرى مكتومة تحت السطح. وكان من أهمها الصراع والتآمر على العرش، وأحيانًا على حياة الملك نفسه، بين الزوجات الملكيات أمهات أولياء العهود الشرعيين والزوجات الثانويات وأبنائهن الطامحين للحكم بعد رحيل الملك الأب وصعود روحه إلى مملكة السماء واتحاده بالأبدية.

على الرغم من أن الوثائق الرسمية لم تكن تميل إلى تسجيل تلك الوقائع التي لم تكن تتناسب مع جلال وعظمة الملكية المقدسة في مصر القديمة، وتتناقض تمامًا مع الصورة المثالية التي كانت العائلة الملكية تتوق دومًا لإظهار نفسها عليها، يمكن استنتاج بعض من تلك الوقائع الاستثنائية التي وصلت إلينا في عدد محدود من النصوص المصرية القديمة، مثل بعض السير الذاتية، والتي لم يكن الهدف من ذِكر تلك الأحداث فيها - عرضًا - الطعن في جلال الملكية المصرية المقدسة، بقدر التأكيد على رغبة صاحبها في إظهار أهميته واستخدام الواقعة المذكورة دليلاً على تلك الأهمية المزعومة، مثل ما جاء في سيرة الموظف «وني الأكبر»، من عصر الأسرة السادسة في الدولة القديمة حين ذكرَ التحقيق مع الملكة الموصوفة بـ «ورت إمات إس»، كما ذكرنا من قبل.

ومن المعروف أن الملك رمسيس الثالث، آخر فراعنة مصر العظام، تزوج من زوجتين تحمل كل منهما اسم «تي» مع اختلاف كتابة اسم كل منهما في الكتابة الهيروغليفي: الأولى خائنة، والأخرى فاضلة.

كانت الزوجة الأولى هي الملكة تي التي كانت زوجة ثانوية من زوجاته. وقامت بمؤامرة ضد الفرعون مما جعل التاريخ يذكرها. وكانت هذه من المرات القليلة التي تحدثنا النصوص المصرية عن شيء غير مُحبّب كهذا، ونعلم عن تلك المؤامرة من المحاكمات التي تمت للمتهمين من بردية تورين القضائية. وتُعرَف المؤامرة بـ «مؤامرة الحريم». وشارك في المؤامرة عددٌ من حريم القصر الملكي وبعض سقاة البلاط وحرسه وخدمه. ولم يعرف هدف

هؤلاء المتآمرين. ولعلَّ السبب الأساس لتلك المؤامرة أن هذه الملكة الثانوية، «تي»، بالتعاون مع بعض نساء القصر، خططت لاغتيال الملك كي تضع ولدها «بنتاورت» على عرش مصر بدلاً من ولي العهد الشرعي، الملك رمسيس الرابع بعد ذلك. وتم قتل الملك رمسيس الثالث، وانكشفت المؤامرة، وحُقق فيها بأمرٍ من ابنه الفرعون الملك رمسيس الرابع، وحكمت المحكمة على المتهمين بأحكام تتراوح بين الإعدام والانتحار والجلد والسجن وقطع الأنف وصلم الأذن والبراءة، كلٌ وفقًا لدوره وجريمته في تلك المؤامرة المشينة.

من المعروف أن هناك مومياء لرجل غير معروف في المتحف المصري. وتعرف علميًا بـ «مومياء الرجل غير المعروف إي». ويشيع تعريفها بـ «المومياء الصارخة» أو «مومياء الرجل الصارخ». وأثبتت الدراسات الحديثة التي قام بإجرائها الفريقُ المصري لدراسة المومياوات الملكية على مومياء رمسيس الثالث والمومياء غير المعروفة أنه تم قطع رقبة الملك الأب من الخلف بسكينٍ حادٍ، وأن «مومياء الرجل غير المعروف إي» أو «المومياء الصارخة» أو «مومياء الرجل الصارخ» كانت أغلب الظن لابن الملك بنتاورت، الذي أجبر على الانتحار وشنق نفسه بيده من خلال علامات الحبل الموجودة على رقبته، وتم عقاب ذلك الابن أشد عقاب بعدم تحنيط جثته ودفن جسده في جلد الغنم الذي كان يعتبر غير طاهر في مصر القديمة، وبناء على ذلك سيذهب إلى الجحيم في الآخرة.

في ذلك ما يؤكد صدق الأساليب البلاغية التي تم استخدامها في ذلك النص الأدبي حين أشار إلى أن القارب الملكي قد انقلب، مما يرمز إلى وفاة الملك وصعود روحه إلى السماء، وأدى فشل المؤامرة إلى تولي ولي العهد، الأمير رمسيس، أو الملك رمسيس الرابع لاحقًا، خليفته الطبيعي، عرش البلاد بدلاً من ذلك الابن العاق، بنتاورت، الذي قُتل أو أجبز على الانتحار، كما ذكرنا من قبل. ولا نعرف شيئًا عن مصير أمه، الخائنة الملكة تي. وإن كان ذكر التاريخ لقصة تلك الملكة الخائنة وقتلها لزوجها الملك العظيم رمسيس الثالث فاضحًا للغاية وكاشفًا لسيرتها غير المشرِّفة كملكة غير مكرَّمة في التاريخ المصري القديم.



(«مومياء رجل غير معروف إي» أو «المومياء الصارخة» وربما تكون للابن بنتاورت)

يجيء ذلك النص الفريد الذي يذكر تلك الواقعة المثيرة ضمن النصوص الرسمية. ويشير ذلك إلى تغير كبير حدث في مفهوم الملكية المقدسة التي أصبحت هنا تميل إلى تصوير الفرعون في صورة بشرية إنسانية، به ضعف مثله في ذلك مثل باقي البشر العاديين، ولم يعد يُنظَر إلى الفرعون على أنه إلهٌ يحكم على الأرض نيابةً عن آبائه الآلهة المقدسين في أعلى عليين.

والزوجة الثانية الفاضلة والرئيسة للملك رمسيس الثالث هي الملكة تي، التي ربما كانت أم خليفته، الملك رمسيس الرابع. واتخذت الألقاب الملكية التالية «الزوجة الملكية الكبرى» و«ابنة الملك» و«أخت الملك» و«أم الملك». وربما كانت ابنة الملك ست نخت من ملوك الأسرة العشرين. وكان لها من الأبناء، بالإضافة لرمسيس الرابع، خع إم واست، وآمون حر خبش إف، ورمسيس مري آمون. ومن الملاحظ تأثُّر وتقليد رمسيس الثالث، لمثله الأعلى، الملك رمسيس الثاني، حتى في تسمية أبنائه. وحظيت تلك الملكة العظيمة بحياة مبجلة. وبعد موتها، تم دفنها في مقبرة رقم ٥٢ في وادي الملكات.

تلك قصة ملكتين حملتا نفس الاسم وتزوجتا من ملك عظيم، إحداهما كانت خائنة شاركت في مؤامرة لقتل زوجها ووضعها ولدها بدلاً منه على العرش، والأخرى فاضلة وقفت إلى جوار زوجها وولدها، وتحملت صدمة قتله، وكافأها القدر بتولي ابنها، ولي العهد الشرعي الذي اختاره أبوه الملك، حكم البلاد، فعاشت حياة سعيدة في عهد زوجها وابنها الملك من بعده. وحين ماتت تم تبجيلها وإكرامها، فطابت ذكراها إلى وقتنا الحالي.

تلك الغيرة بين النساء والصراع على العروش، وهما اللذان من الممكن أن يفعلا أكثر من ذلك، غير أن تلك حالات قليلة حدثت في مصر القديمة، مما يدل على طبيعية وبشرية مصر

القديمة كأي مجتمع قديم أو حديث له ما له من الصفات الحميدة وغير الحميدة.

تلك هي مصر القديمة المليئة بالأسرار!

الباب الرابع

عصر الانتقال الثالث والعصر المتأخر

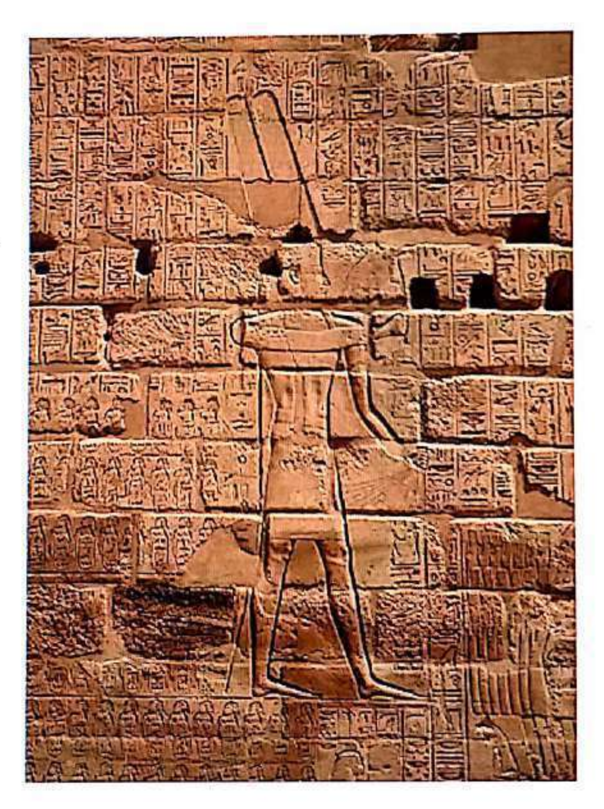
الملك شاشانق الأول

ينحدر الملك شاشانق الأول من أصول ليبية. وكان من الجنود الليبيين الذين تم توظيفهم في الجيش المصري وتمصيرهم في مصر في نهاية عصر الدولة الحديثة في منطقة الدلتا المصرية. والملك شاشانق الأول هو مؤسس الأسرة الثانية والعشرين الليبية أو الأسرة البوباسطية، كما يطلق عليها المؤرخ المصري الشهير مانيتون السمنودي، وذلك نسبة إلى منطقة تل بسطة التي عاشوا فيها في شرق الدلتا في دلتا نهر النيل. وحكمت الأسرة من منطقة تانيس في شرق الدلتا. وحكم شاشانق الأول من عام ٩٤٥ إلى عام ٩٢٤ قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام، وعُرف باسم شاشانق مري آمون حكا خبر رع ستب-إن رع، وكان هو البداية للفرع الليبي المتمصر الذي حكم مصر لمدة مائتي عام، وربط الملك شاشانق الأول نفسه بالأسرة السابقة من خلال الزواج من ابنة الملك السابق عليه، بوسينس الثاني. وزاد من دعم موقف الملك شاشانق الأول أنه جاء من خلفية عسكرية؛ إذ كان القائد الأعلى لكل الجيوش المصرية.

تشير النقوش القادمة من منطقة طيبة أو الأقصر الحالية إليه على اعتباره القائد العظيم لقبيلة المشوش الليبية الأصل، والذي تم تعيينه من قِبل القبائل الليبية كقوة شرطية داخلية، وكي يظهر نفسه كفرعون مصري قادر على حكم مصر، اتخذ لنفسه العديد من الألقاب الملكية مثل أسلافه من ملوك مصر السابقين، وتحديدًا اتخذ لنفسه ألقاب سلفه الملك سمندس الذي سبقه بحوالي مئة عام.

كان الملك شاشانق الأول حاكمًا قويًا قام بتوحيد مصر المقسمة إلى مدينتين حاكمتين: الأولى في تانيس في شرق الدلتا في الشمال، والأخرى طيبة في الجنوب، في دولة واحدة موحدة تحت سلطته الحاكمة، وكان من الذكاء بمكان حين قام بتعيين العديد من أبنائه في المناصب المهمة والحساسة في الدولة. وجمع في يديه بين السلطة الدينية والمدنية وفي شخص واحد حين قام بتعيين ابنه الأمير إيبوت في منصب حاكم مصر العليا أو الصعيد، وفي نفس الوقت، عيَّنه ككبير كهنة الإله آمون وفي منصب القائد الأعلى لكل الجيوش المصرية. وقام ابن آخر من أبناء الملك شاشانق الأول، وهو الأمير جد بتاح إيوف عنخ، بدعم أخيه إيبوت من الناحية الدينية حين اتخذ لنفسه منصب الكاهن الثالث للإله آمون. وقام ابن ثالث للملك شاشانق الأول، وهو الأمير نملوت، بدور عسكري كبير حين تولَّى منصب القائد

العسكري في منطقة هيراقليوبوليس أو إهناسيا المدينة في بني سويف، وكانت تمثل حامية عسكرية مهمة وكان لها دور كبير في تأمين المنطقة من طيبة إلى أقصى جنوب البلاد. وفي وضع آمن ومسيطر كذلك في البلاد داخليًا، كان على الملك شاشانق الأول أن يتوجه إلى بلاد الشام كي يبحث عن ويحافظ على ويعيد أملاك الإمبراطورية المصرية القديمة في بلاد الشرق الأدنى القديم إلى السيطرة المصرية المنسحبة من هناك بعد نهاية عصر الدولة الحديثة، عصر الفراعنة المحاربين العظام الذين كان آخرهم المحارب العظيم الملك رمسيس الثالث.



(نقش الملك شاشانق الأول في معابد الكرنك)

بعد وفاة الملك سليمان، تعرضت كلٌ من مملكة يهودا وإسرائيل تحت حكم رحبعام ابن سليمان ويربعام الأول للهجوم العسكري المصري القوي بقيادة الملك شاشانق الأول، أو الملك شيشاق كما تطلق عليه التوراة. وهزم الملك المصري شاشانق الأول المملكتين شر هزيمة في عام ٩٢٥ قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام في حملة عسكرية لم تز أرض فلسطين مثلها منذ أيام المحارب العظيم الملك رمسيس الثالث، آخر فراعنة مصر العظام. وفي البداية،

تحرك الملك شاشانق الأول ضد مملكة يهودا التي كان يحكمها رحبعام، ووصل إلى أسوار القدس العتيقة. وحاصر الفرعون شاشانق الأول المدينة غير أنه لم يدخلها لأنه تم منحه «كل كنوز بيت الرب، وكنوز بيت الملك، حتى أخذ كل شيء، وأخذ كل الدورع الذهبية التي صنعها سليمان» كما تذكر التوراة في سفر الملوك. ولقد أخذ شاشانق الأول كل كنوز سليمان، ما عدا الأرك المقدس، ثم توجه الفرعون إلى إسرائيل متتبعًا يربعام الذي هرب إلى الأردن. وتوقف شاشانق الأول في مجدو، نفس المكان الذي حارب وانتصر فيه الفرعون المحارب الأشهر الملك تحمتس الثالث العظيم منذ حولي خمسة قرون ماضية، وأقام لوحة انتصار هناك كي يخلد شاشانق الأول انتصاره بتلك الأراضي مثلما كان يفعل أسلافه من الملوك الفراعنة المحاربين العظام.

قام الفرعون شاشانق الأول بتصوير انتصاره على جدران معبد ربه الإله آمون في طيبة في جنوب مصر، وتم إعادة فتح محاجر الحجر الرملي النوبي في جبل السلسلة في أسوان كي تمده بالأحجار المطلوبة للبناء، وكان إيبوت كبير كهنة الإله آمون هو المشرف على أعمال البناء تلك، وتم بناء فناء عظيم جديد أمام الصرح الثاني من صروح معابد الكرنك، وتم تزيين جدار الفناء الجنوبي الخارجي بمنظر ضخم للملك المنتصر شاشانق الأول بفضل ربه الإله آمون، ويظهر بالمنظر العديد من الأسرى يتساقطون بسبب قوة الفرعون الطاغية، وكذلك تم ذكر المدن الأسيرة التي خضعت لسلطان جلالة الفرعون شاشانق الأول.

على الرغم من أن الملك شاشانق الأول كان من أصول ليبية، غير أنه عاش في مصر وتربى في أرض مصر وتعلم الثقافة المصرية والتحق بالجيش المصري. وتزوج من ابنة الملك المصري السابق عليه، وتولى حكم مصر، فأدى أداء عسكريًا وسياسيًا مبهرًا كأي فرعون مصري من قبل مقلدًا أسلافه من الملوك الفراعنة العظام خصوصًا سلفه العظيم الملك تحتمس الثالث، وأعاد مجد الإمبراطورية المصرية إلى بلاد الشرق الأدنى القديم بعد أن اختفى الوجود المصري منذ نهاية عصر الدولة الحديثة ونهاية عهد الفرعون المحارب العظيم الملك رمسيس الثالث. والملك شاشانق الأول محارب مصري من طراز رفيع عاش في فترة كانت مضطربة في بلاد الشرق القديم.

في عهد ذلك الملك، عادت مصر كي تمارس دورها القيادي والرائد في المنطقة كقوة عسكرية لا يُشق لها غبار بفضل بسالة وشجاعة الفرعون شاشانق الأول وعظمة مقاتلي مصر الشجعان.

الملك طاهرقا

بعد انهيار فترة الحكم الليبي التي كانت لا تمتاز بالتشرذم السياسي، أخذ الكوشيون أو النوبيون الموجودون إلى الجنوب ينظرون شمالاً ويتطلعون إلى حكم مصر القوية التي انهارت، غير أنهم لم ينظروا للأمر على أنه غزو للشمال، لمصر الكبيرة الأم حاضرة الثقافة ومبدعة الدين. والحقيقة أنهم رأوا أنه بتوجُّههم شمالاً بأنهم يرممون الدولة العظيمة وينقذون سلطة وسيادة المعبود آمون، ذلك الرب الذي دانوا له بالعبادة والقداسة والولاء منذ أمدٍ بعيدٍ. ولذلك عندما تحرك الملك بيعنخي أو «بيا» إلى الشمال ضد مجموعة مكوَّنة من أربعة ملوك مصريين في العام الحادي والعشرين من حكمه الكوشي أو النوبي، أي في حوالي العام ٧٢٧ قبل ميلاد السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام، فقد نظر إلى الأمر على اعتبارٍ أن أولئك الملوك الأربعة كانوا بمثابة الأطفال الصغار الذين خرجوا عن الطوع وكان عليه أن يجعلهم يعودون إلى صوابهم وأن يعودوا إلى الصراط المستقيم. وقد انتصر عليهم بيعنخي وجعل منهم حلفاء وعينهم كحكام محليين في مقطاعاتهم باستثناء الأمير تف نخت الذي هرب إلى شمال الدلتا محاولاً تجميع قواته، وفي الوقت نفسه، أرسل إلى بيعنخي خطابًا بليغًا يطلب فيه منه الهدنة. ومن هنا جاء الحكم الكوشي أو النوبي إلى مصر والذي نعرفه عادةً بحكم الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية في تاريخ مصر الفرعونية.

ومن سلالة الملك الكوشي أو النوبي بعنخي، جاء بعد فترة الملك الأشهر طاهرقا الذي خلف أخاه الملك شبتكو في حكم مصر كفرعون من أصولٍ كوشية أو نوبية متمصرة. وفي آشور، في العراق القديم، والتي سوف تدخل في صراع مع مصر الكوشية أو النوبية، تم اغتيال الملك سنحريب في مدينة نينوي العراقية الشهيرة، في عام ٦٨١ قبل ميلاد السيد المسيح، وتولى الحكم من بعده ابنه آسر حدون. ويعتبر اسم الملك طاهرقا أكثر الأسماء شهرة وارتباطًا بالأسرة الخامسة والعشرين الكوشية؛ نظرًا لأنه أكثر الفراعنة ذوي البشرة السمراء بناءً وتعميرًا في مصر. ولا يمكننا أن ننسى العمود الرائع الذي أقامه في الفناء الأول لمعبد آمون في الكرنك، والذي كان واحدًا من سلسلة من الأعمدة التي كانت تشكل بناءً عظيمًا في الكرنك. وكان الملك طاهرقا نشيطًا أيضًا في بلاد النوبة بلاده الأصلية. ففي كاوة، أعاد إعمار الموقع المهجور بعد أن كان قد أسسه الفرعون البنّاء الملك أمنحتب الثالث الفرعون الشمس، وخصصه الملك طاهرقا لربه المحبوب الإله آمون. وأقام الملك طاهرقا بهذا الموقع بناءً عظيمًا يأتي في المرتبة الثانية بعد معبد جبل برقل الشهير.



(رأس الملك طاهرقا)

كانت فترة حكم الملك طاهرقا من فترات المواجهة الشرسة مع قوة الإمبراطورية الآشورية الضاربة في منطقة الشرق الأدنى القديم؛ ففي عسقلان على الحدود المصرية-الفلسطينية، واجه الملك الآشوري آسر حدون في عام ٦٧٣ قبل ميلاد السيد المسيح القوى المتجمعة مع المدينة المتمردة وكانت معها مصر. وفي عام ٦٧١ قبل الميلاد، هاجم الملك الآشوري آسر حدون مصر وتعمق فيها بشدة حتى احتل العاصمة المصرية الأزلية منف، وأسر ولي العهد المنتظر وكل أفراد عائلة الملك طاهرقا ما عدا الملك طاهرقا نفسه الذي هرب إلى الجنوب إلى مدينة طيبة أو الأقصر الحالية. وفي عام ٦٦٩ قبل الميلاد، عاد الملك الآشوري آسر حدون إلى مصر، غير أنه مات في الطريق إلى مصر، وخلفه في الحكم ابنه الملك الآشوري الأشهر آشوربانيبال والذي تراجع عن غزو مصر مؤقتًا. ثم قام الملك الآشوري آشوربانيبال بغزو مصر لاحقًا والقضاء على كل نبلاء الشمال ما عدا عائلة نخاو الأول الذي سوف يأتي من صلبه ملوك الأسرة السادسة والعشرين الصاوية، والتي جاءت من مدينة سايس في وسط الدلتا المصرية. وبذلك فقد طاهرقا العاصمة منف ثانية، وهربَ إلى الجنوب، إلى ما وراء طيبة إلى عاصمته البعيدة ناباتا في أقصى الجنوب تلك المرة. وبقي عمدة طيبة النبيل الشهير مونتو إم حات محاصرًا يواجه قسوة الغزو الآشوري الذي دمر طيبة وآثارها العريقة انتقامًا من مصر وحكامها الكوشيين الذين كانوا يعاونون حكام بلاد الشام ضد الحكم الآشوري، واستسلم عمدة طيبة مونتو إم حات. وفي عام ٦٦٥ قبل الميلاد، اختار طاهرقا ابن عمه تانوت آماني كولي لعهده وكشريكه في الحكم. ومات طاهرقا في العام التالي.

هكذا انتهى حكم دولة كوش الضعيفة التي لم تستطع أن تحكم مصر القوية التي من رحمها جاء ملوك الأسرة التالية، وأعني الأسرة السادسة والعشرين الصاوية، الذين وحّدوا مصر تحت حكم وطني، وأعادوا لمصر مجدها القديم لفترة قصيرة من الزمن قبل أفول نجم مصر القديمة.

الملك بسماتيك الأول

كانت مصر في موعد مع القدر حتى يمنّ عليها بواحدٍ من أفضل الملوك المحاربين ودهاة الملوك السياسيين، وأعني الملك بسماتيك الأول الذي تولى حكم مصر في فترة عصيبة في عصرها المتأخر، وقاد مصر إلى المجد والقوة والنهضة ثانية، فكانت أشبه بابتسامة مبتسرة قبل أن يتم إسدال الستار على تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، وقبل أن تتحول إلى مملكة يحكمها الغرباء، وأعني الإسكندر الأكبر وخلفاءه من الملوك البطالمة. وحقيقة، فمن رحم الموت، تولد الحياة، ومن هول وفجاعة الانهيار، تنبعث النهضة، ومن خضم المعاناة والفرقة والمأساة، تتحقق الوحدة والأمجاد والانتصارات.

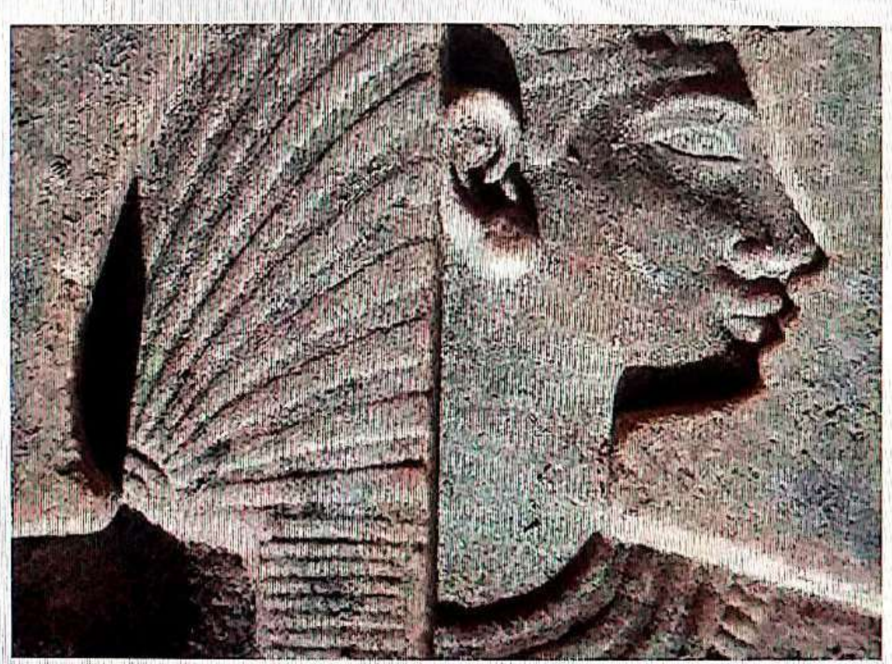
بفرض قبضة الآشوريين القوية على حكم مصر بعد هروب الكوشيين أو النوبيين إلى بلادهم الكوشية أو النوبية البعيدة، انتهت الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية أو النوبية للأبد، وبدأت في التشكل والظهور الأسرة السادسة والعشرون الصاوية المصرية الوطنية تحت حكم الآشوريين، حين قام الآشوريون بقيادة ملكهم الأشهر آشوربانيبال بتعيين نكاو أو نخاو، أو نكاو أو نخاو الأول كحاكم على مدينة سايس وابنه بسماتيك الأول كحاكم على مدينة أثريب أو أتريب بالقرب من بنها في القليوبية في الدلتا. وقام الملوك الصاويون بفرض سيطرتهم على الدلتا شيئًا فشيئًا كحُكّام تابعين للآشوريين. وفي عام ٦٦٤ قبل الميلاد، مات نكاو أو نخاو الأول، فقام الآشوريون بتعيين ابنه بسماتيك الأول كملك على مصر ككل.

ولم يكن صعبًا على الملك العسكري والسياسي المحنك بسماتيك الأول أن يسيطر على الدلتا التي جاء منها، خصوصًا أن أمراء الدلتا كانوا ضعافًا وحكامها لم يكونوا يشكلون أي خطورة تُذكَر عليه وتحديدًا بعد أن مهَّد له أبوه الحكم أثناء فترة تبعيته للحكم الآشوري، غير أن الصعوبة الحقيقية التي واجهها الملك بسماتيك الأول كانت هي كيفية سيطرته على الصعيد المصري البعيد عن الدلتا والعصي على السيطرة والاعتراف بحكمه، وتحديدًا مدينة طيبة العاصمة الدينية العريقة ومركز عبادة الرب الأكبر الإله آمون. غير أن الملك بسماتيك الأول أثبت أنه سياسي محنك ورجل دولة من طراز رفيع؛ ففي عام ٦٥٦ قبل ميلاد السيد المسيح، قام بإرسال ابنته الأميرة نيوت إقرت أو نيوتكريس إلى الجنوب، إلى طيبة عاصمة مصر الدينية الكبرى، كي يتم تعيينها كزوجة مستقبلية للإله آمون رب طيبة الأعظم، في معبد الإله آمون بالمدينة، وكي يضمن السيطرة الدينية ومن ثم السياسية على طيبة وعلى الجنوب وعلى معبد الإله آمون وكهنته المسيطرين ودولته ذات الأوقاف والإقطاعيات والهبات والمؤسسات الاقتصادية القوية والمتحكمة في الجنوب وفي مصر ككل. وكذلك كان بسماتيك الأول من الذكاء بمكان حين استخدم نبلاء الجنوب، ولم يعادِ منهم أحدًا، وكان من

بين أهمهم، والذي استخدمه كي يدعم حكمه وحكم ابنته في الجنوب بعد قيامه بخطوة تعيينها بمعبد الإله آمون، مونتو إم حات، عمدة طيبة القوي النبيل والكاهن الرابع للإله آمون. وكان بسماتيك رجل دولة مميزًا حين لم يخلع زوجتي الإله آمون الحاليتين من الأسرة السابقة، أي الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية أو النوبية والتي هرب ملوكها إلى الجنوب، وهما شبن أوبت الثانية وآمون إرديس الثانية؛ وذلك حتى لا يدخل في محظور ديني يفقد به ما أراد تحقيقه من تعيين ابنته كزوجة مستقبلية للإله بعد موتهما.

هكذا سيطر بسماتيك الأول على الدلتا أولاً، ثم على الصعيد ثانيا من خلال تعيين ابنته في طيبة في ذلك المنصب الديني والدنيوي المهم، وكذلك عدم معاداة البيت الكوشي الحاكم دينيًا في الجنوب أو معاداة نبلاء الجنوب الذين دعموا سيطرتهم وأيدوا سلطانه على الجنوب.

اتجه بسماتيك الأول ببصره إلى خارج الحدود بعد أن أمنّ دولته في الداخل. وحاول استعادة أمجاد ملوك مصر السابقين في الشرق الأدنى القديم، غير أنه وجد أن الأمر يحتاج إلى تكوين جيش قوي حتى يستطيع أن يحقق جولاته وصولاته وانتصاراته معيدًا مجد الإمبراطورية المصرية في الشرق الأدنى القديم والتي كانت في عصر الدولة الحديثة. فتوصل إلى فكرة عبقرية وهي تكوين جيش من الجنود المرتزقة من بلاد البحر الأبيض المتوسط، فجمع عددًا كبيرًا منهم من الإغريق والكاريين وغيرهم.



(نقش من هليوبوليس يصور وجه الملك بسماتيك الأول)

حكم بسماتيك الأول مصر لمدة تزيد على النصف قرن حوالي ٥٤ عامًا، أعاد مصر فيها إلى عصر الاستقرار والقيم الدينية الراسخة في عقيدة المصريين القدماء. وعلى الرغم من التأثر الكبير بالتأثيرات الوافدة من الخارج في الفن والتجارة، والتي لم تحدث من قبل، قام ذلك الملك ورجال عهده ومن تلاهم بالنظر إلى آثار الماضي في عصور الدول القديمة خصوصًا عصري الدولتين القديمة والوسطى بعين الاعتبار والتقليد الحميد، والذي نعرفه بعصر الرينيسانس أو عصر النهضة الصاوية، حين قام ملوك الأسرة بتقليد فنون ونصوص الفترات السابقة ووضع لمستهم الفنية في محاولة منهم للالتصاق بمجد الماضي العظيم في مواجهة ضعف الحاضر الذي كانوا يعيشونه.

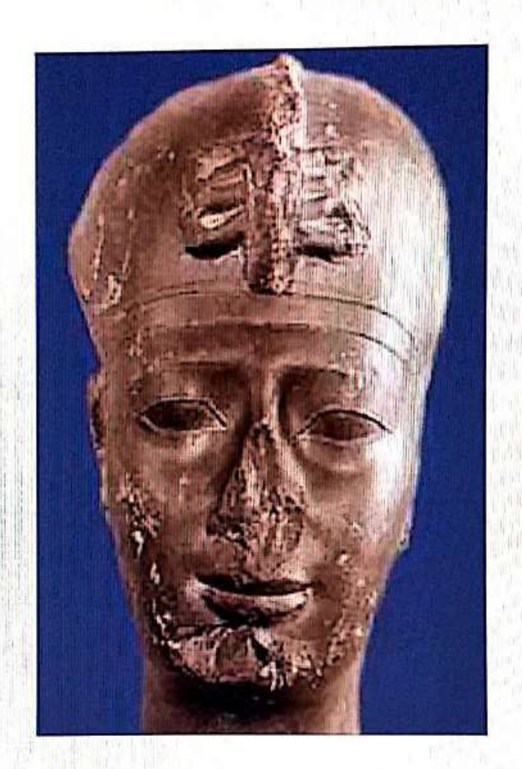
في عام ٦٥٣ قبل الميلاد، استغل بسماتيك الأوَّل انشغالَ ملوك آشور بأمورهم الداخلية، وانسلخ من سيطرتهم، وهم أيضًا لم يهتموا بانفصاله عنهم؛ نظرًا لشدة الصراع الداخلي على العرش لديهم، وتهديد قوة بابل الصاعدة من الجنوب لهم، فكان لبسماتيك الأول ما أراد، وكان سعيد الحظ، وأخذ لنفسه خطًا مغايرًا في السياسة الخارجية، وجعل من مصر قوة ضاربة ومهمة ومؤثرة في منطقة الشرق الأدنى القديم، غير أن غياب آشور عن المسرح السياسي للأحداث في الشرق الأدنى القديم، ترك فراغًا سياسيًا كبيرًا في المنطقة؛ فظهرت قوى أخرى مثل البابليين تحت قيادة ملكهم الشهير نابوبولاصر، وظهر كذلك الميديون، وظهر أيضًا الساسانيون. وفي الفترة من ٦٢٩ إلى ٦٢٧ قبل الميلاد، قام نابوبولاصر بالتحرك جنوبًا إلى جنوب فلسطين حتى دحره المصريون في أشدود على الساحل الفلسطيني. وتقين بسماتيك الأول من الخطر الحقيقي لمصر لانهيار الآشوريين؛ لذا ساعدهم ضد البابليين في عام ٦١٦ قبل الميلاد، غير أنه لم تكن لديه قوات كافية كي يقضي على البابليين نصرة ومساندة منه لحلفائه الآشوريين السابقين. غير أن قوى دولية أخرى مكونة من الفرس والساسانيين قامت بمهامجة آشور في عام ٦١٢ قبل الميلاد وقامت بالقضاء على الخط المالك في البيت الآشوري.

بسماتيك الأول ملك مصري محارب وسياسي ورجل دولة من طراز رفيع حقق لمصر مجدها وناطح القوى الإقليمية الكبرى وجعل لمصر مكانها في عالمي الشرق الأدنى القديم والبحر المتوسط وحقق عصر النهضة الصاوية في فترة متقلبة من تاريخ مصر القديمة، فكان نعم الفرعون الموحد لمصر العظيمة والمجدد لثقافتها والمعيد لمجدها الخالد.

الملك أبريس واح أيب رع

الملك أبريس هو الملك المصري المعروف باسم «واح إيب رع» في عصر الأسرة السادسة العشرين أو ما يعرف باسم العصر الصاوي، أو عصر النهضة الصاوية. وكان قد تبع والِده الملك بسماتيك الثاني على عرش مصر في شهر فبراير من عام ٥٨٩ قبل ميلاد السيد المسيح عليه وعلى نبيِّنا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم. وكان والده الملك بسماتيك الثاني قد تدخَّل بشدة في الشؤون الفلسطينية بما قد نطلق عليه حملة في عام ٥٩١ قبل الميلاد في جنوب فلسطين وذلك دعمًا ومناصرة للحاكم الماريونت البابلي المدعو زاداكيه حاكم مدينة القدس وذلك تشجيعًا له على الثورة على الحكم البابلي غير أن الأمر جاء بعواقب وخيمة. وكان من سببها أن دفعت القدس الثمن غاليًا بعد أن قام الملك البابلي المشهور نبوخذ نصر الثاني بحصارها لمدة عامين كاملين دون رحمة، مما أدى إلى سقوط مدينة القدس في عام ٥٨٧ قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام. وكان ذلك العام هو العام السابع والثلاثون من أعوام النفي البابلي وفقًا للتوراة.

وعلى ذلك النحو، استمر الملك إبريس واح إيب رع في سياسة والده في فلسطين. وشهدت فترة حكمه مشكلات عسكرية داخل البلاد وكذلك خارج البلاد، غير أن تمردًا نشب على حدود مصر الجنوبية وتحديدًا على الحامية الحدودية المهمة في منطقة أسوان. وقام القائد العسكري الشهير نس حور المسمى باسم بسماتيك منخ إيب بقمع ذلك التمرد وإقناع الجنود المتمردين بالعودة إلى أرض مصر بعد أن كانوا قد تركُوا مكان الحامية في أسوان واتجهوا جنوبًا إلى النوبة وذلك وفقًا لما ذكره في نص سيرته الذاتية الشهيرة والمكتوبة على تمثاله الموجود حاليًا في متحف اللوفر في العاصمة الفرنسية باريس.



(رأس الملك الملك أبريس واح أيب رع في متحف اللوفر في العاصمة الفرنسية باريس)

أرسل الملك أبريس واح إيب رع جيشه إلى ليبيا بقيادة القائد المصري المعروف أحمس أو أمازيس والذي سوف يكون له دور مهم في الأحداث القادمة وفي مستقبل وحكم مصر. وكانت قد قامت في ليبيا أحداث مؤسفة نتيجة هجمات الغزاة الدوريين من الإغريق والذين هاجموا ليبيا بضراوة، فقام الملك المصري الملك إبريس واح إيب رع بإرسال ذلك الجيش دعمًا لليبيا ومساندة لها ضد تلك الهجمات الغازية، غير أن الجيش المصري عانى من ذلك التدخل، ونشبت به حركة تمرد ضد الملك إبريس واح إيب رع، وانتشرت الحرب الأهلية في أرض مصر بعد عودة الناجين من تلك المعركة غير الموفقة، ودبت الحرب الأهلية بين الجنود المصريين الوطنيين والجنود المرتزقة من الأجانب الذين كانوا يعتمد عليهم ملوك الأسرة السادسة والعشرين الصاوية في تكوين الجيش ابتداءً من الملك المؤسس بسماتيك الأول.

كما كان يحدث في عصر الإمبراطورية الرومانية، اتجهت أبصار الجيش المصري إلى اختيار قائد عسكري منه؛ كي يقود التمرد ضد الملك إبريس واح إيب رع. وما وقع الاختيار إلا على القائد المنتصر في الحملات الصاوية ضد بلاد النوبة، وأعني القائد العسكري المتميز أحمس أو

أمازيس، وعندما التقى الجمعان، تم قتل الملك إبريس واح إيب رع، وانتقل الحكم إلى ذلك القائد العسكري وهو من خارج سلالة الأسرة الحاكمة ولا يحمل الدم الملكي، وأعني الملك أحمس الثاني أو الملك أمازيس، غير أن الملك أحمس الثاني أمازيس قام بتأدية الطقوس الواجب اتباعها على جثمان الملك القتيل الملك إبريس واح إيب رع بما يليق بجلال الملكية المصرية المقدسة ودفن جسد الملك الراحل في المقابر الملكية في عاصمة الأسرة الصاوية في مدينة سايس في وسط الدلتا المصرية.

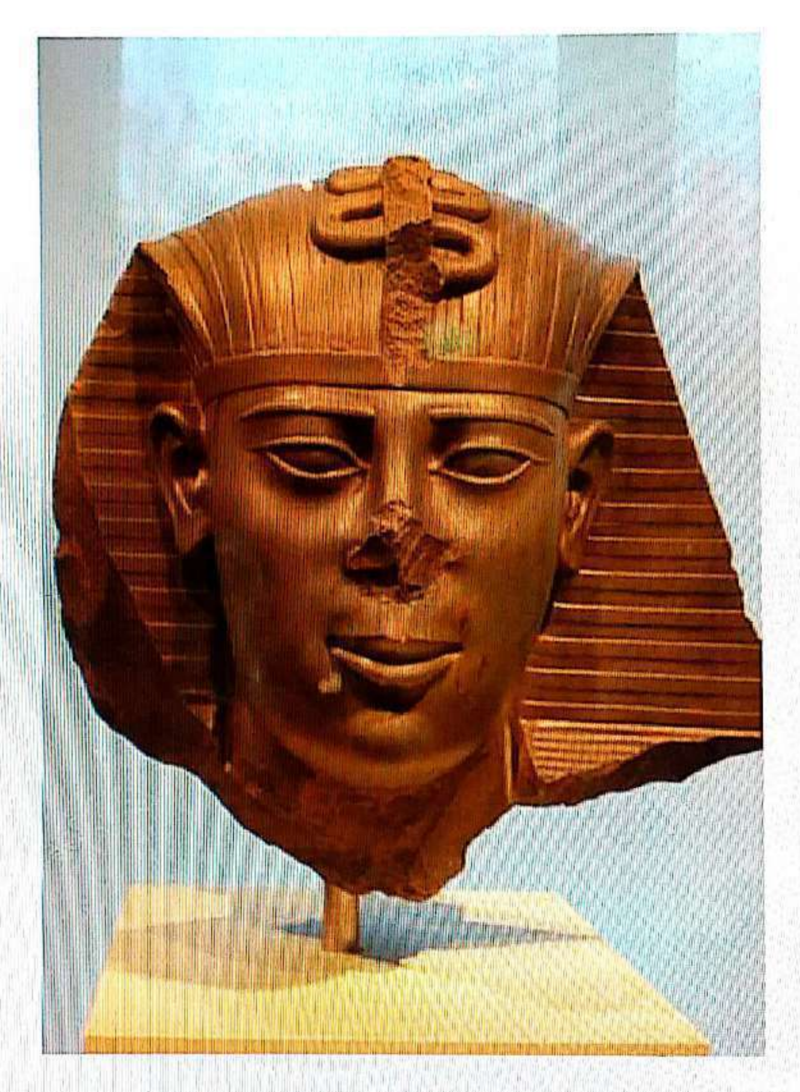
الملك إبريس واح إيب رع كان حلقة وصل بين ملوك سايس الأوائل وبين الملك أحمس الثاني أمازيس الذي أعاد للأسرة الحاكمة عظمتها. وحكم مصر حكمًا رشيدًا وجعل من مصر قوة كبرى مهمة في الشرق الأدنى القديم.

الملك أحمس الثاني أمازيس

الملك أحمس الثاني أو الملك أمازيس هو ثاني أهم ملك في الأسرة السادسة والعشرين الصاوية أو العصر الصاوي بعد الملك المؤسس بسماتيك الأول. وحكم فترة طويلة من العصر الصاوي تقدر بحوالي أربعة وأربعين عامًا من عمر الأسرة المقدرة بحوالي مائة وثمانية وثلاثين عامًا، أي مدة تزيد عن ثلث عُمر الأسرة، وكان عهده عهد ازدهار وسيادة ورخاء وإبداع وتعمير وبناء وتعاون وتواصل مع القوى الخارجية.

ازدهرت العاصمة الملكية سايس في وسط الدلتا المصرية في عهد الملك أحمس الثاني أمازيس، وحفلت المدينة بالمقابر الملكية الصاوية، غير أن هذه المدينة لم يتم حفرها بشكلٍ كاملٍ وشاملٍ، ولم نعثر بها إلا على عدد قليل من تماثيل الأوشابتي أو التماثيل المجيبة التي كان المصري القديم يستخدمها للقيام بالعمل نيابة عنه في العالم الآخر. وتحمل عشرة من تلك التماثيل اسمَ بسماتيك، غير أنه من الصعب تحديد نسبتها لأي ملك من الملوك الثلاثة الذين حملوا اسم بسماتيك. وهناك ستة من تماثيل الأوشابتي تحمل اسم الملك أحمس الثاني أمازيس.

يُعَدّ المؤرخ الإغريقي الشهير هيرودوت، أو أبو التاريخ، أو أبو الأباطيل في رأي البعض، من أقرب المصادر زمنيًا التي تحدَّثت عن عصر الأسرة السادسة والعشرين الصاوية؛ إذ أنه كان قد زار مصر في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد أي بعد حوالي قرن من بعد نهاية الأسرة السادسة والعشرين الصاوية. وذكر هيرودوت الكثير من الأمور عن فترة حكم ذلك الملك. وقام الملك أحمس الثاني أمازيس بنقل الجنود المرتزقة من الأجانب إلى منطقة نقراطيس في محافظة البحيرة في غرب الدلتا، وأعطى لهم امتيازاتٍ كثيرة مثل الحقوق التجارية، وذلك حتى يتفادى وقوع أية مشكلات وصدامات مع الجنود المصريين وأهل مصر عمومًا. وفي عهده، أصبحت نقراطيس منطقة تجارة حرة مثل ديلوس في بلاد اليونان. وفي نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، أظهرت حفائر عالم الآثار البريطاني الأشهر السير وليام فلندرز بتري في المدينة أنها كانت ذات طبيعة كوزموبوليتانية وأن معابدها كانت مخصصة لآلهة الجاليات التي كانت موجودة بها.



(رأس الملك في المتحف المصري في العاصمة الألمانية برلين الملك أحمس الثاني أمازيس)

غير أن ما يحسب لعهد الملك أحمس الثاني أمازيس أن التجارة في البحر المتوسط كانت تشكّل بُعدًا مهمًا من أبعاد السياسة الخارجية المصرية في تلك الفترة، وكان تدعيمها ضرورة من ضرورات فترة حكمه المزدهر والمديد، وكانت كذلك مهمة أساسية من مهام الأسطول المصري في البحر المتوسط. وبناءً عليه، فقد تمّ التعامل والتعاون من عددٍ كبيرٍ من الأمم في البحر المتوسط، خصوصًا الإغريق الذين شكلوا نسبة كبيرة من الجنود المرتزقة بالجيش المصري، وكان من شدة تدخل الملك أحمس الثاني أمازيس في العالم الإغريق أن قام بإعادة

بناء معبد الوحي الشهير والعظيم والخاص بالرب أبوللو في دلفى بعد أن جاء عليه حريق هائل ودمره تمامًا في عام ٥٤٨ قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

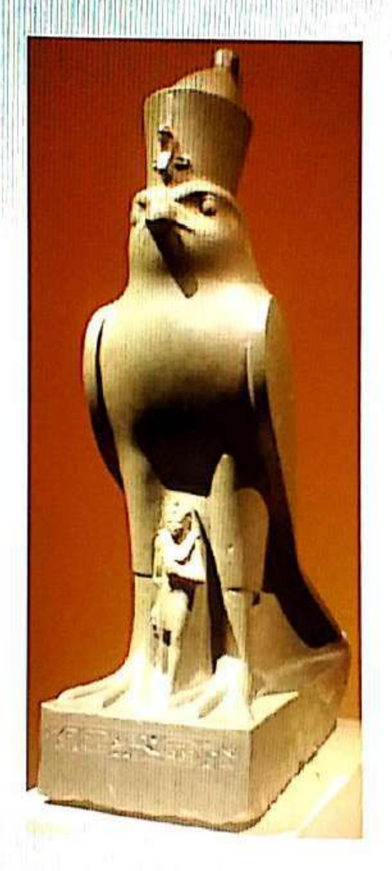
وبعد التهديد الآشوري لمصر من قبل في نهاية الأسرة الخامسة والعشرين النوبية أو الكوشية، جاء بعده التوسع البابلي والنشاط العسكري بشدة في الشرق الأدنى القديم، مما سبب قلقًا وتهديدًا لمصر الصاوية طوال عصر الأسرة. غير أن المشهد شهد لاعبًا جديدًا وقويًا وعنيفًا أبتلع كل القوى القديمة، وأسس إمبراطورية جديدة، وأعني الإمبراطورية الفارسية والتي حاربت الإغريق بكل قسوة. وكانت مصر الصاوية بعد رحيل القائد العسكري القوي أحمس الثاني أمازيس لا تمثل قوة قد تقلق الفرس؛ فتحرك الملك الفارس الشهير قمبيز نحو مصر، واحتل مصر في عام ٥٢٦ قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام، وانتصر على الملك بسماتيك الثالث؛ ابن الملك أحمس الثاني أمازيس، في منطقة الفرما على حدود البوابة الشرقية لمصر. وكان بسماتيك الثالث الضعيف وغير الخبير قد خلف أباه الملك أحمس الثاني أمازيس القوي لعدة أشهر على عرش مصر. فهرب بسماتيك الثالث إلى العاصمة الأزلية منف حيث نجح بسهولة الملك الفارسي قمبيز في أسره وبعث به إلى عاصمة الإمبراطورية الفارسية الشهيرة في مدينة سوسة. وهكذا جاءت نهاية الأسرة السادسة والعشرين الصاوية على أيدي الفرس الذي دمرا مصر وعاملوا المصريين أسوأ معاملة.

الملك نختنبو الثاني

الملك نختنبو الثاني هو آخر فرعون مصري يحكم مصر، وانتهت فترة حكمه باحتلال الفرس لمصر ثانيةً في عام ٣٤٣ قبل ميلاد السيد المسيح، قبل احتلال الإسكندر الأكبر لمصر في عام ٣٣٢ قبل الميلاد، وكذلك هو آخر حاكم مصري لمدة حوالي ثلاثة وعشرين قرنًا من الزمان حتى جاء حكم اللواء محمد نجيب وحكم الضباط الأحرار وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

لقد كانت السنوات الثمانية الأولى من حكم نختنبو الثاني بعيدة عن التدخل الفارسي بسبب المشكلات الأسرية في البيت الفارسي الحاكم وما تلاها، غير أنه في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، نجح الحاكم الفارسي الجديد أرتازيركيس الثالث في فرض سيطرته على معظم أرجاء الإمبراطورية الفارسية، وحاول غزو مصر، غير أن حملته باءت بالفشل، وبسبب ذلك، نجحت بعض المدن اليونانية والفينقية في تحدي القوة الفارسية عسكريًا لبعض الوقت.

وكان الملك نختنبو الثاني قد رجع إلى التقاليد الملكية القديمة والاستقرار الذي جلبته الآلهة لأرض مصر، فقام الملك بإعادة بناء وتأسيس المعابد، وتم تقديم الملك على اعتبار أنه في حماية الآلهة، وبالفعل هناك تمثال كبير من الحجر في متحف المتروبوليتان في مدينة نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية يصور الملك نختنبو الثاني في شكلٍ صغيرٍ بين قدمي الرب حورس، المعبود المصري الشهير وحامي الملكية المصرية المقدسة، والذي تم تصويره في شكل صقر كبير الحجم.



(الملك نختنبو الثاني بين قدمي الرب حورس في متحف المتروبوليتان بنيويورك في أمريكا)

حارب الجنود الإغريق من المرتزقة مع مصر ومع الفرس، وكان قوام خُمس جيش الملك نختنبو الثاني حوالي عشرين ألف من الجنود الإغريق، ووقف بهم الملك نختنبو الثاني في قلعة الفرما التي كانت على حدود مصر الشرقية في عام ٣٤٢ قبل ميلاد السيد المسيح مواجهًا التقدم الفارسي نحو بلده مصر؛ فتمت هزيمة المصريين عن طريق الجنود الإغريق المرتزقة الذين استعان بهم الفرس لغزو مصر، وسقطت الفرما، ومن بعدها مناطق الدلتا القوية الحصينة، ثم سقطت منف بعد فترة؛ مما اضطر الملك نختنبو الثاني إلى الهروب إلى بلاد النوبة، وتم حكم مصر عن طريق الفرس للمرة الثانية.

لا نعرف مصير الملك نختنبو الثاني، غير أننا عثرنا تمثال أوشابتي يحمل اسمه وهو موجود في متحف تورينو في إيطاليا وغير معروف مكان الاكتشاف مما يشير إلى موته ودفنه غالبًا في العاصمة سايس، وهناك آثار جنائزية أخرى تحمل اسمه. وجاء في الأسطورة التي تعود

إلى العصور الوسطى وتحمل اسم «الإسكندر رومانس» أو «قصة الإسكندر»، أن نختنبو الثاني هرب إلى البلاط المقدوني، أعداء الفرس التقليديين، حيث عمل كساحر مصري عظيم، وهناك لفت نظر الملكة أوليمبيا، زوجة الملك فيليب الثاني، وأصبح أب الإسكندر الأكبر، مما يُعَدّ تبشيرًا بحكم الإسكندر الأكبر لمصر واعتباره من نسل الفراعنة العظام.

بنهاية حكم الفرعون المصري العظيم الملك نختنبو الثاني يختفي نسل الفراعنة من حكم مصر. وباحتلال مصر من الإسكندر الأكبر، تصير مصر مملكة يحكمها الغرباء إلى أن تقوم ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ميلادية ويحكم مصر اللواء محمد نجيب أول حاكم مصري لمصر بعد المصريين القدماء بعد حكم الغرباء لمصر لمدة تقترب من ٢٣٠٠ عام.

الباب الخامس

العصر البطلمي

الملك بطلميوس الأول

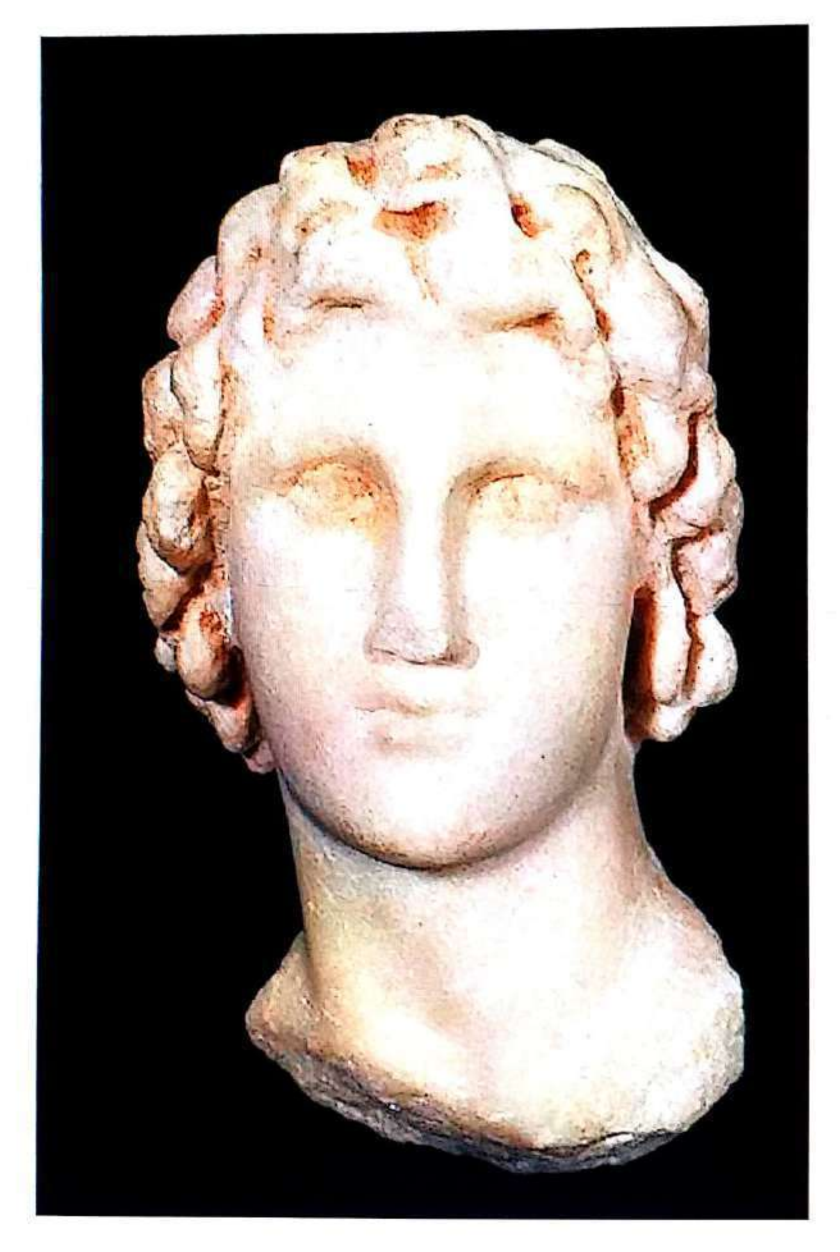
بعد أن استولى الفاتح المقدوني الأشهر الإسكندر الأكبر على سوريا وفينيقيا وفلسطين، وصل إلى مصر في نوفمبر ٣٣٢ قبل الميلاد، حيث رحب به الناس كمخلص لهم من حكم الفرس، وسلمها له حاكم الولاية الفارسي (المزربان) دون مقاومة واستسلم بحكمة، ومن ثم استقبله المصريون بالترحاب استقبال البطل المنقذ لهم من ظلم الفرس، وزار معبد الإله بتاح في العاصمة المصرية الخالدة، منف في الجيزة الحالية، وقام الإسكندر الأكبر بتقديم القرابين لأبيس (العجل المصري المقدس رمز المعبود المصري القديم، الإله بتاح، رب مدينة منف)، ونصب من نفسه فرعونًا على مصر وفقًا للتقاليد الدينية المصرية العريقة، وتوِّج بالتاج المزدوج التقليدي للملوك لفراعنة؛ كي يكسب ود المصريين، واسترضى الكهنة المحليون وشجع دينهم، وأمضى الشتاء في تنظيم مصر، ووظف حاكمًا للمصريين، وأبقى الجيش تحت قيادة مقدونية منفصلة. وبعد ذلك، سار بقواته بمحاذاة الفرع الكانوبي للنيل، متجهًا إلى ساحل البحر المتوسط، ووصل إلى شاطئ البحر، عند قرية راقودة، وحينها قرّر بناء مدينة الإسكندرية كعاصمة لمصر. ولفت نظر الإسكندر موقعٌ بالقرب من الذراع الغربي للنيل في موقع ممتاز بين البحر وبحيرة مريوط، وفي حماية جزيرة فاروس. وكان بهذا الموقع قرية تسمي «راكوتيس» (أو «راقودة»). وهنا أسس الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية.

وفي السابع من إبريل من عام ٣٣١ قبل الميلاد، وضع الإسكندر الأكبر حجر الأساس للمدينة التي اختارها كحاضرة تحمل اسمه في مصر، واختار موقع قرية قديمة كان اسمها راقوتيس، كما ذكرنا. وهو اسمٌ أرجعه البعض إلى تسمية مصرية ذكرت في النصوص رع-قدت، وترجمه البعض بإلاله رع المشيد، وهي ترجمة خاطئة. وذكر اسم الموقع في عدة نصوص ترجع للعصر المتأخر لاسيما في عقود البيع والشراء. ويتجه الرأي الغالب إلى أن الكلمة تترجم حرفيًا بحد البناء أو الحيز، ويميل البعض إلى ترجمتها بمعنى الفناء أو الحوش، وربما كان المقصود بالفناء هنا مدخل مقصورة الإله الذي كان يُعبَد في القرية القديمة، وموقع تلك القرية الآن منطقة العامود بكرموز.

وقام المهندس دينوقراطيس بوضع تخطيط المدينة على الطريقة الهيبودامية، أو ما يشبهه البعض برقعة الشطرنج، وهو تخطيط يشبه تخطيط المدن اليونانية في القرن الخامس قبل

الميلاد. وبدايةً قام دينوقراطيس بربط القرية بجزيرة فاروس من خلال جسرٍ يُطلَق عليه الهيبتاستاديوم أي سبعة إستادات. وهي مسافة تصل لحوالي الميل بين القرية والجزيرة. وهذا الجسر مفقود تمامًا الآن، ومن خلال هذا الجسر الذي كان يربط بين جزئي المدينة القديمة، وُجِدَ ميناءان: هما الميناء الشرقي الذي كانت تغادر منه المنتجات إلى بلاد اليونان، والميناء الغربي أو العود الحميد، كما كان يُطلَق عليه.

وهكذا انتقل عرش الحضارة (الإغريقية من أثينا التليدة) إلى مدينة الإسكندرية الوليدة التي سوف تصير المدينة العالمية قديمًا وحديثًا. وزار معبد الوحي الخاص بالإله آمون في واحة سيوة في صحراء مصر الغربية ليستمد الوحي من آمون عن مستقبله بصفته الابن لآمون الرب المصري.



(رأس الإسكندر الأكبر بمتحف الآثار بمكتبة الإسكندرية)

مات الإسكندر الأكبر فجأة في يونيو عام ٣٢٣ قبل الميلاد في بابل في العراق القديم، وقُسمت إمبراطوريته بين قواده، وكانت مصر من نصيب بطلميوس بن لاجوس الذي أسس أسرةً حاكمةً جديدةً، ودولة البطالمة في مصر.

يُعتبر العصر البطلمي في مصر أول فترات الاحتلال الأجنبي بعد انتهاء حكم الملوك المصريين بعد نهاية عصر الأسرة الثلاثين في مصر القديمة، وتحولت مصر فيه إلى دولة، بل إلى إمبراطورية ذات طبيعة مزدوجة تجمع بين العنصر الهيلليني اليوناني، الممثل في المحتل الوافد الذي كانت تربطه صلات قوية وقديمة وعدة بمصر الفرعونية، والعنصر الشرقي الممثل في مصر الفرعونية وحضارتها العريقة التي أبهرت الوافد اليوناني وجعلته يتأثر بها للغاية، ونتجت في النهاية حضارة جديدة هي الحضارة الهيللينستية التي جمعت بين حضارة اليونان القديم ومصر القديمة.

ها نحن قد ودعنا مصر القديمة وتراثها الحضاري المعشوق بولع في العالم كله، ودخلنا، الآن، إلى مصر مختلفة، حين تم إسدال الستار على مصر الفراعنة وحضارتها الباهرة، وحين تحولت مصر العظيمة إلى مملكة مستقلة يحكمها الغرباء!

كان الملك بطلميوس حازمًا وواقعيًا ونشيطًا وذا عزيمة وإرادة قوية وقدرة كبيرة على التحمل والعمل. حكم مصر منذ صيف عام ٣٢٣ قبل الميلاد. ودفن جثمان الإسكندر الأكبر في الإسكندرية، ومارس بطلميوس الأول الحكم في مصر كملك مُطلَق السُلطات واتخذ لقب الملك الإله ابن الإله مثل الملوك الفراعنة.

وكان بطلميوس الأول في أشد الحاجة إلى نوعٍ من الوحدة الدينية بين المصريين والإغريق، أهم عناصر دولته الجديدة، حتى تساند تلك الوحدة الدينية الوحدة السياسية لدولته الناشئة، فتم تقديم إله جديد هو سرابيس، الذي كان يُعرف باسم أوزير أبيس على هيئة العجل أبيس، وكان يُعبد في منف، في صورة إنسانية بدلاً من العجل. وتم بناء معبد كبير له في الإسكندرية، وكان المعبد الأساسي والرسمي لعبادته ومركز نشر عبادته إلى بلدان البحر المتوسط، ونظرًا لأنه كان يمثل المعبود المصري أوزير؛ فتم إكمال ثالوثه بضم الربة إيزيس والمعبود حورس له.

ونشأت عبادة جديدة أخرى ذات طابع رسمي في عهد بطلميوس الأول، وهي عبادة الملوك، وبدأت بتقديس الإسكندر الأكبر رسميًا، وعُيّنَ له كاهن خاص تؤرخ باسمه الوثائق الرسمية، وحدث ذلك مع بطلميوس وخلفائه. وهي عادة تقديس الملك بعد موته وعبادته، ونشأت عن عادة يونانية قديمة، وهي إضفاء نوع من القداسة على أرواح الرجال العظام بعد موتهم، وأضفى البطالمة عليها الطابع الرسمي؛ وهكذا أصبحت عبادة الإسكندر الأكبر عبادة رسمية للدولة، ثم شملت العبادة الملك بطلميوس بعد ذلك، وأطلقوا عليه اسم سوتير أي المنقذ. ومات الملك بطلميوس الأول وخلفه ابنه بطلميوس الثاني فيلادلفوس الذي أعلن تأليه والديه تحت لقب الإلهين المنقذين. وأصبحا يُعبدان مع الإسكندر الأكبر. وهكذا نشأت رسميًا عبادة

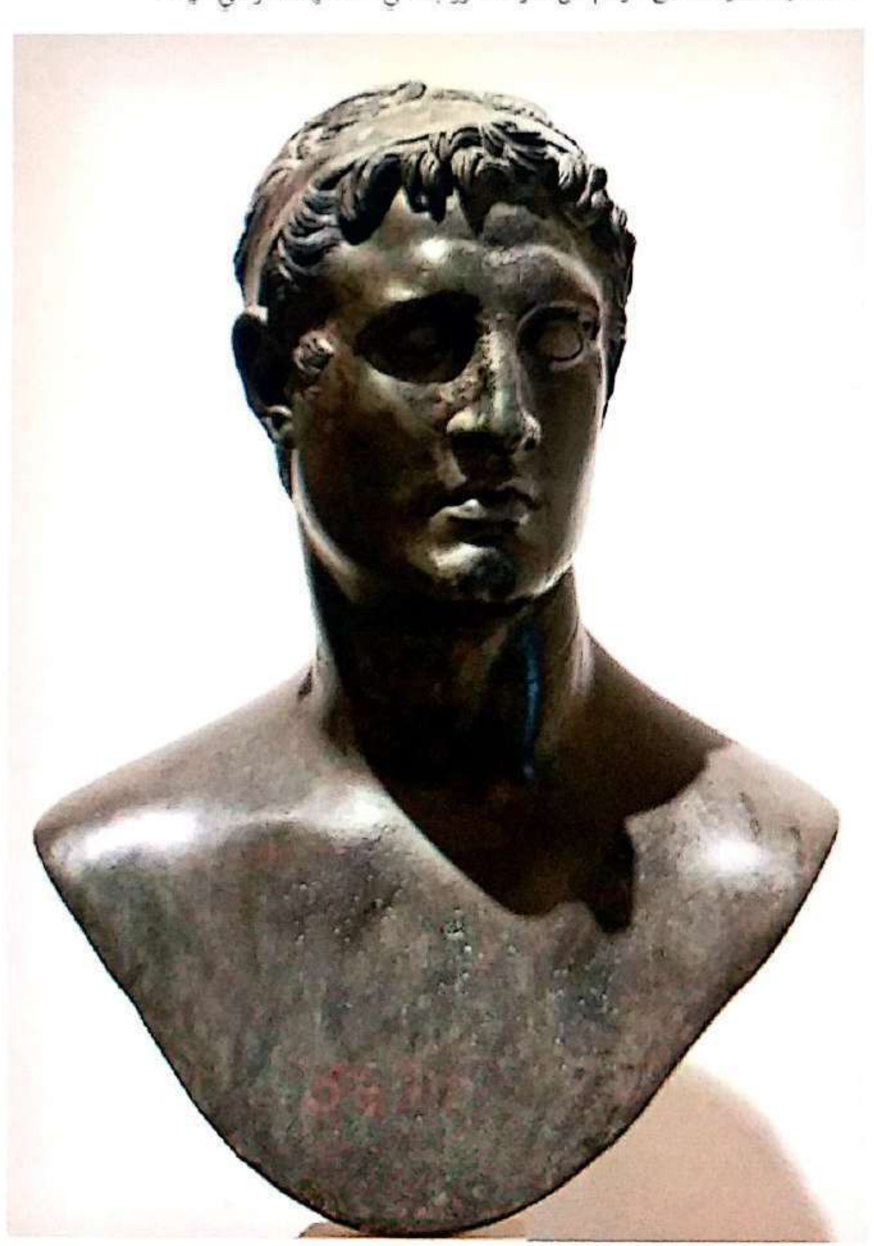
الملوك البطالمة بعد وفاتهم، عادة، وليس أثناء حياتهم، كما سوف يقوم هو بذلك لاحقًا.



(بطلميوس الأول سوتير مؤسس الأسرة البطلمية في مصر في هيئة الفراعنة)

الملك بطلميوس الثاني

عندما مات الملك بطلميوس الأول، تولى ابنه بطلميوس الثاني فيلادلفوس (٢٤٦-٢٨٥ ق.م) الحكم بعد وفاة أبيه في سن الشباب، وكان محبًا لحياة النعيم والبذخ، ولم يقد جيشه وترك تلك المهمة لقواده على الرغم من كثرة الحروب التي خاضتها مصر في عهده.



(تمثال الملك بطلميوس الثاني فيلادلفوس)

كان عهده مثل عهد لويس الرابع عشر في فرنسا. وإذا كان بطلميوس الأول هو الذي أسس الدولة البطلمية، فإن بطلميوس الثاني هو الذي بنى الدولة، واهتم بمدينة الإسكندرية وزينها، وترجع أغلب مبانيها الكبرى إلى عهده، واهتم بجلب الشعراء والعلماء إلى دولته، وجعلهم أعضاء في الموسيون والمكتبة التي أنشأها والده، ونمت مكتبة الإسكندرية نموًا كبيرًا في عهده حتى صارت أكبر مكتبة في العالم القديم كله.

ووفد إلى مصر الكثير من الشخصيات الكبيرة من أصحاب المواهب ورجال الفنون والآداب مثل السياسي والفيلسوف الأثيني ديمتريوس الفاليري، مؤسس متحف الإسكندرية الشهير، أو الموسيون، أو معبد ربات الفنون والعلوم. وأنشأ مدينة بطلمية في صعيد مصر؛ كي تكون مركزًا لحامية للدفاع عن جنوب البلاد. وسكن الإغريق الوافدون في الإسكندرية ونقراطيس وبطلمية وعلى الأراضي الزراعية في البلدان والقرى المختلفة، خصوصًا في الفيوم. وكانت تلك سياسة أبيه بطلميوس الأول وهو من بعده. ولم يؤسس أحد منهم مدينة جديدة أخرى. وكان الهدف من ذلك نشر أعداد كبيرة من الإغريق في الريف المصري؛ ليقيموا على الأرض التي أعطاها إياهم حتى يساهموا في زيادة الإنتاج.

جعل الملوك، وعلى رأسهم الملك بطلميوس الثاني، البطالمة مدينة الإسكندرية مدينة الثقافة العالمية، وصارت عروس البحر المتوسط بحق وحاضرة العالم القديم، وانتقلت قيادة العالم اليوناني الثقافية إلى مدينة الإسكندر الأكبر الجديدة كما أراد لها مؤسسها وأصبحت كما شاء في فترة زمنية قصيرة. وفي الإسكندرية، تأسست جامعة، وجلب الملوك البطالمة لها كبار العلماء في كل فروع المعرفة الإنسانية، وأخذوا ينهلون من نهر الحضارة المصرية المتدفق، ويستخرجون منها آراءً ونظريات صاغوها بالمنهج العلمي الإغريقي، ونشروها في كل أنحاء العالم، وطوروا الديانة المصرية القديمة وفق الفكر الهيللينستي العالمي، وقدموها للعالم الذي كان يعيش فراغًا روحيًا كبيرًا آنذاك. وأنشأ البطالمة الموسيون (وهو كلمة يونانية ومعناها «معبد ربات العلوم والفنون»). وكان مركزًا للدراسة والبحث، وألحقوا به مكتبة كبيرة جمعوا فيها الكتب بكميات كبيرة جدًا، وكان المؤسس للموسيون هو الملك بطلميوس الأول سوتير (أي المنقذ)، وتعلّم فيها أغلب علماء الإغريق مثل العالم الرياضي والهندسي إقليدس، أرشميدس صاحب قانون الطفو، وإراتوستنيس، صاحب المحاولة الكبرى لقياس محيط الكرة الأرضية، وكانوا من علماء الإسكندرية في العصر البطلمي، تلك كانت الأجواء الباهرة في الفترة المزدهرة من تاريخ الأسرة البطلمية.

وكما تقدم، كان الملك بطلميوس الثاني محبًا لحياة النعيم والبذخ، ولم يقد جيشه، وترك تلك

المهمة لقادته، على الرغم من كثرة الحروب التي خاضتها الدولة في عهده. ومن أهم شخصيات عهده، أخته وزوجته الثانية الملكة أرسنوي الثانية، التي كانت ذات طموح ليس له مثيل، وكان لها تأثير كبير على زوجها، وسياسته أثناء حياتها، وبعد مماتها حتى إنها صارت أشهر وأقوى امرأة في فترتها، وكانت أول ملكة بطلمية تؤله رسميًا هي وزوجها بطلميوس الثاني أثناء حياتهما تحت لقب فيلادلفوس أي المحبة لأخيها أو المحب لأخته، وأطلق اسمها على منطقة الفيوم.

وقام بطلميوس الثاني بتوطيد نفوذ مصر السياسي والعسكري في سوريا الجنوبية على الحدود الشرقية، وبرقة على الحدود الغربية، وحوض بحر إيجة في الشمال، واتصل بدولة روما الناشئة، واهتم بالمنطقة الأثيوبية في جنوب مصر؛ لحماية الحدود الجنوبية لمصر؛ ولتنشيط التجارة مع أفريقيا؛ وتحقيقًا لهواياته في صيد واقتناء الحيوانات والنباتات الغريبة.

وكان حكمه أكثر بذخًا ودعة وإقبالاً على التنعم بمظاهر الحضارة، وكان يعيش الملك في الإسكندرية التي عاشت في نعيم الأعياد والاحتفالات الدينية والدنيوية، وكانت تضرب بقصره الملكي الأمثال في الثراء والعظمة والأبهة. وتزوج من أخته، على عكس الأعراف اليونانية. وكان له عدد كبير جدًا من المحظيات.

واهتم بمدينة الإسكندرية وزينها، وترجع أغلب مبانيها الكبرى إلى عهده، واهتم بجلب الشعراء والعلماء إلى دولته. وجعلهم أعضاء في الموسيون، ومكتبة الإسكندرية، التي نمت نموًا كبيرًا في عهده حتى صارت أكبر مكتبة في العالم القديم كله. وكان عهده مثل عهد الملك الشمس، أو لويس الرابع عشر في فرنسا.

وإذا كان بطلميوس الأول هو الذي أسس الدولة البطلمية، فإن بطلميوس الثاني هو الذي استكمل بناء الدولة؛ فللمرة الأولى، اكتملت نظم الحكم الداخلي في عهده مثل نظام الإدارة والاقتصاد والسياسة المدنية للدولة البطلمية وتم العمل بها. وطبق نظام الاحتكار الشديد في التجارة، وكان هو المؤسس الفعلي لعبادة الأسرة المالكة، فأعلن قداسة أبيه وأمه والإسكندر الأكبر، ثم هو نفسه، وزوجته أرسنوي الثانية في أثناء حياتهما. ومنذ ذلك الحين، أصبح جميع الملوك البطالمة، وكذلك زوجاتهم، يعبدون تحت ألقاب تقديسية مختلفة، ويشملهم لقب «آلهة شركاء في المعابد»، أي معابد الآلهة الأخرى؛ إذ لم تخصص لهم معابد مستقلة. وأصبح كاهن الإسكندر الأكبر هو كاهن الملوك البطالمة المؤلهين أيضًا. ومات بطلميوس الثاني بعد أن حكم مصر أربعين عامًا.

وتزوج بطلميوس الثاني من الملكة أرسنوي الأولى، ابنة أحد قادة الإسكندر الأكبر، وأنجب

منها ثلاثة أبناء، أحدهم كان ولي عهده وخليفته الملك بطلميوس الثالث إيورجتيس، ثم غضب على هذه الملكة وأبعدها عن القصر الملكي ونفاها؛ نتيجة وشاية كاذبة من زوجته التالية والمتآمرة، الملكة أرسنوي الثانية، واتهامها لها بخيانة بطلميوس الثاني والتآمر على حياته.

على عكس الأعراف اليونانية وإحياءً للتقاليد المصرية العريقة بزواج الملك من أخته، تزوج الملك بطلميوس الثاني من شقيقته الثانية، وأرملة حماه، الملكة القوية أرسنوي الثانية. وكانت ابنة الملك بطلميوس الأول وزوجته الثانية الملكة برينيكي الأولى، وحملت من الألقاب الملكية ما يلي: «أخت الملك»، و«زوجة الملك الكبرى» و«أم الملك (رغم أنها لم تكن أم ولي عهد والملك التالي بطلميوس الثالث إيورجتيس)».

الملكة أرسنوي الثانية

كانت الملكة أرسنوي الثانية صاحبة شخصية قوية وذات طموح ليس له مثيل. وكان لها تأثير كبير على زوجها، وسياسته أثناء حياتها، وبعد مماتها. وكانت أشهر وأقوى امرأة في زمنها. وكانت أول ملكة بطلمية تؤلَّه رسميًا هي وزوجها بطلميوس الثاني أثناء حياتهما تحت لقب «فيلادلفوس» أي «المُحِبّة لأخيها» أو «المحب لأخته». فكان زوجها هو المؤسس الفعلي لعبادة الأسرة المالكة البطلمية، حين أعلن تأليه أبيه وأمه والإسكندر الأكبر، وهو نفسه وزوجته أرسنوي الثانية في حياتهما. ومنذ ذلك الحين أصبح جميع الملوك البطالمة وزوجاتهم يُعبدون تحت ألقاب تأليهية مختلفة، ويشملهم لقب «آلهة شركاء في المعابد» أي معابد الآلهة الأخرى؛ إن لم تُخصص لهم معابد مستقلة، وأصبح كاهن الإسكندر الأكبر هو كاهن الملوك البطالمة المؤلهين أيضًا، وأطلق بطلميوس الثاني المحب لملكته بجنون اسم أرسنوي على منطقة الفيوم في مصر الوسطى.



(أرسنوي الثانية ملكة مصر على عملة من عهد زوجها)

كان زواج أرسنوي الثانية من بطلميوس الثاني هو الزواج الثالث لها، ونظرًا لأنها لم تنجب من بطلميوس الثاني، فقامت بتربية أبناء أرسنوي الأولى كأبنائها، ومنهم مَن حكم مصر وهو الملك بطلميوس الثالث إيورجتيس، بعد رحيل أبيه بطلميوس الثاني الذي حكم مصر أربعين عامًا، وكانت أرسنوي الثانية ملكة دون منافس لمدة من خمس إلى سبع سنوات، والسيدة الأولى دون منازع، وفي أحيانٍ كثيرة كانت تشارك في السياسة الداخلية والخارجية لمصر؛ إذ من المرجح أنها كانت تشاركه في الحكم.

على الرغم من عشق بطلميوس الثاني لأرسنوي الثانية، لم يكتفِ بها وحدها، فكان له عددٌ

كبيرٌ من المحظيات الجميلات، غير أنه بعد وفاتها، قام زوجها، الحزين على حبيبة قلبه، وسميرته، وخليلة حكمه، بتأليهها وإطلاق الصفات عليها التي توضح تأثرهما الشديد بديانة المصريين القدماء، فأصبحت «ابنة (رب الأرباب) آمون» و«ابنة (رب الأرض) جب». ووضع الملك تماثيل لها في المعابد المصرية الكبرى كي تُعبد فيها مع آلهتها المصرية المعروفة. وظهرت في هذه التماثيل، وعلى العملات، والأواني غالبًا، مصوَّرة كملكة فرعونية ترتدي الباروكة الثلاثية الأجزاء ذات الخصلات المصفوفة، وتضع حية الكوبرا المزدوجة على رأسها كي تميز نفسها عن الملكات التقليدات السابقات عليها من أسرتها البطلمية، وكي تربط نفسها بالملكات المصريات ذات الأصول العريقة والتاريخ التليد المعروف.

واستغل بطلميوس الثاني زوجته وأخته المؤلهة أرسنوي الثانية كي يزيد من شعبيته بين جموع الشعب المصري. وفي الإسكندرية، في العصر التالي، العصر الروماني، ازدهرت عبادة الملكة أرسنوي الثانية. ومن الجدير بالذكر أنه قامت الكاهنات بأداء طقوس عبادتها وإحياء ذكراها التي لم تمت برحيلها.

أرسنوي الثانية ملكة من طراز خاص في فترة حضارية جديدة مختلفة من تاريخ مصر الحضاري العريق والطويل حين تراجعت مصر الفرعونية سياسيًا إلى خلفية المشهد، غير أن مصر الحضارية كانت في مقدمة المشهد كعادتها الخالدة دائمًا وأبدًا.

الملك بطلميوس الثالث

خضعت مصر في عصر البطالمة إلى نظام ملكي وراثي أستمد من مصر القديمة. ونقل الملوك البطالمة مركز الحكم إلى مدينة الاسكندرية. وحاول ملوك تلك الفترة التودد للمصريين بإظهار أنفسهم في ملابس ومناظر الملوك الفراعنة حتى يكسبوا ود شعب المصري الذين كانوا يحكمونه بعد نهاية مصر الفرعونية. ومارس الملك البطلمي كل صلاحيات الملك المصري القديم كحاكم مُطلَق ومصدر السُلطات.

استمر الملك بطلميوس الثالث إيورجتيس (٢٤٦-٢٢١ ق.م.)، ثالث الملوك البطالمة، الملك الشهير، على سياسة والده، والذي كان شريكه في الحكم عام ٢٤٧ قبل الميلاد. وكان ملكًا نشيطًا عسكريًا مثل جده بطلميوس الأول. وتوسعت مصر في عهده وشملت أجزاءً من سوريا وليبيا والنوبة الشمالية. ونجد هذا الملك يخرج بنفسه على رأس الجيش المصري في عام ٢٤٦ قبل الميلاد، ويحتل سوريا الشمالية، ثم يعبر الفرات، ويصل إلى مدينة سليوقية على نهر دجلة دون مقاومة، وسرعان ما يعود إلى مصر الحبيبة لمواجهة المجاعة التي حدثت نتيجة انخفاض مياه النيل، فاستغل الملك سليوقس، الابن الاكبر الذي تولى العرش في سوريا، انشغال الملك المصري بأزمته الداخلية، فجمع جيشًا، وأخذ معظم ممتلكات مصر في سوريا الشمالية، لكن بقيت سوريا الجنوبية، بما فيها فينيقيا وفلسطين، في أيدي بطلميوس الثالث الذي لم يخرج للحرب ثانيةً طوال حياته معتمدًا على مجده الحربي الأول والدبلوماسية في توطيد نفوذه في الداخل والخارج. وبقدر قليل من الحروب، صان الإمبراطورية المصرية وبقيت لمصر ممتلكاتها في برقة وسوريا الجنوبية وآسيا الصغرى.

في عهده، حافظت الإسكندرية على مكانتها كأكبر مركز للعلم والثقافة، وظلَّ قصره مقصد الأدباء والعلماء من جميع أجزاء العالم اليوناني، وحاول إصلاح التقويم المصري بإضافة يوم سادس للأيام الخمسة في التقويم المصري القديم. ولكن هذا المحاولة أهملت من بعده حتى تم تطبيق هذا الإصلاح في العصر الروماني في روما مع يوليوس قيصر، ومع الإمبراطور أغسطس في مصر عند احتلاله لها عام ٣٠ قبل الميلاد. وحاول تحديد بداية التاريخ البطلمي، وتاريخ الدولة البطلمية المستقلة في مصر، وهو عام ٣١١ قبل الميلاد، عام وفاة الإسكندر الرابع، ابن الإسكندر الأكبر، ممثل السلطة الشرعية المركزية في إمبراطورية والده. ولم يتم العمل به وجرى التأريخ بنفس الطريقة بسنوات حكم كل ملك بطلمي.

خضعت الإدارة في مصر في عصر البطالمة إلى نظام ملكي وراثي جاء من مصر القديمة. وحاول ملوك تلك الفترة التودد للمصريين بإظهار أنفسهم في ملابس ومناظر الملوك الفراعنة؛ حتى يكسبوا ودَّ المصريين الذين كانوا يحكمونهم بعد نهاية مصر الفرعونية.

قام النظام الإداري لمصر في ذلك العصر على قسمين كبيرين: الإدارة المركزية والإدارة المحلية. وكانت الإدارة المركزية تتركز على الملك باعتباره رأس الجهاز الإداري للدولة. ومارس الملك البطلمي كل صلاحيات الملك المصري القديم كحاكم مُطلَق السُلطات. وكان مصدر جميع السلطات. وكان كل موظف يعتبر خادمًا لدى الملك البطلمي ويستمد منه سلطته.

وكل الملك أيضًا يرأس السُلطة الدينية، ويسيطر على المعابد والكهنة والعاملين بها. وكان يعين مندوبًا عنه في كل المعابد الكبيرة في البلاد، وأشرف مندوبو الملك على أملاك المعابد، وكان الملك أيضًا هو من يعين من يشاء في الوظائف الدينية في المعابد، وعمل الملك على تزويد المعابد بما تحتاج إليه، وكان يحترم الشعائر الدينية والمعبودات المصرية.

كان يعاون الملك جهاز إداري كبير في أنحاء البلاد. ونؤكد أن الهدف من ذلك كان هو أغرقة(2) الجهاز الإداري في مصر وتطويره؛ كي يناسب النظام الجديد للبلاد، وتم نقل مركز الحكم إلى مدينة الإسكندرية.

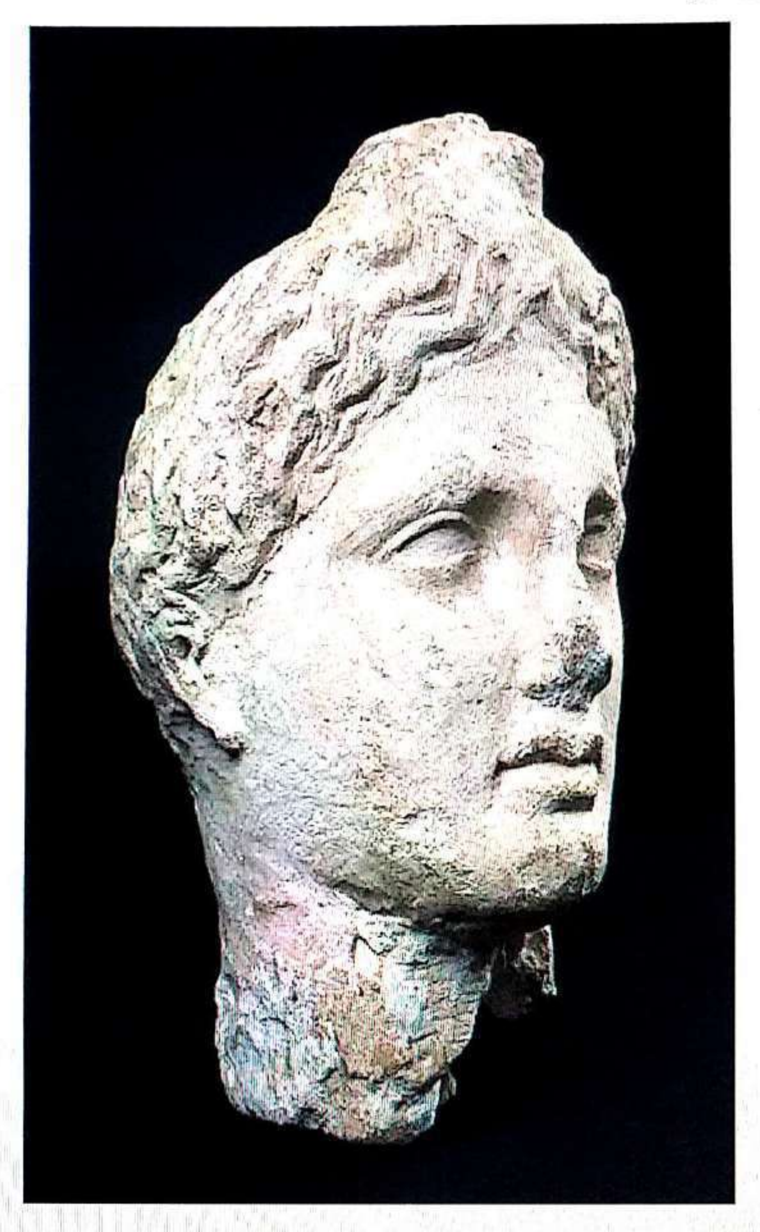
وبالنسبة للإدارة المحلية، استمر نفس التقسيم القديم لمصر إلى أقاليم مختلفة. ورأس كل إقليم حاكم يسمى نومارخوس. وانقسم كل إقليم إلى عدد من المراكز التي انقسمت بدورها إلى وحدات أصغر.

تقرب بطلميوس الثالث إلى المصريين، وأعاد إلى المعابد المصرية تماثيل الآلهة المصرية التي أخذها الفرس منهم قبل الإسكندر الأكبر. ونتيجة المجاعة التي أثرت على الزراعة بشكل كبير، أعلن تنازل الدولة عن الضرائب ونصيبها في المحاصيل، واستورد القمح بأغلى الأثمان من الخارج حتى يرفع الضائقة عن الناس، فجعلهم يشكرونه كما جاء في قرار الكهنة المصريين المعروف بقرار كانوب في مارس عام ٢٣٨ قبل الميلاد. واهتم اهتمامًا كبيرًا ببناء المعابد المصرية؛ فأتم بناء معبد الإلهة إيزيس في جزيرة فيله بأسوان، وشيَّد صرحًا في معابد الكرنك، وبنى معبدًا صغيرًا في إسنا في الصعيد، غير أن أهم مبانيه هو معبد إدفو المشهور في محافظة أسوان الذي يُعَد أكمل المعابد المصرية. وخصص هذا المعبد للرب المصري القديم الأشهر حورس، وبدأ تشييده عام ٢٣٧ قبل الميلاد، وتم استكماله بعده بحوالي مائة وثمانين عامًا في عهد الملك بطلميوس الثاني عشر المعروف بـ «بطلميوس الزمار» (خلع المصريون عليه لقب «الزمار»؛ لأنه كان مولعًا بالعزف على الناي!).

اكتفى الملك بطلميوس الثالث بالملكة برينيكي الثانية كزوجة واحدة له فقط، على عكس والده الملك بطلميوس الثاني الذي تزوج غير أمه، الملكة أرسنوي الأولى.

الملكة بِرينيكي الثانية

كانت الملكة بِرينيكي (أو برنيقة في نطق آخر) هي زوجة الملك بطلميوس الثالث إيورجتيس.



(رأس بِرينيكي الثانية بمتحف الآثار بمكتبة الإسكندرية)

قام الملوك البطالمة باستكمال ما بدأه الإسكندر الأكبر في مصر، ولكن من خلال منظور واقعي سعى إلى تكوين إمبراطورية وراثية في الشرق الأدنى القديم، ودخلت مصر في عصر البطالمة في صراعات وتحالفات عديدة مع القوى الدولية الفاعلة في المنطقة، ولعبت دورًا عسكريًا متميزًا في أحيان كثيرة، ومالت إلى استخدام الدبلوماسية وتبادل الهدايا مع القوى الخارجية المحيطة بها كي تؤمّن مصالحها في المنطقة، ومُنيت بالهزيمة في أحيان أخرى. وكان عهد الملوك الأربعة الأوائل هو عصر الملوك البطالمة الأقوياء.

وتغير النظام الإداري في مصر عما كان عليه الوضع في نهايات العصر الفرعوني. واختلف النظام الاقتصادي في مصر، وحدث انتعاش اقتصادي كبير، وأيضًا انتكاسات في بعض الأحيان، وفقًا لقوة أو ضعف الملك البطلمي. وتنوع المجتمع في مصر بشكل كبير في ذلك الوقت، وتنوعت العناصر البشرية الفاعلة فيه، ووصلت مصر إلى مستوى ثقافي متقدم، وأصبحت مدينة الإسكندرية ومكتبتها العامرة من أهم المراكز الثقافية والحضارية في عالم البحر المتوسط.

وكانت الملكة برينيكي ابنة الملك اليوناني المقدوني «ماجاس»، حاكم «قوريني» («شحات» في ليبيا حاليًا) الذي كان العم غير الشقيق لبطلميوس الثالث، والملكة اليونانية «آباما الثانية» السورية الأصل. ومن المثير في حياة هذه الملكة قصة زواجها الأول قبل بطلميوس الثالث؛ فبعد وفاة والدها مباشرة، تزوجت من الأمير المقدوني المعروف باسم «ديمتريوس الجميل». لكن بعد أن جاءت إلى قوريني، وقعت أمها «آباما الثانية» في غرام زوجها ديمتريوس الجميل، ونشأت بينهما علاقة آثمة، فما كان من برينيكي إلا أن قتلت ديمتريوس الجميل في فراش أمها التي عاشت بعد ذلك! ولم تنجب برينيكي من ديمتريوس الجميل، غير أنها كُوفئت بزواجها من بطلميوس الثالث الذي أنجبت منه حوالي أربعة أبناء وبنتين، كان أهمهم ولي عهده وخليفته الملك بطلميوس الرابع فيلوباتور (٢٠٥-٢٢١ ق.م.).

وحملت الألقاب التالية «أم الملك» و«أخت-زوجة ابن رع»، ويظهر هذا تأثرهما الواضح بالديانة المصرية القديمة، وتم تصويرها في فن الموازييك السكندري كممثلة لمدينة الإسكندرية الخالدة. وربما حكمت مصر نيابةً عن زوجها بطلميوس الثالث حوالي خمس سنوات أثناء غيابه في حربه السورية ضد الملك أنتيخوس الثالث، وحثت الشعراء على تخليد انتصار زوجها.

وكانت لها أرضها الخاصة وخيولها المشاركة في سباقات الخيل، وكانت فارسة، ويقال إنها كانت تعتلي ظهر الخيل وتشارك في أرض المعارك إلى جوار زوجها بطلميوس الثالث. وبعد وفاة زوجها بطلميوس الثالث عام ٢٢١ قبل الميلاد تم قتلها أثناء الإعداد لتولي ابنها العرش،

والذي ربما كانت شريكته في الحكم، وتم العثور على رأس تمثال ينسب لها في موقع آثار مكتبة الإسكندرية الجديدة ويُعرض حاليًا في متحف الآثار بمكتبة الإسكندرية. ويصور هذه الملكة بإنسان عين غير واضح، وبشعر مُصفّف على هيئة إكليل يحيط بوجهها من الأمام، وبوجهٍ جميل به مسحة من الحزن المعبّر عن هذه الملكة المهمة وحياتها التي عصفت بها رياح الأقدار.

وتم تأليه برينيكي الثانية وبطلميوس الثالث أثناء حياتهما تحت لقب ملكي يمجد الملك والملكة، وهو «إيورجتيس» بمعنى «إلهان خيران»، وتم الاعتناء بعبادة الملكة بعد وفاتها في مدينة الإسكندرية الخالدة عبر الزمن.

وامتدح الشعراء جمالها الرائع أمثال كاليماخوس الذي ألّف قصيدة شهيرة بعنوان «خصلة شعر برينيكي» يمتدح فيها الملكة، وقام الشاعر كاتوللوس بترجمتها إلى اللاتينية. وتحكي الأسطورة بأن برينيكي قصّت خصلة من شعرها وقدّمتها قربانًا في معبد الإلهة أفروديت أملاً في عودة زوجها من حملته بسلام، ولكن الخصلة اختفت من المعبد. وفُسّر ذلك بأنها صعدت إلى السماء لتصبح نجمًا يحمل اسم الملكة. وتقدم قصيدة كاليماخوس تلك الرواية الأسطورية بكثير من التمجيد والتفخيم لشخص الملكة.

وفي عام ٢٠١٠ ميلادية، كشفت بعثة المجلس الأعلى للآثار عن بقايا معبد للملكة برينيكي الثانية بمنطقة كوم الدكة بالإسكندرية، وخبيئة كبيرة للتماثيل ضمت إلى الآن ستمائة تمثال من العصر البطلمي مختلفة الأحجام والأنواع. وبقايا المعبد المكتشف إلى الآن يبلغ طوله ستين مترًا بعرض خمسة عشر مترًا، وتمتد بقايا المعبد أسفل شارع إسماعيل فهمي، كما أن المعبد أستخدم كمحجر للجير؛ مما أدى إلى فقدان أجزاء من أحجاره، وتم العثور على عددٍ كبيرٍ من التماثيل تمثل الإلهة باستت، إلهة الفرح والسرور عند المصريين القدماء، والتي كانت تمثل على هيئة القطة، وأن المعبد شيد من أجلها في العصر البطلمي في المنطقة الحالية بكوم الدكة. وعثر على التماثيل في ثلاثة أماكن يشكل كل منها خبيئة لعددٍ كبيرٍ من تماثيل القطط الأطفال وسيدات من الحجر الجيري والفخار وتماثيل من البرونز، وأخرى لإلهة وإلهات مصرية من الفيانس والتيراكوتا، إلى جانب تمثال لإيزيس، وفي حجرها الإله حورس الطفل (حربوقراط) وتماثيل لإله بتاح إله منف.

وبعد رحيل زوجها الملك بطلميوس الثالث، حكمت الملكة برينيكي وابنها بطلميوس الرابع البلاد، ولكنها قُتلَت على الأرجح بتحريض من بطانة السوء من المقربين منه، لكن يبدو أن ذلك الدور كان أكبر من إمكاناتها، ولم تستطع السيطرة على البلاد. وفي وقت لاحق قام ابنها الاكبر، بطلميوس الرابع، بوضع السم لها عندما حاولت وضع ابنها الأصغر على العرش.

الملكة كليوباترا الثانية

كانت الملكة كليوباترا الثانية (١١٦-١٨٥ قبل الميلاد) ابنة الملك البطلمي بطلميوس الخامس إبيفانس (أي «الظاهر»)، الذي بدأ الضعف في عهده يدب في أوصال دولة البطالمة وكان بدايةً لعصر الملوك البطالمة الضعاف. ثم مات. وترك حكم مصر لزوجته الملكة كليوباترا الأولى، سورية الأصل، التي أنجبت منه ولدين هما: بطلميوس السادس وبطلميوس الثامن إيورجتيس الثاني، وبنتًا واحدة هي: كليوباترا الثانية التي تزوجت من أخويها واحدًا بعد الآخر.



(رأس ربما لكليوباترا الثانية بمتحف والترز ببلتيمور بميريلاند بأمريكا)

بعد وفاة بطلميوس الخامس إبيفانس، انتقل حكم مصر إلى ابنه الأكبر وأخيها بطلميوس السادس فيلوميتور أي «المحب لأمه». ولما كان في مرحلة الطفولة بعد، قامت أمه كليوباترا الأولى بالوصاية عليه. وبعد أربع سنوات ماتت، فانتقلت الوصاية على ابنها ذي السنوات

التسع إلى اثنين من رجال البلاط: الخصي يولايوس والعبد المحرّر ومحاسب القصر لينايوس، وحين بلغ سن الرشد، قرّرا تزويجه من أخته الأكبر منه سنًا كليوباترا الثانية، واتخذت كليوباترا الثانية الألقاب التالية: «أخت-زوجة ابن رع» و«سيدة الأرضين». وأنجبت منه أربعة أبناء: ولدين باسم بطلميوس وبنتين باسم كليوباترا.

وتوّج بطلميوس السادس ولم يكن قد بلغ سن الخامسة عشرة بعد. وكان ألعوبة في يد الأوصياء والموظفين. فتشجّع خاله، حاكم سوريا، أنطيوخوس الرابع، على غزو مصر في الحرب السورية السادسة، بل وصل إلى حدود الإسكندرية التي تمكنت من مقاومته على الرغم من أسر بطلميوس السادس، وانتقل الحكم إلى أخيه بطلميوس الثامن.

وانتهت غزوة حاكم سوريا بقبول وساطة بعض السفراء الأجانب في مصر، ولكنه ما لبث أن نقض الاتفاق، وعاد إلى مصر غازيًا.

وتدخلت روما وأعلنت نفوذها في مصر، ورسم المندوب الروماني دائرة على الأرض حول الملك السوري وطلب منه الخروج من مصر والرد قبل الخروج من الدائرة، وعندئذ لم يكن أمام الملك السوري سوى الانسحاب، وبمجرد خروجه، قامت الثورة في الإسكندرية. ويبدو أن زعيم الثورة كان ذا أصول مصرية، غير أن الملك الذي خرج من الأسر تمكّن من إيقاف هذه الثورة بمساعدة شقيقه الأصغر، لكن هذا الأخير ما لبث أن أعلن نفسه ملكًا على البلاد، وطرد أخاه الذي لم يكن أمامه سوى اللجوء إلى روما التي أصبحت من ذلك العصر قِبلة الملوك الفارين. ودخل الملك بطلميوس السادس إلى روما بملابس بالية لكسب عطف الرومان. ويقال إنه أقام في بيت تاجر سكندري يعيش هاربًا في روما الأمر الذي يدل على سوء الأوضاع الاقتصادية في مصر آنذاك.

قام الشقيق الأصغر لبطلميوس السادس، بطلميوس الثامن بالعديد من الأعمال السيئة التي أغضبت المصريين، فثاروا عليه. وانتهزت روما الفرصة.، فأعادت بطلميوس السادس إلى الحكم على أن يحكم بطلميوس الثامن برقة. وحرصت على ترسيخ المبدأ الروماني الشهير «فرِق تسد»؛ فجعلت كل أخ متحفزًا ضد أخيه.

وقام بطلميوس السادس بالعديد من الأعمال في المعابد المصرية لكسب ود المصريين، لكن القدر لم يمهله، فمات في حملة على سوريا لمحاولة استعادة عمق سوريا.

وترك بطلميوس السادس طفلاً صغيرًا تحت وصاية أمه كليوباترا الثانية. وكان يُعتقد أن هذا الطفل هو بطلميوس السابع، ويطلق عليه الآن اسم بطلميوس المنفى الذي يكن لم يتخط مرحلة الطفولة. واشترك هذا الطفل في الحكم مع أمه، غير أن عمه بطلميوس الثامن تمكّن

بمساعدة اليهود من العودة إلى مصر، وقتل ابن أخيه، وانتقل إليه العرش، واتخذ بطلميوس الثامن لقب إيورجتيس الثاني.

كانت بداية حكمه غير مبشرة بالخير؛ فقتل ابن أخيه، وتزوج من كليوباترا الثانية، أرملة أخيه، وبلغ به التهور أن اغتصب ابنة أخيه، كليوباترا الثالثة، وتزوجها بعد ذلك. وأدت هذه الأحداث إلى ثورة في البلاد، ولم يتحملها الملك، وهرب هو وكليوباترا الثالثة. ولم يستمر الملك كثيرًا خارج البلاد حتى ساعدته روما على العودة إلى مصر، هو وزوجته كليوباترا الثالثة. فلجأت أرملة أخيه وزوجته، كليوباترا الثانية، إلى إنطاكية.

وتغيرت سياسة بطلميوس الثامن تمامًا بعد عودته إلى مصر؛ فنراه يصدر عفوًا عامًا أو ما يعرف بـ «العفو الكبير» عن كل الجرائم، ويعطي امتيازات للمعابد المصرية، ويعمل على إكمال الكثير منها، ويأمر الموظفين بعدم قبول أي رشاوٍ أو استخدام أي نفوذ ضد السكان. غير أن هذا العفو، وإن حمل الكثير من الخيرات للمصريين، فإنه عكس انهيار الأوضاع في البلاد وتفشي الرشوة. الأمر الذي جعل تنفيذ هذا العفو ليس ممكنًا، فضلاً عن تدخل روما في كل شؤون البلاد، وكأن مصر احتلت من قبل الرومان قبل احتلال أوكتافيوس أغسطس لها في عام ٣٠ قبل الميلاد.

في ظِل تلك الأحداث الملتهبة والمختلف ثقافة وفكرًا وأداء عن ثقافة مصر الفرعونية المحافظة، عاشت الملكة كليوباترا الثانية، فاكتوت بنارها، وشعرت بأسى بفقد الغالي والنفيس فيها، وتبدلت بين الأزواج من إخوتها، وعانت من مؤامرات القصر، وقسوة السياسة والحكم، وذاقت مرارة العروش والجيوش في مصر البطلمية الضعيفة.

الملكة كليوباترا الثالثة

عاشت الملكة كليوباترا الثالثة في فترة الضعف التي لحقت بالأسرة حتى أنهت حكمها الذي بدأ مجيدًا وآل إلى زوال.

كانت كليوباترا الثالثة ابنة بطلميوس السادس فيلوميتور وكليوباترا الثانية، وتزوجت من عمها بطلميوس الثامن إيورجتيس الثاني!

وحملت لقب «سيدة الأرضين» مثل ملكات الفراعنة. وبموت زوجها، بدأ الانهيار الشامل يعم البلاد والأحوال تسير إلى الأسوأ، وكانت روما تعمل دائمًا على فَرْض نفوذها على مصر، والاستيلاء على ما تبقَّى من ممتلكاتها في الخارج. وساعد على ذلك ما قامَ به بطلميوس الثامن، الذي كان له من كليوباترا الثالثة خمسة أبناء: ولدان وثلاث بنات، وترك لها حرية تولية العرش لمن تريد بعد وفاته. ومن إحدى المحظيات، كان له ابنٌ اسمه بطلميوس أبيون الذي تولى حكم برقة، وكتب وصية أن تؤول برقة إلى روما بعد وفاته.

أما في مصر، فحكمت العواطف الشخصية اختيار الملكة الأم لأحد أبنائها لتولي الحكم؛ فنقلت الحكم إلى ابنها بطلميوس التاسع سوتير (أي «المنقذ») الثاني، وزوجته من أخته الكبرى كليوباترا الرابعة التي كانت تمتلك طموحًا كبيرًا لم تقبله أمها، فطردتها من مصر. وزوَّجت ابنها من أخته الصغرى كليوباترا الخامسة سيليني (أو كليوباترا سيليني الأولى كما كان يُطلق عليها من قبل). غير أن الملكة الأم هذه المرة غضبت من الابن نفسه؛ فطردته إلى قبرص، وعينت بدلاً منه، ابنها الآخر، بطلميوس العاشر الإسكندر الأول، ولكنه لم يكن ملكًا عادلاً. وكان المصريون يمتلكون الجرأة للثورة ضد أي ملك ظالم؛ فقتل أمه، وانفرد بالحكم، بعد ست سنواتٍ من الحكم المشترك معها. وثار المصريون ضده، وطردوه شر طردة خارج البلاد، حيث مات.



(كليوباترا الثالثة وكليوباترا الثانية وبطلميوس الثامن أمام الرب حورس)

عاد بطلميوس التاسع مرة ثانية إلى الحكم، ولم تكن له أعمال تذكر سوى السعي الحثيث لإرضاء المصريين الثائرين أبدًا، والذين كانوا يعترضون على أي عمل يقوم به الملك، حتى لو كان صحيحًا. وترك بطلميوس التاسع الحكم لزوجته؛ إذ لم ينجب أبناء. غير أن هذه الزوجة لم تستقر طويلاً على العرش؛ إذ ماتت. وأصبح حكم مصر فارغًا. وهنا تدخلت روما بقوة، وأعلنت عن وجود ابن لبطلميوس العاشر في روما، وأن هذا الابن من حقه العرش.

وأصبح هذا الابن هو بطلميوس الحادي عشر الإسكندر الثاني، غير أن أعماله أدت إلى ثورة المصريين عليه، فقتلوه، بعد حكم دام عدة أشهر.

وللمرة الثانية، أصبح عرش مصر خاليًا، غير أنه ظهر ابنان للملك بطلميوس التاسع الذي يبدو أنه أنجب الكثير من الأبناء الذين يمكن الاستعانة بهم عند الحاجة. وتولى أحد هذين الابنين حكم مصر، والآخر توجه إلى قبرص، لكن روما رفضت هذا الأمر، وطالبت بتعيين الابن الذي توجه إلى قبرص حكم مصر، غير أن المصريين رفضوا ذلك، ليس حبًا في ذلك الملك، لكن كراهية وعندًا في روما!

وتولى فعلاً الحكم في مصر وفقًا لرغبة المصريين الملك بطلميوس الثاني عشر المعروف بـ

«الزمار»، وكان لقبه «نيوس ديونيسيوس الصغير»، غير أن المصريين خلعوا عليه لقب «الزمار»؛ إذ كان مولعًا بالعزف على الناي.

وبدأت روما تضغط على الملك لتنفيذ أوامرها، ولكنه تمكّن بمساعدة المصريين من الوقوف ضد روما التي أعلنت عن وجود وصية من بطليموس الحادي عشر توصي بنقل حكم مصر لروما بعد وفاته. وبالفعل أتت هذه التهديدات بنتيجة جيدة، فأصبح الملك ألعوبة في أيدي الرومان، وسخر منه المصريون، وثاروا عليه؛ فهرب إلى روما طالبًا المساعدة في العودة إلى مصر، ودفع لأجل هذا الكثير من الأموال التى كلفت خزانة مصر الكثير.

وعاد إلى مصر بأمر روما! ورافقه في رحلة العودة اثنان من القادة الرومان: بومبي، ومارك أنتوني، ودخل إلى الإسكندرية على أسنة الرماح الرومانية! وكان في استقباله، أبناؤه: بطلميوس الثالث عشر، وكليوباترا السابعة، وابنه الصغير، بطلميوس الرابع عشر. ويقال إن مارك أنتوني هام حُبًا في ابنة بطلميوس الثاني عشر، الفتاة الأجمل في زمنها، كليوباترا السابعة، منذ أن وقعت عيناه على محياها الجميل.

وكان آخر الأحداث المرتبطة بحكم بطليموس الثاني عشر تعيينه لأحد المرابين الرومان في وظيفة المسؤول المالي ليتمكن من تحصيل الديون التي أخذها الزمار أثناء إقامته في روما. أما الحدث الثاني فهو نقل الحكم إلى ابنته، كليوباترا السابعة، وابنه، بطلميوس الثالث عشر بعد موته.

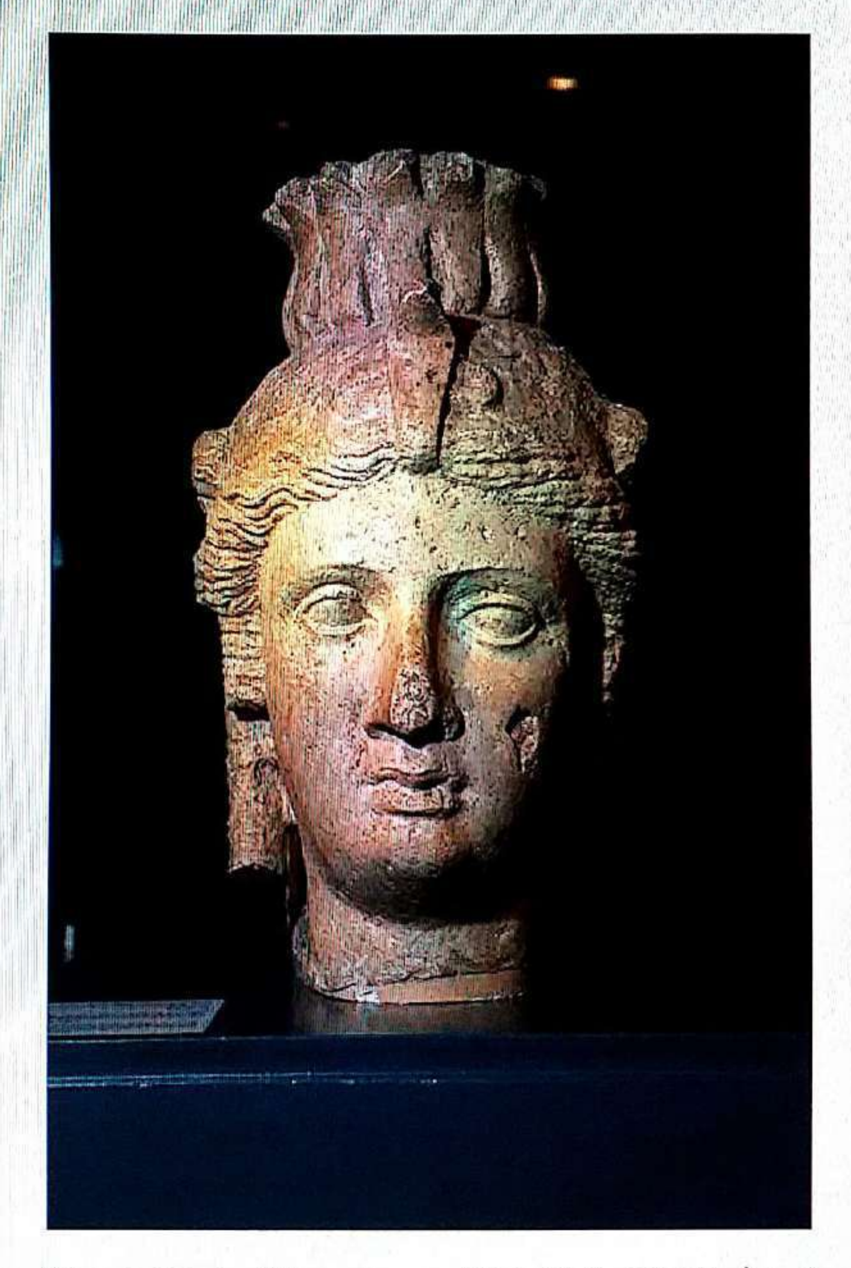
لقد كانت كليوباترا الثالثة معاصرة لأحداث، ودافعة لأخرى، وأدت في نهاية المطاف إلى وصول الأسرة البطلمية إلى المحطة الأخيرة، بل إلى المحطة الأجمل، والأكثر شهرة، والأطول خلودًا في تاريخها الطويل، بل في تاريخ العالم القديم كله، وأعني فترة حكم المرأة الأجمل والأذكى والأقوى والأشهر، الملكة كليوباترا، المشهورة دومًا وأبدًا، أو حسب ترتيبها بين ملكات الأسرة العديدات اللائي حملن نفس الاسم، كليوباترا السابعة، أيقونة العالم في الجمال والذكاء والثقافة وقوة الشخصية والعذوبة والرقة والسحر والجاذبية وكل ما وُهب لامرأة عبر الأماكن والعصور والأزمان.

الملكة كليوباترا السابعة

لم تحظَ ملكة عبر العصور بما حظيت به الملكة الأشهر كليوباترا السابعة من عشق وهيام وإعجاب ليس له مثيل عبر الأزمنة والعصور ومن خلال الأمكنة والحضارات.

كانت الأسرة البطلمية شبه ميتة قبل وصول كليوباترا إلى حكم مصر بيد أنها عجَّلت باحتلال الرومان لمصر، ليس عن طريق القوة العسكرية فقط، بل عن طريق إلهاب قلوب وعقول قادتها، مما دفعهم إلى احتلالها وتحويلها إلى جزء من الإمبراطورية الرومانية.

بعد موت والدها بطلميوس الثاني عشر الزمار، انتقل العرش إلى ابنه وابنته. غير أن الاثنين كانا يمتلكان الطموح ليحكم كلٌ منهما مستقلاً؛ فوقع بينهما صراع شديد، وجدت كليوباترا من خلاله أنها لا تحارب أخيها فقط، ولكن رجال القصر أيضًا؛ فقررت الهرب حتى تجد الفرصة سانحة للعودة.



(ربما رأس الملكة كليوباترا السابعة الموجودة بمتحف الآثار بمكتبة الإسكندرية)

كانت كليوباترا تخطط للعودة إلى الحكم، وكان الصراع في روما للسيطرة عليها على أشده بين يوليوس قيصر وصديقه وشريكه بومبي، وانتهى الصراع بهزيمة بومبي، وهروبه إلى مصر، عسى أن يجد ردًا لجميله عند أبناء بطلميوس الزمار إذ كان بومبي هو من أعاده إلى

مصر. ووصل بومبي إلى مصر، ولكنه قُتل. ووصل يوليوس قيصر إلى الإسكندرية. وحين علم بقتل بومبي، حزن كثيرًا على صديقه، وأكرم مثواه. وبعد أن هدأ يوليوس قيصر من صدمة قتل صديقه، بدأ يتجول في المدينة وكأنه ملك على البلاد؛ فاستفز ذلك كثيرًا من الإسكندريين الوطنيين.

تدخل يوليوس قيصر

علم يوليوس قيصر بالمشكلات التي بين الأخوين؛ فأرسل في طلبهما. ودخلت كليوباترا القصر من خلال خادمها الذي لفَّها في سجادة؛ فخرجت منها كأفروديت، ربة الحب والجمال الخارجة من القوقعة، فانبهر بها يوليوس قيصر. وبعد هزيمة أخيها، أعلن يوليوس قيصر الملكة كليوباترا السابعة ملكة على مصر.

كان عليها أن تدفع ثمن مساعدة قيصر لها، وكان الثمن هو رحلة نيلية لثلاثة أشهر. عادت منها كليوباترا تحمل طفله في أحشائها، وعاد قيصر إلى روما بعد أن أعلن كليوباترا ملكة على مصر، وزوجها من أخيها بطلميوس الرابع عشر. وما لبث كليوباترا أن أنجبت ابنًا من يوليوس قيصر، باسم «قيصر»، وأسماه المصريون - ساخرين - «قيصرون»!

شهدت مصر في هذه الفترة من حكم كليوباترا انتعاشة قوية في الاقتصاد والحياة السياسية، وقامت كليوباترا بزيارة روما ومقابلة قيصر، وشعرت وكأنها أصبحت ملكة على روما. ومكثت هناك عامين، ثم قُتل يوليوس قيصر داخل السيناتو.

ومثلت نهاية قيصر غير المتوقعة صدمة عنيفة لكليوباترا التي لملمت أحزانها، وعادت إلى مصر، وأعلنت ابنها قيصر (أو قيصرون) شريكًا لها في حكم مصر، بعد أن قتلت أخاها بطلميوس الرابع عشر!

في روما، اندلع الصراع الشديد بين أنصار وأعداء يوليوس قيصر، وتزعَّم جيش الأنصار مارك أنتوني وأكتافيوس. وانتهى الصراع بهزيمة أعداء يوليوس قيصر، واقتسام الملكية بين أنصار يوليوس قيصر، وكان نصيب مارك أنتوني الجزء الشرقي من الإمبراطورية.

وأرسل هذا العاشق القديم إلى كليوباترا طالبًا اللقاء، ولم تبذل كليوباترا الكثير من المجهود؛ فمارك أنتوني كان على أتم الاستعداد للوقوع في شباكها. وأنجب منها ثلاثة أبناء، بل أعلن أن أبناءه منها هم الأبناء الشرعيون، وأعلن زواجه منها مخالفًا بذلك القانون الروماني الذي لم يكن يسمح بالزواج من أجنبيات، وقام بتطليق زوجته شقيقة أكتافيوس، وأعلن أن كل الولايات الشرقية ملك كليوباترا، وأن الإسكندرية هي عاصمة الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية.

أعلن أكتافيوس الحرب على شريك وصديق الأمس الذي أصبح عدو اليوم. وبدأ يشهّر به وبكليوباترا التي أطلق عليها وصف «العاهرة»! ونجح في الحصول على موافقة السيناتو في شن حرب للقضاء على كليوباترا وأنتوني، وأقسم أن يحضر كليوباترا مقيدة بالسلاسل إلى روما.

معركة أكتيوم البحرية

التقى الطرفان في معركة أكتيوم البحرية، وهُزم فيها أنتوني وكليوباترا وهربا إلى مصر، وأشاعت كليوباترا أنها ماتت لتستثير قوة أنتوني، غير أنه مات. دخل أكتافيوس من سوريا إلى مصر، واستولى عليها تمامًا، وحاولت معه كليوباترا بكل الوسائل، غير أن هذا الشخص، العصامي الريفي الأصل، رفض كل محاولات كليوباترا التي أخذت حياتها بيديها عن طريق حية الكوبرا، وإن كان المؤرخ بلوتارخ، الذي يحمل كليوباترا المسؤولية كاملة، يرى أن أكتافيوس أرسل إليها من يقتلها.

تُعد موقعة أكتيوم حدًا فاصلاً في تاريخ الأسرة البطلمية وروما؛ فهي حرب قامت بين دولتين خارج حدود الدولتين، وغيرت مصير الدولتين. وكان السبب الرئيس لهذه المعركة هو ما أعلنه أكتافيوس من دعاية ضد شريكه أنتوني الذي ترك زوجته أكتافيا، أخت أكتافيوس، وتزوج من كليوباترا، وإعلانه شرعية هذه الزيجة، ورغبته في الدفن في الإسكندرية، وأعلن أوكتافيوس في السيناتو أنه سينتقم من العاهرة التي تحكم مصر.

وبدأ يستعد للحرب معلنًا أنه يريد القضاء على المرأة الأجنبية التي تريد السيطرة على روما، ووضعت كليوباترا وأنتوني القوات عند أكتيوم على الشواطئ الغربية لليونان، ويروي بلوتارخ في وصفه لسيرة حياة أنتوني أن كليوباترا رفضت النصيحة بالابتعاد عن الحرب والعودة إلى مصر خشية أن يحدث اتفاق منفرد بين أكتافيوس وأنتوني، فتفقد حليفها وشريكها أنتوني، ومن ثم سلطانها. ويستمر بلوتارخ في سرد المعركة محمّلاً كليوباترا خطأ خوض معركة بحرية في الوقت الذي كان معروفًا أن قوة أنتوني في المعارك البرية، وانتهى الجزء الأول من المعركة بانتصار أكتافيوس، وأصبح الطريق ممهدًا أمامه للإسكندرية التي حاول أنتوني الدفاع عنها، بيد أنه لم يتمكن من ذلك؛ لانكسار روح جنوده المعنوية، وتسرب نبأ انتحار كليوباترا الذي كان له تأثير سلبي على أنتوني الذي فضّل الموت على العيش دونها.

نهاية كليوباترا الجميلة

دخل أكتافيوس الإسكندرية، وحاولت كليوباترا إثناءه عن عزمه في أن يقيدها بالسلاسل في شوارع روما؛ فعرضت عليه التنازل عن العرش لأبنائها مقابل أن يمنحها الأمان، ولكنه

كان مصرًا على رأيه؛ فآثرت كليوباترا الانتحار بحية الكوبرا، وإن كان البعض يذكر أن أكتافيوس قد تمكن منها وقتلها.

بهزيمة وموت كليوباترا السابعة تسقط دولة البطالمة، وتدخل مصر إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية منذ عام ٣٠ قبل الميلاد.

كانت الملكة الجميلة والذكية والمثيرة كليوباترا السابعة، وريثة الفراعنة وسليلة البطالمة، ملكة هزت العالم، وغيرت التاريخ، واهتمت بها الآداب والفنون في العالم كله قديمًا وحديثًا أكثر من أي ملكة أخرى عداها شاء مَن شاء وأبى مَن أبى.

خاتمة

عظمة ملوك وملكات مصر القديمة

لقد أذهلت مصر القديمة العالم بكل إبداعاتها وإنجازاتهم منذ أقدم العصور وإلى الآن. ومن خلال استعراض هذه المجموعة قليلة العدد من ملوك وملكات مصر القديمة منذ أقدم العصور إلى نهايات تاريخ مصر في العصر البطلمي، وتحديدًا إلى نهاية حكم الملكة الساحرة الجميلة، كليوباترا السابعة، نكون قد تعرفنا على بعض من تاريخ مصر القديمة، وبعض من أحداثها السياسية المثيرة ودور الملوك والملكات والمرأة المصرية القديمة المهم والمؤثر بقوة في مجتمعنا المصري القديم، خصوصًا في عالم الملكية المصرية المقدسة.

أوضحنا أن أهمية دور الرجل كانت تأتي من أهمية دور المرأة في مصر القديمة وانفتاح المجتمع المصري القديم وتقلد المرأة المصرية العظيمة فيه حكم مصر العظيمة وأن المرأة في مصر القديمة نجحت في تحقيق إنجازات لا تقل عظمة عما أنجزه ملوك مصر العظام من الرجال. هذه مصر العظيمة. وهؤلاء هم ملوك مصر العظام وملكات مصر العظيمات الذين حكموا العالم وأثبتوا جدارة في حكم البلاد وإدارة شؤون الحكم، سواء أكانوا ملوك مصر العظام أو ملكات مصر الحاكمات أو الوصيات على عروش أبنائهن من الملوك صغار السن، أو حين تولين حكم مصر العظيمات كملكات منفردات. هذه صفحات ناصعة البياض من تاريخ مصر العظيمة توضح لنا سبق مصر في كل المجالات، وكذلك تؤكد على تحضُر مصر وضربها المثل والقدوة للعالم كله قديمًا وحديثًا.

من خلال ما تم استعراضه أيضًا في هذا الكتاب من تاريخ الملوك والملكات في مصر القديمة، أودُ أن أؤكد على أن هذه مجموعة منتقاة منهم ابتداءً من الملك المحارب حور عحا، أو الملك مينا موحد القطرين، ومرورًا بفراعنة مصر المحاربين العظام تحتمس الأول وتحتمس الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني ورمسيس الثاني والملك نختنبو الثاني، آخر فرعون وحاكم مصري، قبل الرئيس محمد نجيب، أول حاكم لمصر بعد أجداده الملوك الفراعنة، ووصولاً إلى آخر حكام مصر في عصر البطالمة.

إن هذه خطوط عريضة من سِيَر الملوك والملكات المشرقة ومن خلال أعمالهم وإنجازاتهم التي تزين جبين الإنسانية في كل زمان ومكان. والهدف من وراء كتابة هذا الكتاب واختيار الملوك والملكات هو التأكيد على عظمة الحضارة المصرية منذ القدم.

مصر هي أول كلمة في كتاب التاريخ وأهم موقع في كتاب الجغرافيا.

مصر هي صانعة الحضارة ومبدعة التاريخ.

مصر هي أعظم دولة ثقافيًا في العالم قديمًا وحديثًا.

لقد عبرت الحضارة المصرية القديمة عن عظمة الإنسان المصري مبدع هذه الحضارة الخالدة ورقيّه وحِسّه الحضاري الذي لا يُجَارى، فكان لمصر القديمة ما كان من مجد وفضل وتفوق بفضل إبداع الإنسان المصري القديم وتوفر الكثير من الأسباب التي جعلت منه صانع الحضارة ومبدع الأخلاق ومفجر الضمير في ذلك العمر المبكر من تاريخ الإنسانية قبل الزمان بزمان.

ولقد كانت مصر القديمة سبّاقة للعالم كله في كل الميادين، وكذلك نجحت مصر في تأسيس أول إمبراطورية في التاريخ من الأناضول شمالاً وإلى القرن الأفريقي جنوبًا، ومن الفرات شرقًا وإلى الصحراء الليبية غربًا. وقامت الإمبراطورية المصرية على أسس راسخة من التأكيد على مبادئ الحق والعدل والأمن والاستقرار ونشر العلم والعمران والمحبة والسلام في أرجاء الإمبراطورية المصرية الفسيحة وبين كل الأجناس والملل والنِحل التي كانت تعيش في ظِل حمايتها.

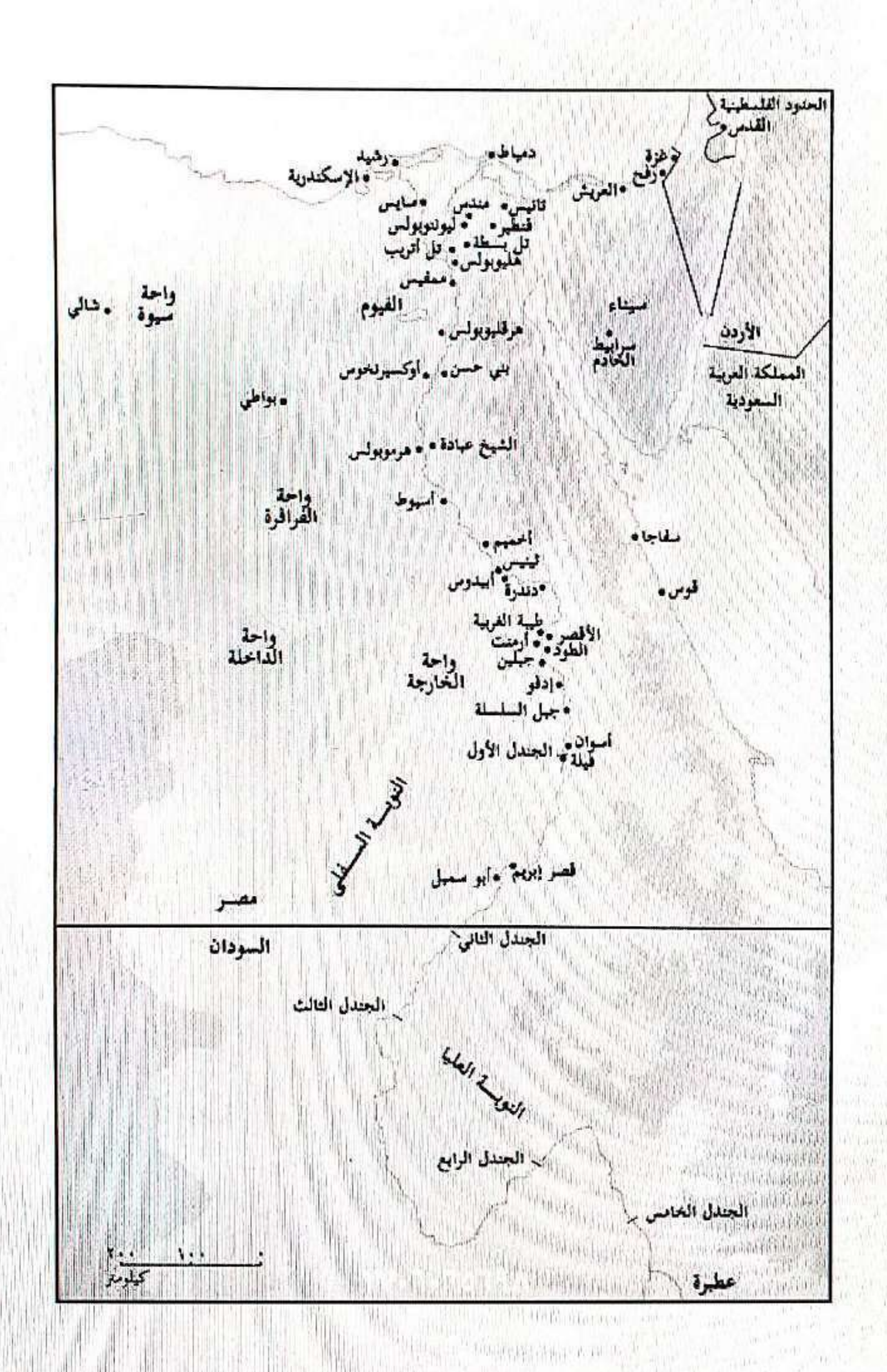
ما تزال مصر القديمة تبهرنا بآثارها وتاريخها واكتشافاتها الأثرية المثيرة التي ما تزال تسلبنا وعينا منذ أقدم العصور إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. هذه هي مصر الرائعة والفريدة. وهذا هو دور الملكية المصرية المقدّسة من خلال استعراض دور ملوك وملكات مصر القديمة وأدوار العائلة المالكة الرائعة في ذلك المجتمع البشري المتقدم للغاية آنذاك؛ وذلك لأن مصر القديمة قدرت أيما تقدير دور كل من الرجل والمرأة المصرية سواء بسواء. وعلى سبيل المثال، لولا المرأة المصرية العظيمة، أو ابنة ووريثة الربة إيزيس، ما كانت مصر القديمة، وما كانت مصر عمومًا وحضارتها الخالدة على وجه الزمن.

هذه هي مصر أرض القدم والأصالة والتواصل الحضاري والتدين والتقدم والاستمرارية. وهذه هي مصر العظيمة التي علّمت العالم كله كل شيء.

د. حسين عبد البصير

مدير متحف الآثار-مكتبة الإسكندرية

أهرامات الجيزة، ٣٠ أغسطس ٢٠٢١



الحدود الفلسطينية
القدس
غزة
رفح
العريش
دمياط
رشيد
الإسكندرية
سايس
منديس
تانيس
ليونتوبولس
قنطير
تل بسطة
تل أتريب
هليوبولس
ممفيس
واحة سيوة
شالي
الفيوم
سيناء
الأردن
هرقليوبولس
سرابيط الخادم
المملكة العربية السعودية
بني حسن
أوكسيرنخوس
بواطي
الشيخ عبادة
هرموبولس
واحة الفرافرة
أسيوط
سفاجا
الحميم
ثينيس
أبيدوس
دندرة
قوس
طيبة الغربية
الأقصر
أرمنت
الطود
جبلين
واحة الداخلة
واحة الخارجة
إدفو
جبل السلسلة
أسوان
الجندل الأول
فيلة
النوبة السفلى
قصر إبريم
أبو سمبل
مصر
السودان
الجندل الثاني
الجندل الثالث
النوبة العليا
الجندل الرابع
الجندل الخامس
عطبرة
٠
١٠٠
٢٠٠
كيلومتر

التسلسل الزمني لتاريخ مصر القديمة

عصر ما قبل الأسرات ٥٣٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م.

عصر الأسرات المبكر ٣٠٠٠ - ٢٦٨٦ ق.م.

(الأسرتان الأولى والثانية)

الدولة القديمة ٢٦٨٦ - ٢١٦٠ ق.م.

(الأسرات الثالثة إلى الثامنة)

عصر الانتقال الأول ٢١٦٠ - ٢٠٥٥ ق.م.

(الأسرات التاسعة إلى الحادية عشرة [في طيبة فقط])

الدولة الوسطى ٢٠٥٥ - ١٦٥٠ ق.م.

(الأسرات من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة)

عصر الانتقال الثاني ١٦٥٠ - ١٥٥٠ ق.م.

(الأسرات من الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة)

الدولة الحديثة ١٥٥٠ - ١٠٦٩ ق.م.

(الأسرات من الثامنة عشرة إلى العشرين)

عصر الانتقال الثالث ١٠٦٩ - ٦٦٤ ق.م.

(الأسرات من الحادية والعشرين إلى الخامسة والعشرين)

العصر المتأخر ٦٦٤ - ٣٣٢ ق.م.

(الأسرات من السادسة والعشرين إلى الثلاثين)

العصر البطلمي ٣٣٢ - ٣٠ ق.م.

العصر الروماني ٣٠ ق.م. - ٣٩٥ م